

الاستبداد السلطوي  
والفساد الجنسي

# ألف ليلة وليلة <sup>في</sup>

د. محمد عبد الرحمن يونس

# الاستبداد السلطوي والفساد الجنسي ألف ليلة وليلة

د. محمد عبد الرحمن يونس

• كاتب من سورية

كنت أشعر حين قراءتي لنصوص ألف ليلة وليلة بمتعة عارمة تستوطن ذاكرتي، فقد كانت قادرة على إيقاظ جميع أحلامي الجامحة اللغاة، المتوثبة أبداً صوب مدن ناشئة مسكونة بالدهشة والغرابة. وهذه المتعة التي كنت أعايشها كانت أكبر من جميع المتع التي كنت أجدها في الخطابات الأدبية الأخرى، من شعر قديم و حديث وقصة ورواية ومسرح وتراث أدبي وتاريخي. ومسكوناً بالدهشة والأحلام الجامحة التي لم تتحقق طوال حياتي، رحلت أقرأ هذه النصوص يشغف العاشق المنبهر بجمالها، وسحرها وصدقها وكذبها في آن. ولعل هذه الدهشة هي السبب الرئيس الذي دفعني لكتابة كتابي هذا، ونتيجة لإعجابي بهذا العمل، عكفت منذ سنوات على قراءته قراءة المستمتع، ثم حاولت دراسته وفهم نصوصه، وبعد ذلك أنجزت فيه عدة أبحاث طويلة نشرت في المجالات العربية.

وقد لاحظت، من خلال كثير من الدراسات حول ألف ليلة وليلة، والتي استطعت الاطلاع عليها، سواء أكانت مترجمة إلى اللغة العربية أم مكتوبة بها، أن هذه الدراسات لم تنرس موضوع الفساد السلطوي دراسة مستقلة ومستفيضة، ولا موضوع الفساد الجنسي، ولذا كان كتابي محتقياً بهذا الموضوع.

من مقدمة المؤلف

ISBN 978-9953-87-135-6



9 789953 871356

الدار العربية للعلوم - ناشرون

Arab Scientific Publishers, Inc.

www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

ص. ب. 13-5574 شوران 1102-2050 بيروت - لبنان  
هاتف: 785107/8 (+961-1) فاكس: 786230 (+961-1)

www.asp.com.lb

الاستبداد السلطوي  
والفساد الجنسي  
في ألف ليلة وليلة



# الاستبداد السلطوي والفساد الجنسي في ألف ليلة وليلة

د. محمد عبد الرحمن يونس



الدار العربية للعلوم - ناشرون - ش.م.ل.  
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة  
تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي  
والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى  
بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر

### الطبعة الأولى

1428 هـ - 2007 م

ردمك 978-9953-87-135-6

### جميع الحقوق محفوظة للناشر



الدار العربية للعلوم - ناشرون ش.م.ل

Arab Scientific Publishers, Inc., S.A.L

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (961-1)

ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان

فاكس: 786230 (961-1) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: <http://www.asp.com.lb>

---

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم - ناشرون ش.م.ل

---

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (9611)

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (9611)



## المحتويات

9	مقدمة.....
15	مدخل.....
25	1 - في بعض ملامح سلطة الحكّام الرجال في ألف ليلة وليلة.....
26	أ - بعض ملامح شخصية الخليفة هارون الرشيد.....
42	ب - ملامح شخصية الخليفة عبد الله المأمون.....
61	ج - ملامح شخصية الخليفة عمر بن عبد العزيز.....
68	د - ملامح بعض الشخصيات السلطوية الأخرى في ألف ليلة وليلة.....
107	2 - استبداد نساء ألف ليلة وليلة - نماذج ثرية وسلطوية.....
108	أ - في بعض ملامح السيدة زبيدة زوجة الخليفة هارون الرشيد.....
120	ب - ملامح إحدى جواري السيدة زبيدة.....
128	ج - بعض ملامح استبداد إحدى الملكات الأسطوريّات في الليالي.....
	3 - ملامح بعض النساء السلطويات الزواني وبعض ملامح الإيديولوجيا الرجوليّة
135	المعادية لهنّ في ألف ليلة وليلة.....
161	4 - سلطة الحكاية وسلطة القتل في ألف ليلة وليلة.....
207	الخاتمة.....
215	مصادر البحث ومراجعته.....



## مقدمة

ما دفعني إلى كتابة هذا الكتاب - الاستبداد السلطوي والفساد الجنسي في ألف ليلة وليلة - وبالدرجة الأولى - إعجابي بكتاب ألف ليلة وليلة، وقدرته على استجلاء مظاهر المدن، سواء أكانت مُتخيَّلة أم واقعية، على المستويين: الاجتماعي والسياسي، وإعجابي بعنصر السرد الأخاذ الذي اعتمده رواة ألف ليلة وليلة، وقدرته العجيبة على إضفاء وشاح من السحر والخرافة على واقع المدن الإسلامية وغير الإسلامية، ومن ثم لإدانة المدن نفسها، بسلطاتها، وعاداتها وقيمها، وطبقاتها الاجتماعية، والسياسية، وعلاقاتها الجنسية المتهتكة أحياناً، والمشروعة أحياناً أخرى، مع فسادهما في الوقت نفسه. ويرجع سبب اقتران الاستبداد السلطوي بالفساد الجنسي في كتابي هذا إلى أنّ وجود الجماعات السياسية التي تحكم مدن ألف ليلة وليلة وتدير شؤونها، تقوم على رأسها سلطات فاسدة باطشة متجبرة تحركها شهواتها الجنسية وتتحكم في قراراتها، وتبطل أعمال العقل، إذا حضر الجسد الشهواني المكتنز إثارة وجمالاً جنسيين، وعلى الرغم من كل ذلك، نجد أنّ سكان مدن ألف ليلة يعتقدون أنّ ملوكهم أو خلفاءهم هم ظلّ الله على الأرض، والأوصياء على شريعته. ونظراً لأنّ سلطات هذه المدن سلطات استبدادية فإنّه يُلاحظ أنّ قوانين هذه المدن وأعرافها وتقاليدها تتشكّل بالدرجة الأولى تأسيساً على قوانين سلطة القصر ورغباتها، قبل أن تُستمد من رغبات الشعب وآماله وتطلّعاته.

وإذا كان حكام ألف ليلة وليلة خلفاء أو ملوكاً يستشيرون وزراءهم أو قادة جيوشهم العسكرية، أو خاصّة المقربين منهم في بعض الأحيان، فإنّ هؤلاء الحكام يظّلون في نهاية المطاف أنانيين وفرديين وطغاة يتعاركون لأجل النساء، ويبددون أموال دولهم للحصول على هاته النساء اغتصاباً أو امتلاكاً.. ومن هنا بدا لي أنّ دراسة ملامح حكام ألف ليلة وليلة يجب أن تكون مترامنة مع دراسة ملامح الجانب الجنسي الشبقي لدى هؤلاء الحكام.

كنت أشعر حين قراءتي لنصوص ألف ليلة وليلة بمتعة عارمة تستوطن ذاكرتي، فقد كانت قادرة على إيقاظ جميع أحلامي الجاحمة الملقاة، المتوتبة أبداً صوب مدن

نائية مسكونة بالدهشة والغرابة. وهذه المتعة التي كنت أعاشها كانت أكبر من جميع المتع التي كنت أجدها في الخطابات الأدبية الأخرى، من شعر قديم وحديث وقصة ورواية ومسرح وتراث أدبي وتاريخي. مسكوناً بالدهشة والأحلام الجامحة التي لم تتحقق طوال حياتي، رحلت أقرأ هذه النصوص بشغف العاشق المنبهر بجمالها، وسحرها وصدقها وكذبها في آن. ولعل هذه الدهشة هي السبب الرئيس الذي دفعني لكتابة كتابي هذا ونتيجة لإعجابي بهذا العمل، عكفت منذ سنوات على قراءته قراءة المستمتع، ثم حاولت دراسته وفهم نصوصه، وبعد ذلك أنجزت فيه عدة أبحاث طويلة نُشرت في المجالات العربية<sup>(1)</sup>.

وقد لاحظت، من خلال كثير من الدراسات حول ألف ليلة وليلة، والتي استطعت الاطلاع عليها، سواء أكانت مترجمة إلى اللغة العربية أم مكتوبة بها، أن هذه الدراسات لم تدرس موضوع الفساد السلطوي دراسة مستقلة ومستفيضة، ولا موضوع الفساد الجنسي، ولذا كان كتابي محتفياً بهذا الموضوع..

ومن هنا، فإن الآراء التي تطالب بالتوقف عن البحث في حكايات ألف ليلة وليلة، بدعوى أن هذه الحكايات قد استوفت حقها من الدراسة والتحليل<sup>(2)</sup>، ليست

(1) وهذه الأبحاث هي:

- أ - المرأة وخطاب الجنس في ألف ليلة وليلة، مجلة المعرفة السورية، وزارة الثقافة، دمشق، العددان 316/317 أكتوبر، نوفمبر، 1989م.
- ب - مدخل إلى دراسة المرأة في ألف ليلة وليلة، مجلة الحياة الثقافية، وزارة الثقافة، تونس، العدد السابع والخمسون، العام 1990م.
- ج - خطاب الحب والجنس والسياسة وعلاقته بمكونات البنية الحكائية في ألف ليلة وليلة، مجلة دراسات عربية، دار الطليعة، بيروت، العددان 11/10، أغسطس، سبتمبر، 1990م.
- د - مجتمعات ما تحت المجتمع - ألف ليلة وليلة، فضاء السرد، الجسد، المكان، مجلة كتابات معاصرة، بيروت، العدد الثالث عشر، 1992م.
- هـ - ألف ليلة وليلة - جدل الجنس والسلطة، مجلة الناقد، دار رياض الرئيس، لندن، العدد الثاني والخمسون، أكتوبر 1992م.
- و- نقد خطاب الحب والسلطة في "تاريخنا الليلي"، مجلة الفكر العربي، معهد الإنماء العربي، بيروت، العدد الثاني والسبعون، إبريل، يونيو، 1993م.
- ز - بنائية الأمثلة الوظيفية في الحكاية الشعبية، حكاية علاء الدين أبي الشامات/انموذجاً، مجلة الآداب الأجنبية، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، العدد الثالث والثمانون، صيف 1995م.
- (2) في خير صحافي وتعليق على أهمية "ألف ليلة وليلة" والأبحاث حولها، وتحت عنوان "مذاق ألف ليلة وليلة" - دون ذكر لاسم معدّ الخبر - قام معدّ الخبر بنقل رأي الباحثة المصرية أماني أبو الفضل، التي أعدت رسالة ماجستير حول ألف ليلة وليلة، والذي يقول: "إن ألف ليلة وليلة" استوفت حقها تماماً [من البحث] وأن الألوان لإعطاء الأعمال العربية الأخرى حقها من الدراسة".

صائبة تماماً، لأنّ نصوص الليالي قابلة لمزيد من الدرس والتحليل، ومن زوايا نظر متعددة، بتعدّد الباحثين وقدراتهم ومواهبهم، وطرائقهم المختلفة في التحليل والدراسة. فالأبحاث في ألف ليلة وليلة لا يمكن أن تكون نهائية، لأنّ هذه النصوص تفتح على تاريخ الأمم والحضارات، وميثولوجياتها، وعاداتها وقيمها وثقافتها، وحرورها وانتصاراتها وهزائمها، وعلى ما هو جميل وقبيح، وخيرٍ وشريرٍ فيها، وبالتالي فإنّ البحث في هذه النصوص يظلّ قائماً ومشروعاً، لأنّ نصوص ألف ليلة وليلة تظلّ نصوصاً خالدة على مرّ العصور، وقادرة على أن تكون منبعاً ثراً لكثير من النصوص الإبداعية الحديثة، سواء في الشعر، أو في القصّة، أو في الرواية، أو في المسرح، أو في السينما.

ومن هنا بدا لي أنّ المنهج الذي يمكن أن يساعدني على فهم نصوص حكايات ألف ليلة وليلة وتحليلها، وعلى دراسة نقاط التلاقي بين ما جاء في هذه الحكايات وبين ما هو قائم في المجتمعات العربية والإسلامية، هو منهج الدراسات الاجتماعية، ولذا فقد اعتمدت بعض معطياته في دراسة نصوص الليالي وقارنت بين ما جاء في هذه النصوص وبين ما هو قائم أساساً على أرض الواقع، ففي نصوص ألف ليلة وليلة لا يمكن الفصل بين النصوص الحكائية وبين الواقع الاجتماعي الذي فرز هذه النصوص، لأنّ هذه النصوص هي مرآة للحضارة العربية والإسلامية بوجهيها السليبي والإيجابي.

وقد أفدت أيضاً من معطيات المنهج التاريخي في إلقاء الضوء على ما ورد في الليالي، وقد ساعدني هذا المنهج على فهم حركات الأبطال والجماعات الإنسانية في مجتمعات ألف ليلة وليلة ومواقفهم، لأنّ النصوص التاريخية التي استطعت الاطلاع عليها شكّلت خلفية مرجعية مهمّة ساعدتني على فهم نصوص الليالي، وكانت وسيلة من وسائل كشف ما خفي في هذه النصوص، وبالتالي كان لها الدور الكبير في تعليل الأحكام واستنتاجها. وعلى الرغم من أنّ قسماً من حكايات الليالي يوغل بعيداً في عمق الزمن التخيليّ، فإنّ قسماً من هذه الحكايات يستمدّ مقوّمات أحداثه من أحداث التاريخ، بل نجد أحياناً أنّ غير حكاية من حكايات الليالي ترد بالأحداث نفسها في المصادر التاريخية، فعلى سبيل المثال نجد أنّ حكاية: «الحجاج بن يوسف الثقفي مع هند بنت النعمان» ترد بالأحداث نفسها وأسماء

شخصها عند الأبشيهي في كتابه: «المستطرف في كل فن مستظرف»، وترد عند الأصفهاني في كتابه: «الأغاني»، وعند ابن عبد ربّه الأندلسي في كتابه: «العقد الفريد». ونجد أنّ إحدى الحكايات المتشعبة من حكاية «الأحدب وملك الصين»، وهي حكاية «التاجر البغدادي مع إحدى جواري السيدة زبيدة»، تتناصّ بشكل واضح مع إحدى حكايات التنوخي في كتابه: «الفرج بعد الشدة»، والتي يسميها التنوخي بـ: «أقسم أن يغسل يديه أربعين مرة إذا أكل زيرباجة». ونجد أنّ حكاية: «المأمون ورغبته في هدم أهرامات مصر» ترد بالأحداث نفسها، وباختلاف جد طفيف في أسماء شخصوها، عند المسعودي في كتابه: «أخبار الزمان»، بالإضافة إلى عدد غير قليل من الحكايات الأخرى التي ترد في مصادر تاريخية متعدّدة.

أمّا مصادري ومراجعي في هذا الكتاب فهي كثيرة، بحيث يبدو الحديث عنها طويلاً، ولذا فقد اكتفيت بالإشارة إليها بكلّ أمانة في هوامش الكتاب، بالإضافة إلى فهرس المصادر والمراجع والدوريات في آخر الكتاب.

ويبقى أهمّ مصدر رئيس اعتمده هذا البحث في دراسة الموضوعات الرئيسة والفرعية، هو: ألف ليلة وليلة (بأجزائه الأربعة، طبعة دار مكتبة الحياة، بيروت). غير أنّ هذه الطبعة ليست الوحيدة التي اطّلت عليها، فقد اطّلت على الطبعات الآتية من ألف ليلة وليلة: (طبعة المكتبة الشعبية، بيروت، د.ت، بأجزائه الأربعة)، و(طبعة دار مكتبة التربية، بيروت، بأجزائه الأربعة الطبعة السادسة، 1412هـ/1992م)، والطبعة المهذّبة التي أعدّها رشدي صالح (دار الشروق، القاهرة، جزءان)، وهي طبعة ناقصة، وبالتالي كان طبعياً أن لا يعتمد هذا الكتاب.

أمّا سبب اعتمادي طبعة دار مكتبة الحياة فيعود إلى أنه بعد مقارنتي بين الطبعات الثلاث الأولى (مكتبة الحياة - المكتبة الشعبية - مكتبة التربية)، وجدت أنّ الفروق بين هذه الطبعات طفيفة جداً، وأنّ هذه الطبعات تكاد تكون متطابقة تماماً: في الحكايات، والأحداث، والمدن الواقعية والمتخيّلة، والأبطال من الملوك والخلفاء والنساء والتجار. من هنا بدا طبعياً أن أكتفي بنسخة واحدة اعتمدها من أول الكتاب إلى آخره، وهي طبعة دار مكتبة الحياة. ولعلّ السبب الرئيس في اختيار هذه الطبعة هو ببساطة: أنّ الخط الطباعي الذي طبعت به هذه الطبعة أوضح من خلال كثافته اللونية، مقارنة بخط الطبعتين السابقتين. وهذا الخط، كما أرى، مريح للعينين،

ويجعل من القراءة فعلاً ممتعاً وجذاباً، أكثر مما لو كان الخط الطباعي غير واضح. بدأت كتابي بمدخل تحدّث فيه عن فعل السلطة عبر التاريخ، ودورها في استعباد الناس وإذلالهم، وتشويه العلاقات الاجتماعية والإنسانية في ما بينهم، حتى تتمكن من قيادتهم، وأثبتُّ بعض تعريفات السلطة من خلال المراجع، وذكرت بعض الشروط التي يجب أن تتوافر في الحاكم أو الخليفة، حتى يعيش رعاياه في أمان من بطشه، تأسيساً على آراء الفلاسفة والفقهاء الإسلاميين، ثم حاولت أن أدرس بعض ملامح سلطة الحكّام المهمّين في ألف ليلة وليلة، كما أبرزتها.

ونظراً لأنّ حكام مدن الليالي كثيرون جداً، فقد اكتفيت بإبراز أهمّ الملامح السلطوية لبعض الخلفاء، والحكام، وركّزت على الحكّام المعروفين تاريخياً. ومن هؤلاء الحكّام: الخليفة العباسي هارون الرشيد، وابنه الخليفة عبد الله المأمون، والخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز، والحجاج بن يوسف الثقفي والي الخليفة عبد الملك بن مروان على العراق. وعرّجت على بعض الملامح الاستبدادية للملك غير معروف تاريخياً وهو الملك عمر النعمان.

ويأتي تركيزي على هؤلاء الحكام، لأنّهم أهمّ الحكّام الذين يأخذون مساحات واسعة من السرد الحكائي، إذ تحفني حكايات ألف ليلة وليلة بهم احتفاءً واضحاً يفوق احتفاءها بغيرهم من الحكام، ولأنّ الحديث عنهم في الليالي كان متعدّداً ومتشعباً فقد ساعدني هذا التعدد على أن أدرس ملامحهم المتعددة والواضحة في الحكايات التي ذكرتهم، فالخليفة هارون الرشيد يكاد يكون محوراً رئيساً تدور حوله كثير من حكايات ألف ليلة وليلة، وهو حاكم متعدّد المواهب والملامح، ويجمع كثيراً من التناقضات في آن، ويبدو حضوره قوياً طاغياً على كل من حوله. بينما تبدو شخصية ابنه الخليفة عبد الله المأمون شخصية رئيسة نامية، متعددة الملامح والوجوه، فهي شخصية حكيمة وعاقلة وخبيرة بفنّ السياسة، ومتسامحة وقادرة على أن تعفو عن المعارضين السياسيين لحكمها، وفي مواضع أخرى تبدو شخصية عابثة لاهية عاشقة للفنّ والموسيقى، ومرة أخرى تبدو قوية وحازمة تفرض هيبتها على جميع من حولها، وبالتالي فإنّ هذه الشخصية تجمع ملامح مشتركة لعدة حكام من حكام الليالي.

أمّا الخليفة عمر بن عبد العزيز فإنّه يُمثّل نموذج الحاكم الأكثر عدلاً من بين حكام الليالي، فصورته العادلة تُمثّل في النهاية آمال الطبقات الفقيرة المسحوقة،

وتطلّعاتها صوب الحقّ والخير والعدل. أمّا شخصيتا الملك عمر النعمان والحجاج بن يوسف الثقفي، فإنّهما تمثّلان أهمّ الرموز الاستبدادية السلطوية في حكايات ألف ليلة وليلة، الرموز التي تطمح الطبقات الشعبيّة إلى الانتقام منها، وإسقاط نظام حكمها، والسخرية بها، ومن هنا فإنّ دراسة ملامح هاتين الشخصيتين يمكن أن تشكّل محاور بديلة من دراسة ملامح كثير من حكام الليالي، الذين يلتقون معهما في ملامح الظلم والاستبداد والجبروت والاعتداء على حريّات مواطنيهم.

إنّ دراسة ملامح هؤلاء الحكّام يمكن أن تقدّم صورة واضحة عن جميع خلفاء مدن ألف ليلة وليلة وحكّامها، سواء كانوا واقعيين أم من نسيج الخيال، وبالتالي كان التركيز عليهم من دون غيرهم. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد اكتفيت بدراسة ملامحهم منعاً للتكرار والإطالة، لأنّ دراسة ملامح الحكّام الآخرين لن تضيف جديداً إلى هذا الكتاب.

وحاولت إبراز الوجه الاستبدادي لبعض نساء السلطة في ألف ليلة وليلة. ومن هؤلاء النساء: السيدة زبيدة زوجة الخليفة هارون الرشيد، وجارية مستبّدة من جواربها، ومملكة أسطوريّة من ملكات ألف ليلة وليلة، وهي الملكة منار السنا، وأميرة أخرى غير معروفة تاريخياً، وهي الأميرة دنيا بنت الملك شهرمان. وهذه النساء يمكن أن تكون أهمّ الرموز الاستبدادية من بين نساء ألف ليلة وليلة جميعها، ولذا فقد اكتفيت بدراسة ملامحهنّ من دون غيرهنّ من النساء السلطويات الأخريات.

وعرّجت على أهمّ ملامح بعض النساء السلطويات الفاسدات الزواني، وبعض ملامح الإيديولوجيا الرجوليّة المعادية لهنّ. ولم أدرس ملامح المرأة السلطوية العادلة الورعة، الأمّ والأخت، والزوجة الوفيّة المستقيمة في أخلاقها وسلوكها، لأنّ حكايات ألف ليلة وليلة تكاد تخلو من هذا النموذج. وحاولت أن أبين إلى أيّ مدى تمارس النساء الجميلات من سلطة قوية على رجال السلطة، ثمّ أهّيت الفصل بدراسة تحت عنوان: سلطة الحكاية وسلطة القتل في ألف ليلة وليلة، درست فيها مدى تأثير سلطة الحكاية العجائبيّة على رجال السلطة، ودورها في إنقاذ الشخوص الرّواة من بطش رجال السلطة المروي لهم.

والله ولي التوفيق.

د. محمد عبد الرحمن يونس

## مدخل

«قيل لأحد النبلاء: لماذا لا تبني لك داراً؟ فقال ما أصنع فيها وأنا المقيم على ظهر الجواد أو في السجن أو في القبر<sup>(1)</sup>».

تأسيساً على هذه الرؤية يُمكن أن يُفهم الواقع المزري لنبلأء بني البشر وشرفائهم، عبر التاريخ الإنساني، في علاقاتهم مع سلطات بلدانهم التي تعمل فيهم تنكياً وتشريداً قسرياً وقد عُرف عن السلطة، ومن خلال تاريخها الطويل، احتقارها لمواطنيها، وتسخيرهم لخدمة مصالحها الشخصية؛ إذ رفع الحكام سيف البغي على رقاب شعوبهم، وعاتوا فيهم فساداً وتخريباً وتسلطاً وإرهاباً، وحكموا بلدانهم حكماً استبدادياً فردياً، وعدّوا أنفسهم أوصياء وأسياداً، وأصحاب سلطة مطلقة على شعوبهم. ويروى أنّ ملك فرنسا لويس الخامس عشر وقف في الثالث من آذار (مارس) 1716م أمام برلمان باريس قائلاً<sup>(2)</sup>: «في شخصي وحده تجتمع السلطة، ولي وحدي تعود السلطة التشريعية دون منازع أو حسيب. النظام العام محمله، يستمدّ وجوده من وجودي، وأنا حاميّه الأول. شعبي وأنا واحد. حقوق ومصالح الأمة، التي يجروون على جعلها جسماً منفصلاً عن الملك، هي، بالضرورة، متّحدة بحقوق ومصالحنا، ولا ترتاح إلّا بين يدي».

وعندما يتحدّث الملك لويس الخامس عشر، معظماً نفسه بكلّ هذه الفردية، والسطوة المطلقة، فإنّه لا يختلف كثيراً عن أيّ خليفة أموي أو عباسي، أو طاغية معاصر؛ لأنّ الحاكم الجائر يظنّ نفسه الإله المتوجّج بالمنعة والسطوة، وما على بني البشر إلّا طاعته، وطاعة أولاده ونسائه وجواريه وأفراد قبيلته. ومن هنا فإنّ السطوة المطلقة التي يمارسها الحاكم المستبدّ على أفراد شعبه، وقدرته السحرية

(1) عن/الكواكي، عبد الرحمن: طبائع الاستبداد، درا الشرق العربي، بيروت/حلب، الطبعة الثالثة 1411هـ/1991م، ص 57.

(2) عن/لابيار، جان وليام: السلطة السياسية، ترجمة إلياس حتّا إلياس، منشورات عويدات، باريس/بيروت، الطبعة الثالثة 1983م، ص 142.

الماكرة على تطويع الناس لأن يكونوا خدماً أذلاءً تابعين له، منقادين لأوامره انقياداً مطلقاً، جعلت كثيراً من الناس في العصور القديمة يتصورون أنه لا بدّ من أن يكون الحاكم من طبيعة غير طبيعة البشر، فهو من طبيعة إلهية، وهو إله أو ابن الإله. ويجكم بتفويض مباشر أو غير مباشر من الله<sup>(1)</sup>.

وحتى تستطيع السلطة السياسية الجائرة أن تقود الناس قطيعاً وراءها، لا بدّ من أن تحصّن نفسها بمجموعة من القادة الاستبداديين، الذين يعزّزون خطاباتها الفكرية وخطتها السياسية والعسكرية، إذ يساعدها هذا التعزيز على أن تصبح مطلقة شاملة في كلّ البنات الإنسانية العامّة: السياسية والاقتصادية والاجتماعية. وبسيف هؤلاء القادة الاستبداديين تتوّج نفسها تاجاً مقدّساً فوق رؤوس العباد؛ وبالتالي تمارس عليهم قهراً، وتصنع منهم أزالماً وخدماً، وتضعفهم وتفتتهم طوائف وقبائل، وتشكّل في ما بينهم تبايناً طبقيّاً حاداً، يقسمهم ففتين: «فئة حاكمة تتولى السلطة السياسية وتصدر القرارات والأوامر، وفئة أخرى محكومة لا يكون لها إلاّ الطاعة والتنفيذ. ونظراً إلى ما للسلطة السياسية في الدولة من صفات ذاتية خاصة فقد أطلق عليها الفقه الفرنسي اسم «السيادة»، وصفة السيادة مقتضاها أن سلطة الدولة سلطة عليا لا يسود عليها شيء ولا تخضع لأحد، ولكن تسمو فوق الجميع، وتفرض نفسها على الجميع»<sup>(2)</sup>.

وحتى تستطيع السلطة الاستبدادية أن تسمو فوق الجميع، عليها أن تعمل - وبكلّ جهودها المدروسة والمنظّمة - على إبقاء شعوبها جاهلة، لأنّها ترى في الجهل واحداً من الشروط الأساسيّة التي تمثّل قوتها<sup>(3)</sup>.

إذا كان من المعروف أنّه يكمن وراء انتشار السلطات الاستبدادية في جميع أنحاء العالم، أمراض محلية متشابهة، تظهر في أمكنة متعدّدة متباعدة، وتختلف نسبة تأثيرها، فإنّ هذا التباعد في المكان الذي تظهر فيه الأنظمة الاستبدادية، وهذا

(1) إمام، د. إمام عبد الفتاح: الطاغية - دراسة فلسفيّة لصور من الاستبداد السياسي، المجلس الوطني للثقافة والآداب، الكويت، "سلسلة عالم المعرفة"، العدد 183، رمضان 1414هـ/آذار (مارس)، 1994م، ص 9.

(2) م. ن، ص 17.

(3) باكونين، ميخائيل: الإله والدولة، تعريب جلال المخ، دار المعارف، سوسة/تونس، طبعة 1982م، ص 22.

الاختلاف في النموذج والشكل، تبعاً لاختلاف الزمان والمكان، لا يمنع من كون هذه الأنظمة جميعها متصلة مترابطة. ففي عالم أصبح من المستحيل فيه على بلد أن يجيا منعزلاً، ومكتفياً بذاته، لا مجال للنكران بأنّ ظهور نظام استبدادي في مكان ما يؤدّي إلى ظهوره في مكان آخر عن طريق العدوى<sup>(1)</sup>، وتبادل التأثير، والعلاقات التجارية والاقتصادية والسياسية والثقافية بين المكانين. وإذا كان للسلطة كل هذه القدرات، فما هو تعريفها؟

تشير الموسوعة الفلسفية إلى أنّ السلطة (Autorité, Authority)، «مفهوم (...)» يشير إلى النفوذ المعترف به كلياً لفرد أو نسق من وجهات النظر أو لتنظيم مستمدّ من خصائص معيّنة أو خدمات معيّنة مؤدّاة. وقد تكون السلطة سياسية أو أخلاقية أو علمية<sup>(2)</sup>. وينضوي تحت هذا المفهوم عدة أنواع من السلطات:

1. السلطة النفسية: وهي ما يطلق عليها اسم السلطان الشخصي، والتي تتمثّل في قدرة الإنسان على فرض إرادته على الآخرين، نظراً لقوّة شخصيته وشجاعته، وقدراته العقلية المتفوّقة.
2. السلطة الشرعية: وهي السلطة المُعترف بها في القانون، كسلطة الحاكم والوالد والقائد.
3. السلطة الدينيّة: وهي مستمدّة من الوحي الذي أنزله الله على أنبيائه، ومن سنن الرسل، وقرارات المجامع الدينيّة المقدّسة، واجتهادات الأئمة.
4. سلطة الأجهزة الاجتماعية التي تمارس السلطة، كالسلطة السياسية، والتربويّة، والسلطة القضائيّة وغيرها<sup>(3)</sup>.

ويعرّف جان وليام لايبار السلطة قائلاً<sup>(4)</sup>: «السلطة هي الوظيفة الاجتماعية التي تقوم على سنّ القوانين، وحفظها، وتطبيقها، ومعاينة من يخالفها، وهي التي

(1) دوفرجيه، موريس: في الدكتاتوريّة، ترجمة د. هشام متولي، منشورات عويدات، باريس/بيروت، الطبعة الثانية، تشرين أول، 1977م، ص 39.

(2) لجنة من العلماء والأكاديميين السوفياتيين: الموسوعة الفلسفية، ص 248 - 249.

(3) صليبا، د. جميل: المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني/مكتبة المدرسة، بيروت، طبعة 1982م، الجزء الأوّل، ص 670.

(4) السلطة السياسية، ص 49.

تعمل على تغييرها وتطويرها كلما دعت الحاجة: إنَّها الوظيفة التي لا غنى عنها لوجود الجماعة ذاته، لاستمرارها، ولتابعة نشاطها. من هنا بالذات، إنَّها تلك الوظيفة القائمة على اتِّخاذ المقررات التي يتوقَّف عليها تحقيق الأهداف التي تتابعها الجماعة. فـ (...) التنظيم، والتقارير، والحكم، والعقاب، هي المهام التي تنتظر السلطة، في آية جماعة كانت». على أنَّ هذه الوظيفة الاجتماعية عندما تتحرف عن مسارها الأخلاقي وتكرِّس نفسها لخدمة فئة من أصحاب النفوذ، فإنَّها تصبح المنتهكة الأولى للقوانين، والمتجاوزة والمحرفة لها، بحيث تصبح هذه القوانين أداة طيِّعة تخدم مصالح أصحاب النفوذ، وتضرِّ بمصالح الآخرين من الطبقات الأخرى، وتستعبدهم في آن. وهنا تنفصل السلطة عن الشعب، «وتدافع عن مصالح المستغلِّين - بكسر الغين - وهم الأقلِّية في المجتمع. ويمارسها الأشخاص الذين يصبح الحكم بالنسبة إليهم مهنة (الموظفون والجيش والبوليس.. الخ). [أما] المؤسسات الرئيسيَّة الهامَّة الملحقة بالسلطة العامَّة [ف] هي المحاكم والسجون وغيرها من المؤسسات العقابِيَّة»<sup>(1)</sup>.

وفي ظلِّ سيادة أقلِّية من الناس يسود الاستغلال والاستعباد، وتحوُّل الشرائح الاجتماعية العريضة إلى مجموعة من العبيد المنتجين، الذين يقدمون طاقاتهم الإنتاجية إلى فئة الأقلِّية، ومن هنا فإنَّ الدولة التي تكون على رأسها سلطة مستبدَّة طاغية، ستكون دائماً «تحت تصرف تلك الطبقة من المجتمع التي لها سند قانوني في ملكية أدوات الإنتاج. وما تصدره الدولة من قوانين، إنَّما تصدره لصالح هذه الطبقة، كما أنَّ حقَّ الملكية الذي تحافظ عليه ليس إلَّا حقَّ تلك الطبقة في ملكيتها ومن ثمَّ فإذا كان عدد الذين يملكون، في دولة من الدول، ضئيلاً فإنَّ القانون سوف يتحيَّز لصالح هذه القلَّة. وإذا كانت الجماعة بأكملها هي التي تملك، فسوف يتحيَّز القانون لصالح الجماعة كلَّها ضدَّ المصلحة الخاصَّة لبعض الأفراد»<sup>(2)</sup>. على أنَّ السلطة الاستبدادية، ومن خلال ممارستها وأدوارها التاريخية، لا تفكر مطلقاً في أن

(1) لجنة من العلماء والأكاديميين السوفياتيين، ص 249.

(2) لاسكي، هارولد: الدولة في النظرية والتطبيق، ترجمة كامل زهيري وأحمد غنيم، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الثانية، تشرين الثاني 1963م، ص 270.

يكون المجموع الإنساني الذي تحكمه مالكا، لأن امتلاك هذا المجموع سيدفعه إلى أن يتحرر اقتصادياً وبالتالي يدفعه إلى التمرد وكسر عصا الطاعة المفروضة عليه، وهذا لا تريده السلطة الاستبدادية، لأن التحرر الاقتصادي للمجموع الإنساني مقدّمة للتحرر السياسي والإنساني. وقدبما قال فقهاء السلطة الاستبدادية: «جوع كلبك يتبعك»<sup>(1)</sup>، فالدولة المستبدّة والمستغلّة تطمح دائماً إلى التعالي على أفراد شعبها، «وإلى الانفصال عن المجتمع، وإلى وضع نفسها فوقه. وهي تنجح في ذلك بقدر ما يكون تعبيرها عن مصالح الطبقة [المستغلّة] السائدة اقتصادياً»<sup>(2)</sup>.

إنّ الحكّام الطغاة، ومنذ أقدم العصور، اعتقدوا أنّ سعادتهم يمكن أن تتحقق بوسائل تستلزم فرض البؤس على الآخرين<sup>(3)</sup>. ومن أهمّ مقوّمات هذه السعادة عند هؤلاء الطغاة، جعل الآخرين عبيداً لهم، واستغلالهم، وإذلالهم، والسطو على ممتلكاتهم واغتصاب نساءهم، وحبك المؤامرة ضدّهم تمهيداً لقتلهم<sup>(4)</sup>.

ونظراً لفعل السلطة الاستبدادية التخريبيّ، وتشويهها لجل العلاقات الاجتماعية والإنسانية، فقد اشترط الفلاسفة والفقهاء - ودراً لجور الحكّام والخلفاء وفسادهم - مجموعة من الشروط التي يجب أن تتوافر في الحاكم أو الخليفة، حتى يستطيع أن يكون كفؤاً للمنصب السلطوي الخطير الذي يتقلّده. فالفلاسفة السياسيون رأوا ضرورة أن يكون الحاكم ذكياً وحكيماً وفاضلاً خلوقاً، وأنفقوا على أنّ المرء لا يمكن أن يمتلك فضيلة الذكاء الحقيقيّة دون أن يكون في الواقع حكيماً، ولا يمكن أن يكون حكيماً دون أن يكون فاضلاً خلوقاً، وعلى معرفة بالفنون التطبيقية، ولا يمكنه أن يكون حكيماً إلاّ إذا اتصف بكلّ صفات الحاكم الفاضل ونزعاته. ومن هنا فإنّ مثل هذا الشخص يجب أن يحكم إخوته

(1) عن/الجزء، د. خليل: المعجم العربي الحديث - لاروس، مكتبة لاروس، باريس، الطبعة الأولى 1973م، قسم الأمثال العربية، ص 1311.

(2) أوليدوف، أ. ك: الوعي الاجتماعي، ترجمة ميشيل كيلو، دار ابن خلدون، بيروت، الطبعة الثانية 1982 م، ص 162.

(3) راسل، برتراند: السلطة والفرد، ترجمة د. لطيفة عاشور، الهيئة المصرية العامّة للكتاب، القاهرة الطبعة الأولى 1994م، ص 106.

(4) لمزيد من الاطلاع يُنظر: الكتاب المقلّس - كتاب العهد القديم -، سفر صموئيل، الأصحاح الحادي عشر.

البشر من أجل مساعدتهم وذلك بالحث والإقناع إن أمكن، أو بالإكراه والإلزام إن لم يكن ذلك ممكناً. ومن مهمته أيضاً أن ينمي الفضائل الإنسانية لديهم في حدود إمكانياتهم<sup>(1)</sup>.

أمّا فقهاء المعتزلة فقد اعتبروا أنه يجب أن تتوافر في الإمام مجموعة من الشروط، باعتباره حاكماً أعلى في الدولة، وهذه الشروط هي:

1. العدالة على شروطها الجامعة.
  2. العلم المؤدّي إلى الاجتهاد في الأمور المتجددة والأحكام.
  3. سلامة الحواس، من السمع والبصر واللسان.
  4. سلامة الأعضاء من نقص يمنع عن استيفاء الحركة وسرعة النهوض.
  5. الرأي المفضي إلى سياسة الرعيّة وتدبير المصالح.
  6. الشجاعة والنجدة، وحماية الأمة، وجهاد العدو.
  7. النسب.. أي أن يكون من قريش. ومن المعتزلة من لا يشترط النسب القرشي، ومنهم من يشترطه لأسباب سياسية تضمن وحدة الأمة<sup>(2)</sup>.
- ويحدد ابن طباطبا<sup>(3)</sup> أهمّ خصال الحاكم الفاضل القادر على قيادة الأمة، ورعاية حقوق أفرادها. وهذه الخصال هي:

1. العقل: وهو أصل هذه الخصال وأفضلها، وبه تُسّاس الدول والملل.
2. العدل: وهو الذي تزداد به الأموال، وتعمر به الأعمال، وتُستصلح به الرجال.
3. العلم: وهو ثمرة العقل وبه يستبصر الملك، ويأمن الزلل في قضاياه وأحكامه، وبه يتزيّن الملك في عيون العامة والخاصّة، ويصير به معدوداً في خواصّ الملوك.
4. الخوف من الله: وهذه الخصلة هي أصل كلّ بركة، فالملك متى خاف من الله أمّنه عباد الله.

(1) باتروورث، شارلز: الدولة والسلطة في الفكر السياسي العربي، ترجمة د. محمد أحمد شومان، دار الساقى، بيروت/لندن، الطبعة الأولى 1990م، ص 13 - 14.

(2) عمارة، د. محمد: نظرية الخلافة، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة/تونس، طبعة 1994م، ص 53.

(3) الفخري في الآداب السلطانيّة والدول الإسلامية، ص 17، 18، 19، 20، 23، 24.

5. العفو عن الذنوب وحسن الصفح عن الهفوات: وهذه أكبر خصال الخير، وبها تُستمال القلوب، وتصلح النيات.
6. الكرم: وهو الأصل في استمالة القلوب وتحصيل النصائح من العالم، واستخدام الأشراف.
7. الهيبة: وبها يُحفظ نظام المملكة ويُحرس من أطماع الرعيّة.
8. السياسة والوفاء بالعهد: والسياسة هي رأس مال الملك، وعليها التعويل في حقن الدماء وحفظ الأموال ومنع الشرور وقمع الدُغّار والمفسدين. والوفاء بالعهد يساهم في طمأنينة النفوس، ووثوق الرعيّة بالملك إذا طلب الأمان منه خائف، أو أراد المعاهدة منه مُعاهد.
9. الاطلاع على غوامض أحوال المملكة، ودقائق أمور الرعيّة، ومجازاة المحسن على إحسانه والمسيء على إساءته.

تشير الأدبيات التاريخية والفقهيّة الإسلامية إلى أنّ المسلمين - باختلاف فرقهم الإسلامية - لم يتفقوا على شروط واحدة تتوافر في الشخص حتى تؤهله لأن يكون خليفةً أو حاكماً للمسلمين يرضى مصالحهم، ويدافع عن أوطانهم، وقيم العدل، إلاّ أنّهم اتفقوا جميعاً على أن يكون متصفاً بالعدل والورع والعلم<sup>(1)</sup> حتى لا يُصاب المسلمون منه بالأذى وحتى يكون قادراً على أن يعفّ عن أموالهم وممتلكاتهم، وأعراضهم، إلاّ أنّه من المستغرب حقاً أنّ بعض الفقهاء يجيزون أن يكون الإمام فاجراً، ويعللون ذلك، بأنّ من ينتصر بالسيف والقوة وجبت على المسلمين والرعيّة طاعته. ويُروى عن الإمام أحمد بن حنبل<sup>(2)</sup> أنّه

(1) لمزيد من الاطلاع على التباين في صفات الخليفة أو الحاكم عند الفرق الإسلامية يُنظر: عمارة، د. محمد: نظرية الخلافة، من ص 53 إلى ص 56.

(2) الإمام أحمد بن حنبل: (أحمد بن محمد بن حنبل، أبو عبد الله، الشيباني الوائليّ، 164 - 241هـ/780 - 855م): إمام المذهب الحنبلّيّ، وأحد الأئمّة الأربعة. أصله من مرو، وكان أبوه والي سرخس. وولد ببغداد. فنشأ منكبّاً على طلب العلم وسافر في سبيله أسفراً عديدة إلى الكوفة والبصرة ومكة والمدينة واليمن والشام والمغرب والجزائر وفارس وخراسان. سجنه الخليفة العباسي محمد المعتصم ثمانية وعشرين شهراً، ولما تولى المتوكل بن المعتصم الخلافة أكرم الإمام ابن حنبل وقدمه ومكث مدّة لا يولّي أحداً إلاّ بمشورته، وتوفي في عهد المتوكل.

قال<sup>(1)</sup>: «ومن غلب بالسيف حتى صار خليفة وسمي أمير المؤمنين لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيت ولا يراه إماماً عليه، برّاً كان أو فاجراً، فهو أمير المؤمنين». وبقدر ما يشير رأي الإمام أحمد بن حنبل إلى الابتعاد عن تعاليم الإسلام، ومفاهيم الرسول الكريم (ص) وصحابته الأوائل، فإنّ هذا الرأي على درجة عالية من احتقار عقول المسلمين، وطموحهم إلى إقامة العدل، والعمل بما جاء به كتاب الله وسنة نبيه، وهو دعوة إلى إلغاء طاقة العقل الإسلامي لأن يكون بناءً ومُسهماً في بناء الحضارة الإنسانية، ومجدداً في روح النصوص الفقهيّة. وفي هذا الصدد تشير الأحاديث النبويّة إلى أنّ النبيّ محمد (ص) كان يدعو إلى معارضة الحاكم الجائر، وعدم طاعته. ويُروى عنه أنّه قال: «أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر»، و«من مشى مع ظالم ليعينه وهو يعلم أنّه ظالم فقد خرج من الإسلام»<sup>(2)</sup>، و«إنّ الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمّه الله بعقابه»<sup>(3)</sup>.

وكان بعض أئمة المسلمين من يرى ضرورة الثورة على السلطان الظالم استناداً إلى الحديث النبويّ القائل: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»<sup>(4)</sup>. على أن بعضهم الآخر رأى أنّ السلطان الكافر العادل خير لرعيّته من السلطان المسلم الجائر، ويروي ابن طباطبا<sup>(5)</sup> الخبر الآتي «لما فتح السلطان هولاءكو بغداد في سنة ست وخمسين وستمائة أمر أن يُستفتى العلماء أيّما أفضل: السلطان الكافر العادل أم السلطان المسلم الجائر؟ ثم جمع العلماء بالمستصريّة لذلك، فلما وقفوا على الفتيا أحجموا عن الجواب، وكان رضيّ الدين علي بن طاووس حاضراً هذا المجلس، وكان مقدماً محترماً، فلما رأى إحجامهم تناول الفتيا ووضع خطّه فيها بتفضيل الكافر على المسلم الجائر، فوضع الناس خطوطهم بعده». وهنا لا يهتمّ هذه الدراسة أن تناقش رأي الإمام أحمد بن حنبل، ومدى صحته، لكن ما يهتمّها منه

(1) عن/عمارة، د. محمد: نظرية الخلافة، ص 54.

(2) عن/العلويّ، هادي: السياسة الإسلامية، ص 87.

(3) أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم: كتاب الخراج، دار المعرفة، بيروت/مؤسسة نشر منابع الثقافة الإسلامية، قم (إيران)، طبعة 1399هـ/1979م، ص 10.

(4) عن/الورديّ، د. علي: منطلق ابن خلدون، دار كوفان، لندن، الطبعة الثانية 1994م، ص 92.

(5) الفخري في الآداب السلطانيّة والدول الإسلامية، ص 17.





## في بعض ملامح سلطة الحكّام الرجال في ألف ليلة وليلة

لا نجد في حكايات ألف ليلة وليلة صورة واحدة لطبقة السلطة وحكّامها، بل تتعدد الصور، وذلك نظراً لتعدد رواة الحكايات، وتباين مواقفهم الإيديولوجية من هذه الطبقة، فهم تارةً يدينون هذه السلطة<sup>(1)</sup>، ويهزأون منها<sup>(2)</sup>، ويعدّونها شرّاً ووبالاً على المجتمع<sup>(3)</sup>، وتارةً يتعاطفون معها، ويقدمونها في صورة العفة والطهارة والكرم<sup>(4)</sup>. وهذا ليس غريباً على السياق العامّ الذي تندرج تحته الأحداث والوحدات السردية، والمواقف الإيديولوجية، والذي يعتمد مبدأ الثنائيات الضدية المتناقضة والمتجاورة في الحكاية الواحدة، والمتحكّمة في مسار سلوك الشخصية الواحدة، الذي يكون قابلاً وبشكل دائم لأن يكون متبدلاً من موقف إلى آخر، ومن حالة إنسانية إلى أخرى، ووفقاً للعوامل الإنسانية، والحالات المزاجية، التي تصيب هذه الشخصية، فليس هناك شرٌّ مطلق، ولا خير مطلق يتحكّمان في مسار هذه الشخصية أو تلك. وإذا كان بعض رواة الحكايات قد طعنوا بأخلاق الملوك والأمراء الفسقة<sup>(5)</sup>، ومن لفّ لفهم من رجال السلطة، فإنهم في آن أكّدوا على الجوهرى الإنساني، والأخلاقي الفاضل عند بعض هؤلاء الملوك والأمراء<sup>(6)</sup>. لكن

(1) مؤلف مجهول: ألف ليلة وليلة، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د. ت، 61/2، 72؛ 97/3.

(2) م. ن، 86/3، 115، 119.

(3) م. ن، 122/3؛ 91، 84/4.

(4) م. ن، 6/3، 43، 126، 134؛ 12/4.

(5) م. ن، 59/1، 275؛ 106/2، 109، 227.

(6) م. ن، 158/3؛ 141، 39/4.

هذا الإنساني النبيل لم يكن مساوياً في عدده لذلك السلطوي المستبد الأهووج، الذي لا يعرف إلاّ البطش والجبروت، واغتصاب الثروات والنساء.

### أ - بعض ملامح شخصية الخليفة هارون الرشيد

يبدو الخليفة هارون الرشيد السياسي السلطوي في ألف ليلة وليلة طائشاً نـزقاً، يضرب ويقتل متى يشأ، ويعفو عمن يشأ وفق مزاجية حادّة، وهو يُصدر أوامره الظالمة في لحظات طيشه وغضبه، التي تنفجر دائماً، وقلّما تهدأ. ففي حكاية «علي نور الدين وأنيس الجليس»، يصمّم الخليفة هارون الرشيد على أن يصلب حوالي بستانه الشيخ إبراهيم، وعلي نور الدين، وجاريتة أنيس الجليس، إن لم تحسن هذه الأخيرة الغناء والضرب على العود، وإن أحسنت عفا عنهم، وصلب بدلاً منهم وزيره جعفر البرمكي. يقول الرشيد<sup>(1)</sup> لوزيره جعفر: «والله إن غنّت الجارية ولم تحسن الغناء صلبتهم كلّهم وإن غنّت وأحسنت الغناء فأني أعفو عنهم وأصلبك أنت». والتساؤل الذي يمكن أن يطرحه متلقي الحكاية: ما ذنب سيّدها علي نور الدين وحوالي البستان الشيخ إبراهيم - خادم الرشيد المطيع - إن لم تحسن الجارية الغناء؟ وهل مصائر الناس وحرقاتهم يقرّرها، ويصدرها هوج الخلفاء ونزقهم؟. يبدو ذلك في مدن ألف ليلة وليلة المحكومة بمجموعة من الخلفاء والملوك والأمراء.

لقد كان الناس في بغداد والمدن العباسية الأخرى يرتعدون خوفاً إن ذكّر اسم الرشيد أمامهم، وقد أحاط بعض رواة الليالي شخصية الخليفة الرشيد بهالة قدسيّة وأسطوريّة، وبسلطة مطلقة تمتدّ إلى فضاءات الدولة العباسية كلّها، لتحكم كلّ الشخوص: البعيدين من الولاة والعَمّال والجباة في الولايات التابعة لحكمه، والمقرّبين من الجوّاري والحظايا والخدم والنُدّمان في قصره، بحيث ترتحل هذه السطوة مع الجوّاري الحظايا الخارجات من قصره ببغداد، ولجُرد أنّ يتنمّن إلى فضاء هذا القصر. ففي حكاية «غانم بن أيوب وقوت القلوب»، يعشق غانم بن أيوب إحدى حظايا الرشيد «قوت القلوب»، ويجتمع بها في داره بعيداً عن جواسيس القصر، وهناك يغيبان معاً في نشوة العشق والخمرة، وترتفع الحجب بينهما، وعند ذلك تبدي قوت القلوب

(1) ألف ليلة وليلة، 206/1.

رغبة جنسية بغانم بن أيوب، فيندفع هائجاً للتواصل معها، لكنّها تمتنع عنه على الرغم من محبتها الشديدة له، ورغبتها العارمة في التواصل الجنسيّ به، لأنّها تعي مدى بطش سيدها الرشيد وسطوته، وتعي أنّها إذا انقادت وراء لذاتها الجنسية، فإنّ الموت الأكيد يترقبها في قصر الخلافة. يقول الراوي<sup>(1)</sup>:

«وتمكّن حبّ كلّ واحد منهما من قلب الآخر ولم يبق لهما صبر عن بعضهما (...) فملس عليها بيده ونزل إلى سراويلها وتكّتها وجذبها، فانتبعت وقعدت وقعدت وغانم بجانبها، فقالت له: ما الذي تريد؟ قال أريد أن أنام معك وأتصافى أنا وأنت، فعند ذلك قالت له: أنا الآن أوضّح لك أمري حتى تعرف قدرتي وينكشف لك سرّي ويظهر لك عذري، قال نعم. فعند ذلك شقّت ذيل قميصها ومدّت يدها إلى تكّة لباسها، وقالت: اقرأ الذي على هذا الطرف، فأخذ طرف التكة في يده ونظر فوجده مرقوماً عليه بالذهب: أنا لك وأنت لي يا ابن عمّ النبيّ. فلما قرأه رفع يده».

وعندما عرف غانم بن أيوب أنّها حظيّة الخليفة انطفأت شهوته، وهبطت عليه سطوة الخليفة الرشيد وبطشه، وارتعد متأخراً «إلى ورائه من هيبة الخليفة، وجلس وحده في ناحية من المكان يعاتب نفسه ويتفكّر في أمره وصار متحيراً في عشق التي ليس له إليها وصول. فبكى من شدّة الغرام ولوعة الوجد والهيام»<sup>(2)</sup>. وعند ذلك رقّت الحظيّة قوت القلوب لحاله، واشتدّت ولعاً به، واعترفت له بأنّها لا تطيق صبراً على هذا العشق، ودعتّه إليها قائلة<sup>(3)</sup>: «إني لا أقدر على فراقك وها أنا قد بينت لك حالي من شدّة ولعي بك، فقم الآن ودع ما كان واقض أربك مني». عندها اعتذر منها منكسراً، وقد أحسّ بدونيّة منزلته أمامها، وأمام سيدها الخليفة الرشيد، وقال<sup>(4)</sup>: «أعوذ بالله إنّ هذا شيء لا يكون كيف يجلس الكلب في

(1) م. ن، 229/1.

(2) ألف ليلة وليلة، 230/1.

(3) م. ن، 231/1.

(4) م. ن، 231/1.

موضع السبع والذي لمولاي يُحرّم عليّ أن أقربه، ثم جذب نفسه منها وجلس في ناحية وزادت هي محبةً بامتناعه عنها، ثم جلست إلى جانبه ونادمته ولاعبته فسكرا (...). ثم قام غانم وفرش فراشين كل فراش في مكان وحده، فقالت له قوت القلوب: لمن هذا الفراش الثاني؟ فقال لها هذا لي والآخر لك ومن الليلة لا ننام إلاّ على هذا النمط وكلّ شيءٍ للسيّد حرام على العبد».

ويبدو من الطبيعي أن يتأكد غانم بن أيوب أنّ ما خصّص للسيّد هو حرام على العبد، في مجتمع عباسي بلغ التباين الطبقي فيه أوجهه، وقسمّ الناس فيه إلى سادة وعبيد، أو بتعبير شهريزاد: إلى سباع تفترس كلّ شيء: المال والقطاعات الزراعية والنساء وأموال الخراج، وإلى كلاب مذعورة لا يحقّ لها أن تقترب من مكامن السباع المفتروسة. فقد اعتاد حكام الدولة العباسية أن يحتجوا عن الطبقات الأخرى من رعاياهم، ويصبغوا حكمهم بصبغة شرعية، وبسلسلة من نسب ملكي متّصل، وأن يحيطوا أنفسهم بالمراسم التي ترمي إلى وقاية شخصهم من التدنّس بمخالطة العامّة، وأن يبعثوا الرهبة في قلوب العبيد الذين نصبوا عليهم بإرادة ربّ العالمين<sup>(1)</sup>.

ويبدو من الطبيعي أيضاً، أن يخاف غانم بن أيوب من سطوة هارون الرشيد، هذا إذا عرفنا أنّ هذا الخليفة كان في الواقع التاريخي باطشاً مستبدّاً. تروي المصادر التاريخية أنّ رجلاً صالحاً قام «إلى هارون الرشيد، وهو يخطب بمكّة، فقال: كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون. فأمر به فضرب مائة سوط، فكان يئنّ الليل كلّه، ويقول: الموت! الموت!»<sup>(2)</sup>. وكيف لا يرتعد غانم بن أيوب من بطش الخليفة الرشيد، ما دام الوعي الجمعي في بغداد العباسية يرى أنّ هارون الرشيد هو أمير المؤمنين وخليفة ربّ العالمين، كما يؤكّد بعض رواة الحكايات؟. فهذا هو الصعلوك الأوّل الذي كان أميراً وابن ملك قبل أن يتصعلك في حكاية «الحمال والبنات»، يعلّل سبب قدومه إلى بغداد، مؤكّداً أنّه قصد أمير المؤمنين. يقول<sup>(3)</sup>: «وخرجت من المدينة، وقصدت هذه المدينة [أي بغداد]، لعلّ أحداً يوصلني إلى أمير المؤمنين

(1) جرونيباوم، جوستاف إ. فون: حضارة الإسلام، ص 200.

(2) ابن عبد ربه الأندلسي: العقد الفريد، 84/1.

(3) ألف ليلة وليلة، 60/1.

وخليفة ربّ العالمين حتى أحكي له قصّتي وما جرى لي».

لقد كان الخليفة هارون الرشيد في حكايات ألف ليلة وليلة ممتلئاً بالعظمة والآبهة والسطوة، ومن شدّة إيمانه بمكانته العظمية، فقد كان يعتقد أنّه المالك، الأمر الناهي، وأنّ الناس خاضعون له، ولأهّ كانوا أم جنوداً أم وزراء، أم بشراً عاديين، وأنّ أرزاقهم وحياتهم مرهونة بمكانته السلطوية، فهو القادر على بسط نعمته عليهم وعلى سحبها عنهم متى يشاء. وها هو يسحبها عن واليه على البصرة السلطان محمد بن سليمان الزيني المشمول بنعمته والنائب عنه في بعض مملكته<sup>(1)</sup>، ويصدر أمراً ملكياً بعزله وتعيين بديل عنه، وذلك في حكاية «علي نور الدين وأنيس الجليس». ومن خلال وضع الرشيد طبقياً وسياسياً، وكونه في أعلى سلّم السلطة المستمدّة عظمتها من الله ومن القوّة، باعتباره خليفة الله وأمير المؤمنين، ونائباً عن الله في الأرض، فإنّ الراوي الشعبي من الطبقة الدويّة يستحيل عليه أن يضع الوالي السلطان محمد بن سليمان الزيني، في موقف الرفض، أو المتمرد، أو حتى المحتجّ، أو المتسائل: لماذا هذا الخلع، ولماذا أُحرم من هذه النعمة المقدّسة؟. وفي مثل حالة أوامر الخلع، أو غيرها من الأوامر، فإنّ على الوالي محمد بن سليمان الزيني، أو غيره من الولاة والوزراء، أن يسارعوا فوراً إلى خلع أنفسهم، وإعلان الطاعة المطلقة لأمير المؤمنين، وتقبيل الأمر الملكي ثلاث مرّات تعظيماً لخليفة الله في أرضه<sup>(2)</sup>.

لقد كان الخليفة هارون الرشيد، بنفوذه المالي وسطوته السياسية، واعتباره نفسه ابن عمّ رسول الله (ص)، يتعالى ويتفاخر على كلّ أفراد شعبه وولائه ووزرائه، وكان يحتقرهم مستهيناً بهم، وبقدراهم. فقد كان يحتقر وزيره جعفر البرمكي، وفي أصغر المواقف وأبسطها، ودونما سبب في أحيان أخرى، وكان ذا سلطة طاغية على جميع من حوله. وقد استمدّت هذه السلطة من التركيبة السياسية، والطبيعة الاستبدادية، التي عرفتها الدولة العباسية، فـ «الحكم العباسي الممثل بالرشيد حكم مطلق بتفويض من الله، وعلى العباد الانقياد له انقياداً تاماً لأنّه قائم بسنّة نبيّه وفرضه، وهو السيّد المطلق، وأنّ الولاة نوّابه باقون في مناصبهم ما شاء

(1) م. ن، 212/1.

(2) ألف ليلة وليلة، 212/1.

فإن استبدلهم أجابوا طائعين. والسلطة التي يتمتع بها لا يمكن مناقشتها لأنه خليفة الله على الأرض»<sup>(1)</sup>.

ومن مظاهر احتقار الرشيد لوزيره جعفر البرمكي: تهديده بصلبه، وتوبيخه، ومناداته بكلب الوزراء. ففي حكاية «هارون الرشيد مع الصياد»، يرمي أحد الصيادين الشبكة لتصطاد على بخت الرشيد المنتكّر، فتجذب الشبكة صندوقاً مقفلاً، وما إن يفتحوه حتى يجدوا فيه صبيّة مقتولة ومقطوعة، عندها «التفت إلى جعفر وقال: يا كلب الوزراء أقتل القتلى في زميني ويرمون في البحر (...). وحقّ اتصال نسبي بالخلفاء من بني العباس إن لم تأت بالذي قتل هذه لأصلبّك على باب قصري أنت وأربعين من بني عمك»<sup>(2)</sup>.

وإذا كان الحكيم القصصي هنا مغايراً لواقع الرشيد في مدّة حكمه، فإنه يمكن أن نلمس أن ثمة إيديولوجيا مبطنّة ضدّ الرشيد وظلمه، يريد الراوي الشعبي أن ينقلها من خلال وعي الجماعات المستلبة في بغداد إلى نسق الحكاية. ومن خلال هذه الإيديولوجيا يتساءل الراوي على لسان جعفر: ما ذنب جعفر البرمكي، وبغداد مليئة بالقتلة واللصوص، وهل يعلم جعفر بالغيب من هو قاتل الصبيّة؟ وآية سلطة استبدادية عليا هذه التي تحكم بغداد، وتطيح برأس الوزير الرجل المهمّ في الدولة، إن هو عجز عن كشف قاتل الصبيّة بعد المدّة التي منحها الرشيد له؟. يشكّل الراوي الوحدة السردية الآتية، التي يمكن أن يستشفّ منها الاستبداد المطلق الذي يتحكّم في بنية العلاقات السياسية في بغداد العباسية. يقول<sup>(3)</sup>: «وفي اليوم الرابع أرسل إليه الخليفة يطلبه، فلما مثل بين يديه قال: أين قاتل الصبيّة؟ قال

(1) الشحاذ، أحمد محمد: الملامح السياسية في حكايات ألف ليلة وليلة، منشورات وزارة الإعلام، بغداد، الطبعة الأولى 1977م، ص 85.

(2) ألف ليلة وليلة، 1/89 - 90.

- ومن الاقتباس يمكن أن يفهم أيضاً مدى حساسية الرشيد من البرامكة، هذه الحساسيّة السياسية التي أودت بحياة زعمائهم في ما بعد على يديه. فما هو ذنب الأربعين من البرامكة الذين سيصلبهم الرشيد، طالما أنّ الجريمة؛ ربّما سيكون سببها إهمال واحد منهم، وهو الوزير جعفر البرمكي، لشؤون الأمن في بغداد؟

(3) ألف ليلة وليلة، 1/90.

جعفر: يا أمير المؤمنين هل أنا أعلم بالغيب حتى أعرف قاتلها؟ [عندها] اغتاز الخليفة وأمر بصلبه على باب قصره وأمر منادياً ينادي في شوارع بغداد من أراد الفرجة على صلب جعفر البرمكي وزير الخليفة وصلب أولاد عمه فليات إلى قصره، ثم أمر بصب الخشب فنصبوه. وأوقفوهم تحته وصاروا ينتظرون الإذن من الخليفة، وصار الخلق يتباكون على جعفر وأولاد عمه». ولا ينجو جعفر البرمكي إلا بعد أن يتقدم شاب شك بخيانة زوجته له، ويعترف أمام الملاء أنه هو الذي قتل زوجته لأنه شك بخيانتها الجنسية له.

وتظهر الإيديولوجيا المعادية للرشد، والمتضامنة مع جعفر البرمكي، من خلال كلام الشاب الذي يمكن أن نعدّه ممثلاً سياسياً للبرامكة، وإيديولوجيتهم في الحياة والحكم، ومزايهم الجمالية، التي وجدت كثيراً من المعجبين والمؤيدين. يقول الراوي<sup>(1)</sup>: «فبينما هم كذلك وإذا بشاب حسن نقي الأثواب يمشي بين الناس مسرعاً إلى أن وقف بين يدي الوزير وقال: سلامتك من هذه الوقعة يا سيد الأمراء وكهف الفقراء، أنا الذي قتلت الصبيبة». وإذا كان الراوي قد وصف جعفر البرمكي بكهف الفقراء فإنه يستمد هذه الرؤية من مرجعية تاريخية تؤكد أن جعفر البرمكي (ت 187هـ - 803م)، كان مثلاً للكرم، وكان ذا يد بيضاء على فقراء عصره، والطارقين بابه، والطالبيين حمايته، وكان «فصيحاً لبيباً ذكياً فطناً كريماً حليماً»<sup>(2)</sup>، ولبقاً في تعامله مع خصومه السياسيين، ومتسامحاً مع من يزور كتاباً عن لسانه لأجل الانتفاع به وإنجاز مصالحه الخاصة<sup>(3)</sup>. وتؤكد هذه المرجعية

(1) م. ن، 90/1.

(2) ابن طباطبا: الفخري في، الآداب السلطانية والدول الإسلامية، ص 205.

(3) فقد بلغه أن محتالاً قد زور كتاباً عن لسانه، وأخذه إلى صاحب مصر لينتفع به، وعندما عاد المحتال إلى بغداد اقترح أعوان الوزير جعفر عليه أن يقطع يمين المزور التي زور بها، لكنه أبدى حليماً وكرماً مع الرجل المزور. يقول ابن طباطبا واصفاً حال المزور: "فحضر [أي المزور] إلى مجلس جعفر بن يحيى. فلما دخل سلم عليه ووقع يقبل الأرض ويكي، فقال له جعفر: من أنت يا أخي؟ قال: يا مولانا أنا عبدك وصنيعتك المزور الكذاب المتجرى! فعرفه جعفر وبش به وأجلسه بين يديه وسأله عن حاله، وقال له: كم وصل إليك منه [أي من صاحب مصر] فقال: مائة ألف دينار. فاستقلها جعفر وقال: لازمنا حتى نضاعفها لك. فلأزمه مئة فكسب معه مثلها".

التاريخية أن منزلة جعفر البرمكي كانت عظيمة عند الخليفة هارون الرشيد قبل نكبة البرامكة. يقول أحمد بن خلكان<sup>(1)</sup> (ت 681هـ/1282م) في كتابه (وفيات العيان وأنباء أبناء الزمان) عن جعفر البرمكي: «كان من علو القدر ونفاذ الأمر وبعد الهمة وعظم المحل وجلالة المنزلة عند هارون الرشيد بحالة انفراد بها ولم يشارك فيها».

وبالعودة إلى حكايات ألف ليلة وليلة يُلاحظ أن مظاهر احتقار الرشيد لوزيره جعفر البرمكي وعدم الثقة به، تتكرر غير مرة. فالليالي تصوّر جعفرًا البرمكي من أخلص المقربين إليه، وأنه خادم وفيّ مشهور بالطاعة والولاء له، ومع ذلك كان الرشيد يشكّ به، وربما يعود شكّه به إلى أن هذه القوة من الحرس التي كان يحصّن نفسه بها لم تدفع عنه هواجس الخوف من أن يهجم على قصوره الخاقدون على نظامه السياسي، وينتزعون منه الخلافة. وبشكل عامّ يظلّ المستبدّون من خلفاء ووزراء وقضاة، خائفين ومحتاجين لعصاة تعينهم وتحميهم<sup>(2)</sup>. ومن مظاهر شكّ الخليفة الرشيد بوزيره جعفر البرمكي: أن الخليفة الرشيد في حكاية «علي نور الدين وأئيس الجليس»، رأى في بغداد ظاهرة غير مألوفة، عندما نظر إلى قصره المسمّى بقصر «الفرجة»، إذ كان القصر متألئناً بالأضواء الكثيرة، وقد فتحت شبابيكه، عندها اعتقد الرشيد جازماً بأن انقلاباً قد حصل ضده، وأزاحه عن سلّم السلطة في بغداد، وسلب منه قصره، فنادى ساحطاً على وزيره جعفر. يقول الراوي<sup>(3)</sup>:

«فنظر [الرشيد] إلى تلك الجهة فرأى ضوء القناديل والشموع في البحر ساطعة، فلاحت من الخليفة التفاتة إلى القصر الذي في البستان فرآه يتوهج من تلك الشموع والقناديل فقال عليّ بجعفر البرمكي. فما مضت لحظة إلاّ وقد حضر جعفر بين يديّ أمير المؤمنين، فقال له يا كلب الوزراء أتخدمني ولا تعلمني بما يحصل في مدينة بغداد؟ فقال

(1) عن/جرونيباوم، جوستاف إ. فون: حضارة الإسلام، ص 354.

(2) الكواكي، عبد الرحمن: طبائع الاستبداد، ص 65.

(3) ألف ليلة وليلة، 204/1.

له جعفر وما سبب هذا؟ فقال لولا أنّ مدينة بغداد أخذت مني ما كان قصر الفرجة مبتهجاً بضوء القناديل والشموع وما انفتحت شبابيكه، ويلك من الذي يكون له قدرة على هذه الفعال إلا إذا كانت الخلافة قد أخذت مني؟».

إنّ قلق الرشيد في المقطع السابق يمكن أن يوحي بأنّ بغداد في عصره لم تكن آمنة، وأنّه على الرغم من نفوذه وراثته المالي، وترسانة الأعوان والحرس من حوله، لم يكن آمناً على المستوى النفسي والسياسي. وإذا كان بعض الرواة يصفونه بالمغامر الجريء، المتكبر، الذي يخرج من قصره ويجوس الشوارع والأزقة، معرضاً نفسه للمهالك بحجة تفقده لأخبار بغداد وسكّانها<sup>(1)</sup>، والنظر في مصالح عبادها<sup>(2)</sup>، فإنّ هذا الخروج والتنكّر لا يعنّيان بأيّ حال من الأحوال أنّه كان مطمئناً، أو قادراً على مواجهة الجرائم والصوص، والانتهاكات التي تحصل في بغداد، والدليل على ذلك أنّه لم يخرج مرّة واحدة بمفرده، بل كان يصطحب معه رموز السلطة القامعة والمسليّة المبدّدة للقلق في آن، من الوزير جعفر البرمكي إلى مسرور سيّاف النقمة إلى أبي نوّاس الجريء والقادر على تبديد رهبة المنازل التي كانوا يدخلونها. ونجده في بعض المواقف الحرجة والصعبة الغامضة، يتخلّى عن حكمة السياسي، وصبر الناظر في مصالح العباد، اللذين يمنحانه المقدرة على تجاوز هذه المواقف، إذ يشتدّ غضبه ويطلب من وزيره جعفر أن يكشف القناع عن الموقف الغامض، وإلاّ سوف يغمد أنفاسه. ففي حكاية «محمد بن علي الجوهري ودنيا البرمكية» يرى الرشيد آثار ضرب على جسد الجوهري، فيصمم على معرفة السبب، لكنّ جعفرأ البرمكي يرى أنّ الصبر ضروري، حتى لا يكشفوا أفعالهم، أمام الحاضرين في قصر الجوهري، ويتعرّضوا للأذى. يقول الراوي<sup>(3)</sup>: «فقال الخليفة الرشيد: يا جعفر أسأله عن الضرب الذي على جنبه حتى ننظر ما يقول في جوابه. فقال: لا تعجل يا مولانا وترفق بنفسك فإنّ الصبر أجمل. فقال: وحيّة رأس وتربة العباس إن لم تسأله لأخمدنّ منك الأنفاس».

(1) م. ن، 50/1.

(2) م. ن، 425/2.

(3) ألف ليلة وليلة، 433/2.

وكان جعفر البرمكي، في بعض الأحيان، يكشف القناع وبنفسه، وبسطة السلطة وجبروتها، أمام الشخصية المزارة في منزلها، خوفاً من أن تتناول هذه الشخصية على الضيف الزائر المنتكر الخليفة الرشيد، هذا من جهة، ولكي لا يعرض نفسه للاحتقار وتوبيخ سيده الرشيد من جهة ثانية، ثم يعلن لصاحب المنزل أن يلزم حدوده لأنه في حضرة رأس السلطة السياسية والدينية في بغداد: «ثم إن الخليفة قام يزيل ضرورة فمال الوزير جعفر على علاء الدين وقال له: الزم الأدب فإنك في حضرة أمير المؤمنين»<sup>(1)</sup>.

وإذا كان الخليفة هارون الرشيد في حكاية «علي نور الدين وأبيس الجليس» قلقاً وخائفاً من أن يهجم المعارضون السياسيون ويأخذوا قصره ويزيحوه عن دفة الحكم في بغداد، فإن هذا الخوف الذي أشار إليه الراوي في الحكاية مستمد من مرجعية تاريخية تشير إلى مثل هذا الخوف، فقد كان الخليفة الرشيد يغادر بغداد دائماً، ولا يحب أن يقيم بها إلا نادراً، وكان يخاف العيش فيها «حذراً من البرامكة وأنصارهم المسيطرين على القصر والسلطة فيها»<sup>(2)</sup>. ولا نستغرب أن يكون خوفه هذا، من الأسباب الرئيسة التي دفعته في ما بعد إلى قتل كثير من أصدقائه وأعدائه من البرامكة، وبخاصة وزيره جعفر البرمكي الذي تؤكد سيرة حياته أنه كان مخلصاً ووفياً له، وأن الرشيد كان يأنس به لسهولة أخلاقه<sup>(3)</sup>، إلى أن أتى الفضل بن الربيع<sup>(4)</sup> (ت 202هـ/818م)، العدو اللدود للبرامكة، وأخذ في دسّ الدسائس وحبك الحيل عليهم عند الرشيد، وحرّضه ضدّهم، وأغضبه عليهم، فقد «كان

(1) م. ن، 370/2.

(2) مؤنس، د. حسين: الحضارة - دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، "سلسلة عالم المعرفة"، العدد 237، الطبعة الثانية، جمادى الأولى 1419هـ/أيلول (سبتمبر)، 1998م، ص 263.

(3) ابن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، ص 205.

(4) الفضل بن الربيع: (الفضل بن الربيع بن يونس، أبو العباس، 138 - 208هـ/755 - 824م): وزير حازم. كان أبوه وزيراً للمنصور العباسي. واستحبه المنصور لما ولى أباه الوزارة، فلما آل الأمر إلى الرشيد واستوزر البرامكة كان الفضل من كبار خصومهم، حتى ضربهم الرشيد تلك الضربة، وقيل: وكانت نكبتهم على يديه. وولي الوزارة إلى ان مات الرشيد.

- الزركلي، خير الدين: الأعلام، 148/5.

الفضل شديد الكبر شديد الغيرة من البرامكة، لا يبلغ مبلغهم في علم ولا نبل ولا فضل. فحسداهم وتمنى زوال نعمتهم، فكان يدسّ إلى الرشيد أن البرامكة يعملون للوصول إلى الخلافة. ويوماً يدسّ إليه أن البرامكة ملاحدة وثنيون، يحثون إلى دين أبيهم القديم بدليل أن قصورهم فيها مخائب تحت الأرض تحوي الشعائر القديمة الزارديشتية<sup>(1)</sup> فهم يتعدون عنها خفية عن الناس<sup>(2)</sup>.

ليست صورة الرشيد في حكايات ألف ليلة وليلة الصورة المستبدّة دائماً، سريعة الغضب، الباطشة، سفاكة للدماء، بل هي ذات ملامح متعدّدة، إذ يظهر الرشيد في أحد هذه الملامح عطوفاً كريماً، مسارعاً إلى نجدة المحتاج، شغوفاً بالسمر، مندجماً بالموسيقى. ففي حكاية «علاء الدين أبي الشامات»، يتعرّض التاجر الثريّ علاء الدين أبو الشامات القادم من مصر إلى بغداد، إلى هجوم العربان قطّاع الطرق، إذ يستولون على كلّ ما حمّله من مصر، من مواد تجارية وما إن يصل بغداد حتى يتشرّد ويجوع، إلى أن تقذفه مصادفات ألف ليلة وليلة السحرية إلى منزل إحدى النساء الجميلات المغنيات، زبيدة العودية، فيتزوّجها. وذات ليلة، وبينما كانا يقيمان طقساً احتفائياً بالغناء والشراب، يمرّ هارون الرشيد متنكراً بزبيّ الدراويش، وبصحبه الوزير جعفر البرمكي، ومسروور سيّاف النجمة، والحسن ابن هانئ (أبو نواس ت 198هـ/814م)، أمام منزلهما، ويسمعون صوت العود، ثم يطرقون الباب طالبين السماح لهم بالمشاركة في هذا الطقس الاحتفائيّ لأنهم دراويش غرباء الديار، وقد تاقت أرواحهم للسمع ورقائق الأشعار، فهم ظرفاء يعشقون السماع ويحفظون القصائد والأشعار والموشحات، كما يقدمون أنفسهم

(1) الزرادشتية: ديانة فارسية قديمة تُنسب إلى مؤسسها الحكيم زارديشت (660 - 583م)، الذي هجر حياته الزوجية وواصل رحلاته على طول إيران وأذربيجان وأفغانستان، يحارب الأشباح، ويخمد النار، ويفتي في الكون وأجرامه وأحجاره الكريمة، ويشفي الناس وجروحهم بأعشاب السحرية. وتقول التعاليم الزارديشتية بقدم الأصليين، الخير والشر، أو النور والظلام، فنسبوا للخير "أهورامزدا" أو هرمس، كل ما هو خير، واعتبروه إله السماء، على عكس غريمه "أهرمن" الذي وحّدوه بالظلام، فهو الشيطان أصل الشرور والآثام. وقد قسم تلاميذ زارديشت ومريدوه مظاهر الطبيعة إلى أشياء تحتوي على قوى خيرة، مثل ضوء النهار، وبعض فصول السنة المعتدلة مثل الربيع والخصب والخنين والخلود، وأخرى تتصل بالظلام والجفاف والقحط والنكبات، ونسبوا إلى الشر الذي هو الشيطان أهرمن.

(2) أمين، د. أحمد: هارون الرشيد، ص 122.

لعلاء الدين وزوجته زبيدة<sup>(1)</sup>. فيأذن لهم علاء الدين بالدخول، ويحكي لهم قصة تشرده وفقره، وقدمه إلى بغداد، وأنه مطالب بأن يدفع مهر زوجته زبيدة لوالدها أمام القاضي، وأنه لا يملك منه شيئاً، وعندما يسمع الخليفة الحكاية، يسرع في نجدة علاء الدين، ويرسل له تجارة، ويكتب كتاباً عن لسان والده شمس الدين شاه بندر التجار بمصر، يعلمه فيه أنه علم بمصيبته، وهاهي البضاعة التي ستحفظ ماء وجهه. يقول الراوي<sup>(2)</sup>:

«إنَّ الخليفة أرسل إلى رجل عظيم من التجار وقال له: أحضر لي خمسين حملاً من القماش الذي يجيء من مصر، يكون كل حمل ثمنه ألف دينار، واكتب على كل حمل ثمنه، واحضر لي عبداً حبشياً. فأحضر له التاجر جميع ما أمره به، ثم إنَّ الخليفة أعطى العبد طشتاً وإبريقاً من الذهب وهديّة والخمسين حملاً، وكتب كتاباً على لسان شمس الدين شاه بندر التجار بمصر والد علاء الدين وقال له: خذ هذه الأحمال وما معها ورح بها الحارة الفلانية التي فيها بيت شاه بندر التجار وقل: أين سيدي علاء الدين أبو الشامات؟ فإنَّ الناس يدلونك على الحارة وعلى البيت. فأخذ العبد الأحمال وما معها وتوجّه كما أمره الخليفة».

ولا تبدو صورة الخليفة الرشيد، وهو يفرّق الأموال على علاء الدين أبي الشامات، بعيدة في الوهم والتخيل، فالخليفة الرشيد وكما تصوّره المصادر التاريخية كان من كرماء الخلفاء، إذ «لم يرَ خليفة أسمح منه بالمال»<sup>(3)</sup>. وكان جواداً، ويتصدّق من خالص ماله بألف درهم في الليلة الواحدة<sup>(4)</sup>. ويبدو الرشيد في هذه

(1) ألف ليلة وليلة، 365/2 - 366.

(2) م. ن، 365/2 - 366.

(3) ابن طباطبا: الفخري في الآداب، السلطانية والدول الإسلامية، ص 13.

(4) الدميري، كمال الدين محمد بن موسى: حياة الحيوان الكبرى، 1/95.

- وللسنا هنا بصدد دراسة من أين يأتيه المال الكثير حتى يستطيع أن يتصدّق بألف درهم كل ليلة، في حين أنّ ولايات الدولة العباسية كانت قد امتلأت بالجياح والفقراء والمتسولين. ويُروى أن رجلاً سئل: كم عدد المُكدين بالبصرة؟ فقال: مثل عدد البغائين ببغداد. [الآبي، أبو سعيد منصور بن الحسين: نثر الدر، 154/2]. ولم يكن فقراء البصرة أكثر من فقراء بغداد - عبر تاريخها - نظراً لكثرة سكانها، وعدد الداخلين إليها، مقارنة بالبصرة، المدينة الأقل مركزية وسكاناً من بغداد.

الحكاية: «حكاية علاء الدين أبي الشامات» رفيف الحسّ والمشاعر وعاشقاً للموسيقى بامتياز. فهو يرجو زبيدة العوديّة أن تعزف له نوبة على العود، مؤكداً أنّ الموسيقى غذاء للروح، طالباً من زوجها أن يسمح لها بالغناء. يقول لعلاء الدّين أبي الشامات: «ولكن مرها أن تعمل لنا نوبة لأجل أن نحظى بسماعها ويحصل لنا انتعاش، فإنّ السماع لقوم كالغذاء، ولقوم كالدواء، ولقوم كالمروحة»<sup>(1)</sup>.

ولا تبدو صورة الرشيد في ألف ليلة وليلة، العاشق للغناء والموسيقى، بعيدة في التخيّل، بل تثبت المصادر التاريخية أن الرشيد كان ولعاً بالغناء والمغنيّات، وقد أسرف في هذا الولوج فعلى سبيل المثال كان شغوفاً بغناء الجارية الموهوبة دنانير، وكان يتردّد كثيراً إلى دار مولاهما لسماعها، لأنها «كانت من أحسن الناس وجهاً وأظرفهنّ وأكملهنّ أدباً وأكثرهنّ رواية للغناء والشعر، وكان الرشيد لشغفه بها يُكثر مصيره إلى مولاهما ويقيم عندها، ويبرها ويفرط، حتى شكته زبيدة إلى أهله وعمومته، فعاتبوه على ذلك»<sup>(2)</sup>.

ويبدو الخليفة الرشيد في حكاية أخرى تاجراً ثرياً مكلّلاً «بهيئة التجار وعليهم الوقار»<sup>(3)</sup>. وفي حكاية أخرى، يبدو متهتكاً مسحوراً بالتلصّص على جسد زوجته السيدة زبيدة، الجميل العاري، المستحمّ في بحيرة جميلة بناها لها في مكان جميل، وقد سورّها بالسياج والأشجار. يقول الراوي<sup>(4)</sup>: «إن السيدة زبيدة لما دخلت ذلك المكان يوماً، وأتت إلى البحيرة وتفرّجت على حسنّها فأعجبها رونقها والتفاف الأشجار عليها وكان ذلك في يوم شديد الحرّ، فقلعت أثوابها ونزلت في البحيرة ووقعت. وكانت البحيرة لا تستر من يقف فيها فجعلت تملأ الماء على بدنها. فعلم الخليفة بذلك فنزل من قصره يتجسّس عليها من خلف أوراق الأشجار، فرآها عريانة وقد بان منها ما كان مستوراً».

(1) ألف ليلة وليلة، 2/366.

(2) الأصفهاني: الأغاني، تحقيق عبد الكريم إبراهيم الغرابوي، 18/65.

(3) ألف ليلة وليلة، 1/50.

(4) م. ن، 3/156.

وفي أحيان أخرى يبدو الرشيد منبسطاً مازحاً، ومتحرراً من قيود سطوة الأبهة، وكرسي الخلافة، إذ يدعو نديمه أبا نواس، ويطلب منه أن يكمل له أبياتاً، كان قد قالها في وصف جسد زوجته زبيدة، عندما رآها عريانة في البحيرة. يقول الراوي<sup>(1)</sup>: «فلما أحسّت [أي السيدة زبيدة] بأمر المؤمنين خلف أوراق الأشجار وعرفت أنه رآها عريانة التفتت إليه ونظرته، فاستحت منه، ووضعت يدها على فرجها فتعجّب من ذلك وأنشد هذا البيت:

نظرت عيني لحيني      وزكا وجدي لبيني

ولم يدر بعد ذلك ما يقول، فأرسل خلف أبي نواس يحضره فلما حضر بين يديه قال له الخليفة: أنشدني شعراً في أوله: (...)، [البيت السابق]. فقال أبو نواس: سمعاً وطاعة. وارتجل في أقرب اللحظات منشداً هذه الأبيات:

نظرت عيني لحيني      وزكا وجدي لبيني  
من غزال قد سباني      تحت ظلّ الدرّتين  
سكب الماء عليه      بأباريق اللّجّين  
ليتني كنت عليه      ساعة أو ساعتين»

ويبدو الرشيد في مواقف أخرى عاشقاً للنساء، مقدراً لمواهبهنّ الجمالية، فهو يحترم ويقدر أية حظيّة من حظايا قصره، أو أيّة امرأة جميلة يشاهدها، أكثر من احترامه لأيّة شخصية سياسية في دولته، ومهما علا مركزها الوظيفي. فهو يقرب حظاياها ويغدق عليهنّ الأموال، ويسكنهنّ المقاصير الجميلة، ويخصّص لهنّ الجوارى الخادמות، ويغدق عليهنّ الذهب<sup>(2)</sup>. وييدي لهفة شديدة عليهنّ إذا حزنّ، أو انتابهنّ أدنى مكروه، ويستدعي أمهر الأطباء لمعالجتهنّ من مرض العشق والغرام<sup>(3)</sup>. ويستدعي الفقهاء والمقرئين ليرتلوا القرآن الكريم على قبور إحدى حظاياها، ويظلّ يبكي بجانب قبرها إلى أن يُغشى عليه، ويترك شؤون

(1) م. ن، 156/3.

(2) ألف ليلة وليلة، 1/229.

(3) م. ن، 192/2.

دولته ليظّل قاعداً باكياً شهراً كاملاً، نادياً هذه الحظيّة الجميلة<sup>(1)</sup>.  
 ويبدو في مواقف أخرى عاشقاً مغتلاً، لا يطيق صبراً عن نكاح الجوّاري الجميلات المُهداة إلى وزيره جعفر البرمكي. يقول الراوي<sup>(2)</sup>: «حُكي أنّ جعفرًا البرمكي نادى الرشيد ليلة، فقال الرشيد: يا جعفر بلغني أنّك اشتريت الجارية الفلانية ولي مدّة أطلبها، فإنها على غاية الجمال وقلبي من حبها في اشتعال، فبعها إليّ؟ فقال: لا أبيعها يا أمير المؤمنين. فقال: هبها لي. فقال: لا أهبها. فقال هارون الرشيد: زبيدة طالق ثلاثاً إن لم تبعها أو تهبها لي. قال جعفر: وزوجتي طالق ثلاثاً إن أنا بعته لك. (...). ثم قال هارون الرشيد: أحضروا الجارية في الحال فإني شديد الشوق إليها. فأحضروها وقال للقاضي أبي يوسف: أريد أن أطأها في هذا الوقت فإني لا أطيق الصبر عنها». وهو في موقف آخر يتزوّج البوّابة خادمة البنات في حكاية «الحَمَل والبَنات»<sup>(3)</sup>. على الرغم من أنّ الراوي صوّر هذه البوّابة بصورة المتهتكة الداعرة، التي تستلذّ بالتعرّي الكامل أمام الحَمَل الغريب، ومعانقته<sup>(4)</sup>.

وهنا يمكن القول: إنّ رواة الليالي، وهم يصوِّرون الرشيد بصورة الجنساني المتهالك على لذّاته، المنصرف إلى النساء، قد اطَّلَعوا على سيرته التاريخية وطبيعة حياته مع جواريه وحظاياها، وزوجته السيدة زبيدة، من خلال المصادر التاريخية التي توافرت لديهم، والتي أرّخت لبعض جوانب حياته. وتروي هذه المصادر عن المفضّل<sup>(5)</sup> أنّه قال: «دخلت على الرشيد وبين يديه طبق ورد وبين يديه جارية لم

(1) م. ن، 232/1.

- ولا يخفى على القارئ الكريم أنّ هذه الصورة المتخيّلة لرجل دولة يظّل يبكي امرأة لشهر كامل، تاركاً أمور دولته لمجموعة من قاداته، قد تكون مُشكّلة من راء إيديولوجي معاد لسلوك السلطة العباسية، وبذخها وترفها، وعشقها للنساء وتعظيمهنّ، واحتقارها في آنٍ لأبناء شعبها.

(2) م. ن، 445/2 - 446.

(3) ألف ليلة وليلة، 88/1.

(4) م. ن، 49/1.

(5) المفضّل الضيّب: (المفضل بن محمد بن يعلى بن عامر الضبي، أبو العباس، ... - 168هـ/... - 784م): رواية، علامة بالشعر والأدب وأيام العرب من أهل الكوفة. قيل: هو أوثق من روى الشعر من الكوفيين. يقال: إنه خرج على المنصور العباسي، فظفر به وعفا عنه. ولزم المهدي، وصنّف له كتاب "المفضليات".

- الزركلي، خير الدين: الأعلام، 280/7.

أر أحسن منها وجهاً قد أهديت إليه فقال: يا مفضل قل في هذا الورد شيئاً تشبّهه به فقلت:

كأنه حدّ موموق<sup>(1)</sup> يُقبَلُه فم الحبيب فقد أبقى به حجلاً  
قال: فقالت الجارية:

كأنه لون خدي حين تدفعي كفّ الرشيد لأمر يُوجب العُسلأ  
فقال لي يا مفضل قم فإن هذه الماحنة قد هيّجتني! فقمتم وأرخت الستور  
عليهما<sup>(2)</sup>.

ويبدو أن السيدة زبيدة كانت تعرف ولع زوجها الخليفة الشديد بالجواري الجميلات، وقد خاصمته ذات مرّة نظراً لشغفه وإعجابه بالجارية الجميلة دنانير، ثم سرعان ما صالحته وكسبت وده، وذلك بأن أهدته عشر جوارٍ من جواريتها<sup>(3)</sup>.

لقد كانت بعض ملامح الصّورة الواقعية التاريخية لهارون الرشيد، تشير إلى أنه كان ورعاً، و«يصلي كل يوم وليلة مائة ركعة»<sup>(4)</sup>، ويحجّ مرّة كل سنتين مصطحباً معه مائة من الفقهاء وأبناءهم، ولا يتوانى في ساعات صفائه، وعندما يسمع الشاعر الزاهد أبا العتاهية (أبو إسحق إسماعيل بن القاسم، ت 211هـ/826م) عن البكاء معترفاً بأنّ ملذّات الدنيا ونعيمها قد أعمياه. وقد كان يتواضع لعلماء عصره، ويصبّ على أيدي العميان من العلماء، الماء إجلالاً لعلمهم<sup>(5)</sup>. وكان يطلب من العلماء الواعظين في عصره أن يعظوه، وكان لا يغضب منهم مهما كان وعظهم قاسياً. ويُروى أنه قال لأحد الواعظين: «عظني وكان بيده شربة ماء فقال له يا أمير المؤمنين لو حُبست عنك هذه الشّربة أكنت تفديها بملكك؟ قال نعم. قال يا أمير المؤمنين لو شربتها وحبست عن الخروج أكنت تفديها بملكك قال نعم.

(1) الموموق: المحبوب.

- المنجد في اللغة، مادة: وَمَق، ص 919.

(2) التجاني، محمد بن أحمد: تحفة العروس ومتعة النفوس، ص 440.

(3) الأصفهاني: الأغاني، 67/18.

(4) الدّميري، كمال الدين محمد بن موسى: حياة الحيوان الكبرى، 95/1.

(5) ابن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، ص 193 - 194.

فقال له لا خير في ملك لا يساوي شربة ولا بولة»<sup>(1)</sup>. غير أنّ هذه الملامح الجمالية من ورع وزهد وعبادة وتواضع، تكاد تغيب عن نصوص ألف ليلة وليلة الحكائية، لتحلّ محلّها ملامح الخليفة المستبدّ القاسي، العاثر، الماجن، الشّبّق الذي لا يطيق الصّبر على نكاح النساء الجميلات.

ويمكن القول في نهاية الحديث عن ملامح شخصية الرشيد السلطوية في حكايات ألف ليلة وليلة: إنّ الصوت السارد الذي قدّم الرشيد في الحكايات ليس واحداً أو ذا رؤية واحدة، بل هو مجموعة من الأصوات المتعدّدة بتعدّد رؤيتها الفكرية وموقفها الإيديولوجي من الخليفة الرشيد، هذا الخليفة الذي يبدو أقرب إلى الأسطورة نظراً لقدراته الخارقة، وسطوته المطلقة على كلّ من حوله في حكايات الليالي من جنّ وأنس، فهو مالى الحكايات وشاغل الرجال والنساء. وإذا كان بعض الرواة يعظّمونه هو وتربة أجداده الطاهرة، ويصوّرونه بمظهر العادل، الطّامح إلى سلام يعمّ بغداد، والذي يجعل سكّانها آمنين، وقادرين على انتزاع حقوقهم، بفضل عدله وقوّته وهيئته<sup>(2)</sup>، فإنّ بعض الرواة الآخرين يصوّرونه متعاطفاً مع رجال ونساء الفساد والاحتيال في دولته، غير مهتمّ برفع المظالم عن البسطاء من أفراد شعبه، كما في حكاية «علي الزبيق ودليلة المختالة». إذ عانت دليلة وزينب فساداً واحتيلاً على سكّان بغداد، وعملتاً نبأً في ممتلكاتهم، ومع ذلك نجده يعفو عنهما عندما يقبض عليهما رجل السّلطة حسن شومان وأعوانه، ويقودونهما إلى قصره ببغداد<sup>(3)</sup>.

إنّ شخصية الخليفة هارون الرشيد في الليالي شخصية ثرة ساهمت في بناء عدّة حكايات، وشعبتها، ومزجتها بالأسطورة والخرافة وأخبار الجنّ والعمارة، وجعلتها منفتحة على فضاءات القصور، والجواري، وبنات التجار والملوك والوزراء، والتّهتك الجنسي، والملذّات والخمور، والتّرف والبذخ الأسطوريين، من جهة، وعلى فضاءات القتل والسّطوة والاحتيال والفساد في بنية الحياة العباسية من

(1) الأبيشي: المستطرف في كل فن مستظرف، 376/2.

(2) ألف ليلة وليلة، 88/1، 92، 93.

(3) م. ن، 138/4.

جهة أخرى. وقد قدّمت هذه الشخصية، في طبيعة علاقاتها مع الشّخص الأخرى، ملامح مهمّة لبعض جوانب الحياة العباسية: سياسياً وثقافياً واقتصادياً واجتماعياً.

### ب - ملامح شخصية الخليفة عبد الله المأمون

لا يأخذ المأمون بن هارون الرشيد (198 - 218هـ/831 - 833م) في حكايات ألف ليلة وليلة فضاءً سردياً واسعاً يعادل الفضاء الذي يحتله والده الخليفة هارون الرشيد في هذه الحكايات، إذ تذكره الليالي في أربع حكايات من حكاياتها. وهذه الحكايات هي: حكاية «إبراهيم بن المهدي مع ابن أخيه المأمون»، وحكاية «المأمون وزواجه بخديجة بنت الحسن بن سهل»، وحكاية «الجواري المختلفة الألوان»، وحكاية «المأمون ورغبته في هدم أهرامات مصر».

وتبدو صورة المأمون في هذه الحكايات مقاربة إلى حدّ ما من صورتها التاريخية، كما قدّمها المؤرّخون. ففي حكايته مع عمّه إبراهيم بن المهدي، يبدو رجلاً حكيماً وعاقلاً، وخبيراً مجرباً، ممتلئاً بالحلم والحكمة، ويعرف أن يكون نبيلاً، وكاظماً لغيبظه. إذ يشير راوي الحكاية إلى أن عمّه إبراهيم بن المهدي لما آلت «الخلافة إلى المأمون ابن أخيه هارون الرشيد، لم يبايعه بل ذهب إلى الرّيّ وادّعى الخلافة لنفسه، وأقام على ذلك سنة واحدة وأحد عشر شهراً واثني عشر يوماً، وابن أخيه المأمون يتوقّع منه العود إلى الطاعة وانتظامه في سلك الجماعة، حتى يئس من عوده، فركب بخيله ورجاله ودخل الرّيّ في طلبه. لما بلغ إبراهيم الخبر لم يسعه إلا أن جاء بغداد واختفى خوفاً على دمه، فجعل المأمون لمن يدلّ عليه مائة ألف دينار»<sup>(1)</sup>.

ويستمر السرد الحكائي، ويلتجئ إبراهيم بن المهدي إلى دار إحدى جواريه السابقات ببغداد طالباً الحماية وستر سرّه، لكنّ الجارية سرعان ما تذهب إلى دار الخلافة لتشي به. وبينما هو في دارها، وإذا بالنّسيم إبراهيم الموصلي وغلمانه وجنود الخليفة - الذي أرسلهم المأمون للقبض عليه - والمرأة الجارية أمامهم، يحيطون به،

(1) ألف ليلة وليلة، 2/405 - 406.

ويأخذونه عنوة إلى الخليفة المأمون<sup>(1)</sup>. وأمام الخليفة المأمون يقف إبراهيم معتذراً منشداً:

أتيت ذنباً عظيماً      وأنت للعفو أهل  
فإن عفوت فمنّ      وإن جزيت فعادل

وعند ذلك يرى المأمون أنّ العفو عند المقدرة من شيم الكرام، فيعفو عن عمّه، ويكظم غيظه، ويقبل عذره، ويردّ على شعره المعتذر، منشداً:

وكنت إذا الصديق أراد      وأشريقي على حنقي بريقي  
غفرت ذنوبه وعفوت عنه      مخافة أن أعيش بلا صديق<sup>(2)</sup>

وقبل أن يعفو المأمون عن عمّه إبراهيم بن المهديّ يستشير جميع خاصّته الحاضرين، إلاّ أنّهم يؤكّدون ضرورة الانتقام منه بقتله، لكنّ أحد العاقلين - يسميه الراوي بـ أحمد بن خالد - يقول للمأمون: «يا أمير المؤمنين إن قتلته وجدنا مثلك من قتل مثله، وإن عفوت عنه فما وجدنا مثلك عفا عن مثله»<sup>(3)</sup>. فما كان من المأمون إلاّ أن نكّس رأسه، واستنفر كرمه وعفوه<sup>(4)</sup>، وأنشد قول أحد الشعراء:

«سامح أحاك إذا خلط      منه الإصابة بالغلط  
واحفظ صنيعك عنده      شكر الصنيعة أم غمط

تر. ألف ليلة وليلة، 408/2. ن. م. 2/408.

(1) م. ن، 408/2.

(2) ألف ليلة وليلة، 409/2.

(3) م. ن، 410/2.

(4) إنّ صورة المأمون وهو يعفو عن عمّه في الحكاية، تناصّ إلى حدّ قريب جداً مع الصورة التاريخية التي نقلها الأبيشي، إلاّ أنّ الأبيشي يضيف إلى الحكاية ما يلي: "فلما سمع المأمون كلامه وشعره ظهرت الدموع في عينيه وقال: يا إبراهيم الندم توبة، وعفو الله تعالى أعظم مما تحاول، وأكثر مما تأمل، ولقد حبّب إليّ العفو حتى خفت أن لا أؤجر عليه، لا تثريب عليك اليوم ثم أمر بفك قيوده وإدخاله الحمام، وإزالة شعته".

- المستطرف في كل فن مستظرف، 281/1.

(5) ألف ليلة وليلة، 410/2.

ويقول إبراهيم بن المهدي<sup>(1)</sup> عن عفو ابن أخيه المأمون عنه: «والله ما عفا عني المأمون تقريباً إلى الله تعالى، ولا صلة للرب ولكن له سوق في العفو يكره أن تكسد بقتلي»<sup>(2)</sup>.

وعلى كل حال تبقى حالات العفو عن المتمردين سياسياً، والخارجين عن طاعة الخليفة أو السلطان أو الأمير في ألف ليلة وليلة قليلة جداً، إذ لا يشكّل كرم بعض حكام الليالي وحلمهم مقياساً يمكن الانطلاق منه وتعميمه، وبالتالي القول عن الحكام الآخرين: إنهم حكماء وعقلاء. بل يمكن القول، وتأسيساً على ما تفرزه الحكايات من أنساق معرفية وفكرية حول حياة هؤلاء الحكام: إنهم ظلمة وأجلاف، وقساءة القلوب.

ويبدو أن صورة المأمون وهو يعفو عن عمه، تتفق مع الصورة الوضيئة التي عُرف بها في خلافته، من حلم وعدل وعفو، والتي نقل المؤرخون كثيراً من ملامحها. فقد كان المأمون عادلاً في إقامة الحق، وكان منصفاً حين جلوسه للنظر في مظالم الناس، التي كانت تُرفع إليه، وكان يأخذ للمظلوم حقه من الظالم، حتى ولو كان هذا الظالم قريباً أو ابناً له. ويروي ابن عبد ربّه الأندلسي عن قحطبة بن حميد أنّه قال<sup>(3)</sup>:

«إنني لواقف على رأس المأمون يوماً وقد جلس للمظالم، فكان آخر من تقدّم إليه، وقد همّ بالقيام، امرأة عليها هيئة السقم، وعليها ثياب رثة، فوقف بين يديه فقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله

(1) إبراهيم بن المهدي: (إبراهيم بن محمد المهدي بن عبد الله المنصور، 162 - 224هـ/779 - 839م): العباسي الهاشمي، الأمير، أخو هارون الرشيد. وُلد ونشأ في بغداد، وولاه الرشيد إمرة دمشق، ثم عزله عنها بعد سنتين، ثم أعاده إليها فأقام فيها أربع سنين. ولما انتهت الخلافة إلى المأمون كان إبراهيم قد اتخذ فرصة اختلاف الأمين والمأمون للدعوة إلى نفسه، وبايعه كثيرون ببغداد، فطلبه المأمون، فاستتر، فأهدر دمه، فجاء مستسلماً، فسجنه ستة أشهر، ثم طلبه إليه وعاتبه على عمله، فاعتذر، فعفا عنه.

- الزركلي، خير الدين: الأعلام، 1/59 - 60.

(2) الأبيشي: المستطرف في كل فن مستظرف، 1/276.

(3) العقد الفريد، 1/43.

وبركاته (...) فقال لها يحيى بن أكثم<sup>(1)</sup>: (...) تكلمي بحاجتك؛  
فقالت:

يا خيرَ مُنْتَصِفٍ يُهْدِي له الرِّشْدُ؛  
ويا إماماً به قد أشرق البَلْدُ  
تشكو إليك، عميدَ القوم، أرملةٌ  
عُدِيَّ عليها، فلم يُترك لها سَبْدٌ<sup>(2)</sup>  
وابْتَزَّ منِّي ضياعي بعد مَنَعْتها،  
ظُلماً، وفرّق منِّي الأهل والولد»

وعندما يسمع المأمون شعرها يطلب منها أن تأتيه يوم الأحد، وقت انعقاد مجلس ردّ المظالم:

«فلما كان يوم الأحد جلس [المأمون]، فكان أوّل من تقدّم إليه تلك  
المرأة، فقالت:

السّلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته. فقال:

وعليك السّلام، أين الخصم؟ فقالت: الواقف على رأسك يا أمير  
المؤمنين - وأومأت إلى العباس ابنه. فقال: يا أحمد بن أبي خالد، خذ  
بيده فأجلسه معها مجلسَ الخصوم. فجعل كلامها يعلو كلام العباس؛  
فقال لها أحمد بن أبي خالد: يا أمة الله، إنك بين يديّ أمير المؤمنين،  
وإنك تكلمين الأمير، فاحفضي من صوتك. فقال المأمون: دعها يا  
أحمد، فإن الحق أنطقها وأخرسه ثم قضى لها بردّ ضيعتها، وظلم

(1) يحيى بن أكثم: (يحيى بن أكثم بن محمد بن قطن التميمي الأسدي المروزي، أبو محمد، 159 - 242هـ/  
775 - 857م): قاض، رفيع القدر، عالي الشهرة، من نبلاء الفقهاء. ولد بمرو، واتصل بالمأمون أيام  
مقامه بها، فولاه قضاء البصرة (سنة 202هـ) ثم قضاء القضاة ببغداد. وأضاف إليه تدبير مملكته، فكان  
وزراء الدولة لا يقدّمون ولا يؤخّرون في شيء إلا بعد عرضه عليه. وكان مع تقدّمه في الفقه وأدب  
القضاء، حسن العشرة، حلو الحديث.

- الزركلي، خير الدين: الأعلام، 138/8.

(2) السّبْد: القليل من الشعر.

- المنجد في اللغة، مادة: سبد، ص 318. وتقصد المرأة بالسبد: الإبل.

العباس بظلمه لها، وأمر بالكتاب لها إلى العامل ببلدها أن يوغر<sup>(1)</sup> لها ضيعتها ويُحسن معاونتها، وأمر لها بنفقة<sup>(2)</sup>.

وإذ يشير الراوي في الحكاية السابقة إلى أن المأمون ردّ على اعتذار عمّه إبراهيم بن المهديّ، منشداً من شعره ومن شعر غيره، فإن اهتمام المأمون بالشعر وحفظه وإنشاده، يبدو أن له خلفيّة مرجعية، تدلّ على شغفه بالأدب والفنّ، وتقديره لهما، فقد كان يحفظ كثيراً من أشعار شعراء عصره، والعصور التي سبقت<sup>(3)</sup>. وكان من أفضل خلفاء الدولة العباسية، وعلمائها وحكامها وحلمائها، وكان فطناً كريماً<sup>(4)</sup>. وكان يؤمّ بلاطه نفر من نجوم الغناء، والشعراء، والعارفين بعلوم زمانهم، والذين «كانت لكل واحد منهم ذاكرة حافلة بمختارات من الشعر الجيّد ومن الروايات الأدبية»<sup>(5)</sup>.

إن بنية السرد وطبيعة الرّؤية الفكرية التي تسمه، تثبت أنه ليس هناك مقياس نقديّ ثابت ونهائيّ، يمكن تعميمه على جميع حكايات وشخص ألف ليلة وليلة، فما ينطبق على حكاية قد لا ينطبق على حكاية أخرى، وما تتّصف به شخصية ما من شخصيات ألف ليلة وليلة، من عدالة وحلم وحكمة، يمكن أن يُحرق، ويبدو قهوراً عند هذه الشخصية في حكاية أخرى، وذلك نظراً للثنائيات الضدّية المتحكّمة في مسار سلوك الشخصية الواحدة كما أشير إلى ذلك سابقاً، فالخليفة أو الملك أو الحاكم في الليلي، وإن بدا عاقلاً وحكيماً ومتمزناً في بعض المواقف، فإنّه سرعان ما يتخلّى عن اتزانة إذا سمع بوجود امرأة جميلة خارج قصره، إذ يفعل كلّ ما بوسعه لجلبها، ويبدّد مال خزينة بيت المال لشرائها. وهذه هي حال الخليفة المأمون في حكاية «المأمون وزواجه بمخدّجة بنت الحسن بن سهل»، إذ يطلب المأمون من إسحاق الموصليّ أن يجلس في قصر الخلافة، وينتظره، حتى يذهب لقضاء غرضٍ من

(1) أوغر لها ضيعتها: جعلها لها من غير خراج.

- المنجد في اللغة، مادة: وغر، ص 909.

(2) العقد الفريد، 1/44 - 45.

(3) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، 4/8 - 9 - 10.

(4) ابن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، ص 216.

(5) حتي، د. فيليب: الإسلام منهج حياة، ص 337 - 338.

أغراضه، عندها توسوس له نفسه العاشقة للغناء أن يذهب إلى دار خديجة بنت الحسن بن سهل<sup>(1)</sup> ليسمع غنائها<sup>(2)</sup>، وما إن ينتشي بالموسيقى وبجمال خديجة بنت الحسن وجواربها، ويعود إلى منزله، حتى يهجم عليه جنود المأمون ويأخذوه أخذاً عنيفاً إلى دار الخلافة. يقول الموصلي: «فوجدته [أي وجد المأمون] قاعداً على كرسيّ وهو مغتاض منّي، فقال: يا إسحاق أخرجوا عن الطاعة؟ فقلت لا والله يا أمير المؤمنين. قال: فما قصّتك، أصدقتني الخبر»<sup>(3)</sup>. عندها يصف الموصلي جمال خديجة وشفافيتها، فيندفع المأمون ملثماً بالعشق الذي لا يطيق عليه صبراً، ويطلب من الموصلي أن يأخذه إلى دارها، ليرى جمالها. فيحتال الموصلي، ويطلب منها أن، تسمح له باصطحاب ابن عمّه. ويتنكر المأمون كعادة أبيه هارون الرشيد، ويدخلان منزل خديجة، وهناك في منزل الفتاة يتخلّى المأمون عن وقاره أمام جمال المرأة، ونيذها، ويكشف قناعه كما كان والده الرشيد يفعل. يقول الموصلي واصفاً استقبال خديجة لهما:

«فأقبلت وسلّمت علينا. فلما رآها المأمون تحيّر من حسنها وجمالها وأخذت تذاكره الأخبار وتناشده الأشعار. ثم أحضرت التبيذ، فشربنا وهي مقبلة عليه مسرورة به وهو أيضاً مقبل عليها مسرور بها. ثم أخذت العود وغنّت طريقة، وبعد ذلك قالت لي: وهل ابن عمك هذا من التّجار؟ وأشارت إلى المأمون، قلت نعم، قالت: إنكما لقرىبا الشبه من بعضكما بعضاً، قلت نعم. فلما شرب المأمون ثلاثة أرتال داخله الفرح والطّرب فصاح، وقال: يا إسحاق، قلت لبيك يا أمير المؤمنين، قال غنّ بهذه الطّريقة. فلما علمت أنّه الخليفة مضت إلى مكان ودخلت فيه»<sup>(4)</sup>.

(1) الحسن بن سهل: (الحسن بن سهل بن عبد الله السرخسي، أبو محمد، 166 - 236هـ/782 - 851 م): وزير المأمون العباسي، وأحد كبار القادة والولاة في عصره. اشتهر بالذكاء المفرط، والأدب والفصاحة، والكرم. وهو والد بوران (زوجة المأمون) التي يطلق عليها روائ الحكاية اسم خديجة. وكان المأمون يحبّه ويبالغ في إكرامه. وتوفي في سرخس (من بلاد خراسان). وهو أخو ذي الرياستين الفضل بن سهل.

- الزركلي، خير الدين: الأعلام، 2/192.

(2) ألف ليلة وليلة، 2/419.

(3) م. ن، 2/419.

(4) م. ن، 2/420.

إنّ الوحدة السردية السابقة تشير إلى أنّ المأمون قد تحرّر من سطوة السلطوي وهيبته، واندفع محموراً أمام جمال المرأة، وشرب ثلاثة أرتال من النبيذ احتفاءً بصوتها العذب، وإعجاباً بشكلها الجمالي. وهذا الاندفاع يبدو طبيعياً ومألوفاً بالنسبة للمأمون، ولا سيّما أنّه يعايش مجتمعاً بغدادياً ترفاً، عاقر فيه الخلفاء جميع أصناف الخمرة. ويبدو أنّ راوي الحكاية استعار فكرة أرتال النبيذ الثلاثة التي شربها المأمون من أبي الفرج الأصفهاني، الذي يشير إلى أنّ المأمون كان يندفع محموراً إلى الخمرة، وبخاصّة إذا استمع إلى الغناء الجميل. فهذا هو يستمع إلى صوت المغني مُخارق<sup>(1)</sup> وهو ينشد:

ألم تقولي: نَعَمْ، قالت: أرى وهما منّي وهل يؤخذ الإنسان بالوَهْم!<sup>(2)</sup>

وينتشي المأمون طرباً عند سماعه لهذا الصوت، ويشرب ثلاثة أرتال من النبيذ<sup>(3)</sup>. المقطع السرديّ السّابق عندما تعرف خديجة بنت الحسن أنّ المائل أمامها هو الخليفة المأمون، تتراجع خائفة من هيبة السّلطة، وتحتجب عنه. ونظراً لسطوة الخليفة المطلقة في النظام العباسي، فقد وعى الناس جميعاً، في ولايات الدولة العباسية، الخطر الذي يمكن أن يحدّق بالفرد فيما إذا اقترب من هذه السّلطة أو نادىها، ومن خلال هذا الوعي انسحبت خديجة محتجبة. فالسّلطة السياسية أداة قاهرة في التّطابقين الاجتماعي والتاريخي<sup>(4)</sup> لأنّها تمارس فيهما أدوات قهرها، وهي أداة قاهرة في جميع الفضاءات المكانية التي تحلّ فيها، لأنّها تفرض سطوتها وأبّتها واستبدادها.

(1) مخارق: (مخارق، أبو المهنّا بن يحيى الجزار، ... - 231هـ/... - 845م): إمام عصره في فنّ الغناء. ومن أطيّب الناس صوتاً. كان الرشيد العباسي يعجب به حتى أقعده مرّة على السرير معه، وأعطاه ثلاثين ألف درهم. واتصل بعد ذلك بالمأمون. وزار معه دمشق. وتوفي بسر من رأى. كان مملوكاً لعاتكة بنت شهدة بالكوفة، وهي التي علّمته الغناء والضرب على العود. وباعته، فصار إلى الرشيد.

- الزركلي، خير الدين: الأعلام، 191/7.

(2) الوَهْم: الغلط أو السهو.

- المنجد في اللغة، مادة: وَهَمَ، ص 921.

(3) الأغاني، 363/18.

(4) لايبار، جان وليام: السلطة السياسية، ص 153.

وعندما قدّم المغني إسحاق الموصلّي نفسه لخديجة على أنّه تاجر، وعندما قدّم المأمون على أنّه ابن عمّه، وأنّه تاجر مثله، أعطت خديجة نفسها مزيداً من الحرّية، وشربت التّبيد، وأنشدت مستمتعةً بمذنين التاجرين الظّريفيين، اللّذين لا سلطة لهما عليها. وعندما عرفت أنّ الرجل - المأمون - كشف قناعه، وبان وجهه السلطوي، احتجبت، لأنّها تعي أنّ نظام مجتمعها العباسي يقوم على سطوة الطّبقات السلطوية المطلقة على ما دونها، واستخدام هذه السّطوة لاغتصاب الأموال، وأخذ النساء بالترغيب بالمال، أو الترهيب بسيف السّلطة؛ وتعني أنّ الخليفة فيما إذا انتشى طرباً، قد يزداد ثملاً، وبالتّالي قد ينفلت الوحش الرابض وراء أبهة السّلطة وقناعها، لبيسط محالبه، ويؤذيها هي ومن حولها، عندها اضطرّت إلى أن تسحب من مجلسه وتحتجب، ولا سيّما بعد أن عرفت أنّ الموصلّي والمأمون أتقنا الحيلة جيّداً، ودخلا دارها بعد أن تقنعا متنكرين بمهنة التّجار. ولأنّ الخليفة المأمون عشق خديجة بنت الحسن عشقاً جنسياً، فإنّه سارع وهو في أوج نشوة السّكر، وبعد أن احتجبت خديجة مباشرة، وسأل: «من ربّ هذه الدار؟ فبادرته عجوز بالجواب وقالت: هي للحسن بن سهل. فقال: عليّ به. فغابت العجوز ساعة وإذا بالحسن قد حضر، فقال له المأمون: ألك بنت؟ قال: نعم، قال: ما اسمها؟ قال: اسمها خديجة. قال: هل هي متزوّجة؟ قال: لا والله. قال: فإني أخطبها منك. قال: هي جاريتك وأمرها إليك يا أمير المؤمنين. فقال الخليفة: قد تزوّجتها على نقد ثلاثين ألف دينار وتحمّل إليك صبيحة يومنا هذا، فإذا قبضت المال فاحملها إلينا من ليلتها. قال: سمعاً وطاعة»<sup>(1)</sup>.

من خلال المقطع السّرديّ السّابق يمكننا أن نفهم إلى أيّ مدى تدنّت قيمة المرأة في النظام السياسي العباسي. فالمأمون لا يرى في الصبيّة التي ستصبح زوجته إلاّ سلعة بين السلع النسائية الكثيرة المعروضة في منازل مدينته، ومن هنا فقد حدّد قيمتها بثلاثين ألف دينار. إنّها سلعة قابلة للتّبادل، لكنّ التّبادل هنا ليس سلعة بسلعة أخرى، بل بقيمة نقدية. وعلى الرّغم من أنّ خديجة سيّدة من حرائر المجتمع

(1) ألف ليلة وليلة، 420/2.

العباسي، فعمّها الفضل بن سهل كان وزيراً للخليفة المأمون، ثم صار بعده والدها الحسن بن سهل وزيراً عند هذا الخليفة؛ إلا أنّها في النهاية ليست إلاّ جارية، طالما أنّ قيمتها حدّدت بمبلغ مالي باهظ.

وتعمّق سياسة التبادل السلعيّ الاستهلاكيّ بين رأس النظام السياسي، ونساء الطبقات الأخرى، من خلال هذه النظرة الدوئيّة للمرأة، فكأنّ الخليفة المأمون يريد أن يعقد صفقة تجارية بحتة، لا علاقة لها بالمشاعر الجمالية والإنسانية التي يؤطّرها فعل الحبّ بين المرأة والرجل. وما هو بوضوح يحدّد للحسن بن سهل شروط هذه الصفقة التجاريّة، وما على الحسن إلاّ أن يقبلها شاء أم أبى، هو وابنته. ويمكن صياغة شروط هذا العقد التجاريّ التي يفرضها القوي - المأمون - على الشكل الآتي: يا حسن بن سهل، أنا سأشتري ابنتك خديجة فما عليك إلاّ القبول، ورجالي سيحملون إليك ثلاثين ألف دينار صباح هذا اليوم، وعندما تقبضها، فما عليك إلاّ أن تملّكني ابنتك، وتحملها إليّ بنفسك إلى قصري في بغداد، واتّفاقنا هذا غير قابل للنقض من طرفك.

وطالما أنّ السلعة المشترية هي جارية في نظر السّلطة السياسية، يُلاحظ أن الحكاية لا تستشير البنت فيما إذا كانت قابلة بعقد البيع هذا، لأنّ رأس السّلطة السياسية لا يرى نفسه إلاّ خليفة الله في الأرض، وما أموال المسلمين ونساؤهم إلاّ ملك له. أمّا الحسن بن سهل، والد خديجة، فإنّه لا يرى في ابنته إلاّ جارية يشرفها أن تخدم المأمون، وإنّه بوجود المأمون لا أمر له على ابنته، بل الأمر كلّه للمأمون، وله الحقّ في امتلاك المرأة الجارية مقابل ثلاثين ألف دينار. وتشير المفردات اللغويّة في الحكاية بوضوح إلى العقليّة السلطوية التجاريّة، التي يكرّسها النظام السلطوي، وعلى رأسه الخليفة من جهة، والنظام الرجولي، والد الفتاة، من جهة أخرى: «من ربّ هذه الدار؟.. هي جاريتك.. أمرها إليك يا أمير المؤمنين.. احملها إلينا.. سمعاً وطاعة».

إنّ ما يسم طابع العلاقات الاجتماعيّة والإنسانيّة في مجتمعات ألف ليلة وليلة «هو طابع السّلطة الفوقيّة. فصاحب السّلطة في المجتمع (ومن يمثّله أو يمثّل سلطته) هو الذي يملك ويستفيد، بينما باقي الناس تقبل وترضخ وتمثّل. «والكبير» (...)

هو دوماً الذي يتسلّط ويحكم وسيطر. فالقرارات تؤخذ «من فوق». معزل عن الأكثرية التي تشكّل هدف هذه القرارات [و] ليس الكبير صاحب السلطة والمركز في المجتمع إلاّ صورة مكبّرة للأب في العائلة - بتصرفاته ونظراته لنفسه وعلاقته بمن هم دونه»<sup>(1)</sup>.

وإذا كان الراوي لم يستشر خديجة بنت الحسن، فيما إذا كانت قابلة بالخليفة المأمون، فلاّته يعي تماماً أنّ حكايته ستفقد مصداقيّتها في حالة الاستشارة، ولأّته سيعطي هذه المرأة مكانة مهمّة، تبدو فيها ندّاً للخليفة المأمون، وهذا ما لا ترضاه السّلطة السياسية، فأيّ شرف لأسرة الحسن بن سهل أعظم من شرف أن تكون ابنته خديجة خادمة لخليفة كبير جدّاً، وهو أمير المؤمنين؟. وإذا كان الأمير أو الحاكم في طبيعته الاستبدادية مضطّراً لأن يفرض الخوف على شعبه حتى يطيعه، فإنّ عليه فرض الخوف بطريقة «يتجنّب بواسطتها الكراهية إذا لم يضمن الحبّ، إذ إنّ الخوف وعدم وجود الكراهية قد يسيران معاً جنباً إلى جنب، وفي وسع الأمير الذي يمتنع عن التّدخل في ممتلكات مواطنيه ورعاياه، وفي نسائهم، أن يحصل عليهما»<sup>(2)</sup>. إلاّ أنّ خلفاء ألف ليلة وليلة وملوكها وأمراءها ووزراءها لم يكونوا قادرين على الامتناع عن التّدخل في ممتلكات مواطنيهم، وفي نسائهم، بل كانت معظم اهتماماتهم تنحصر في امتلاك الأموال والعقارات والنساء، ولم يكن يهتمهم أكان هذا الامتلاك مشروعاً أم اغتصاباً»<sup>(3)</sup>.

وبالعودة إلى الحكاية السّابقة «حكاية المأمون وزواجه بخديجة»، يمكن القول إنّ خديجة لن تكون في قصر الخليفة المأمون إلاّ جارية كما حدّد لها والدها الحسن أن تكون. وستنحصر مهمّة هذه الجارية في كونها سلعة جميلة باهظة الثمن، ينحصر دورها في التّرفيه عن الخليفة جنسياً، وفي تبديد كآبته بصوتها الجميل جدّاً. وعندما تتحوّل العلاقات الإنسانية بين أفراد المجتمع إلى علاقات جنسيّة وسلعية، فإنّها

(1) شرابي، د. هشام: مقدمة لدراسة المجتمع العربي، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الرابعة 1991م، ص 21.

(2) مكيافللي، نيقولو: الأمير، تعريب خيرى حمّاد، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الثامنة 1977م، ص 144.

(3) ألف ليلة وليلة، 1/195، 196، 235.

تسهم في تأييد عبودية المرأة، وفي تأييد تخلف المجتمع، وبالتالي في استمرار علاقات القوّة والسيطرة والتحكّم<sup>(1)</sup> في المجتمع الذي يقوم، في تركيبته السياسية والاجتماعية، على التباين الطبقي الحادّ وعلى امتلاك القوي فيه لكلّ شيء.

وإذا كان الخلفاء والملوك والأمراء في الليالي، أو في المدينة العربية الإسلامية يستطيعون امتلاك أجساد النساء بالسطوة والإرهاب والأموال، فإنّه ليس من الضروري أن يمتلكوا أرواحهنّ وعواطفهنّ، وتطلعاهنّ الجنسية الأخرى صوب رجال من خارج القصر. فعلى سبيل المثال يشير أبو الفرج الأصفهاني إلى أنّ الخليفة المأمون اشترى المغنيّة المتميّزة عريب بمائة ألف درهم<sup>(2)</sup>، لكنّه لم يستطع أن يمتلك روحها التوّاقة إلى عشيقها محمد بن حامد، فقد كانت تحتال للخروج من قصر المأمون وزيارة عشيقها في منزله، على الرغم من أنّ المأمون: «حبسها في كنيف مظلم شهراً لا ترى الضوء، يُدخّل إليها خبز وملح وماء من تحت الباب في كلّ يوم»<sup>(3)</sup>، علّه يمنعها من لقاء عشيقها محمد بن حامد، إلاّ أنّه لم يستطع، وبعد أن أفرج عنها، أن يكبح جموحها وتوقها الجنسيّ لهذا العشيق، فقد كانت تخرج من قصره، إذا هبط الظلام وتتوجّه إلى دار عشيقها محمد بن حامد. ويروي أحمد بن حمدون عن أبيه: أنّه كان خارجاً في ليلة ظلماء ذات رعود وبروق، بأمر من المأمون، لإيصال رسالة من رسائله، فـ «برقت بارقة فأضاءت وجه الراكب، فإذا عريب، فقلت: عريب؟ قالت: نعم، حمدون؟ قلت: نعم. ثم قلت: من أين أقبلت في هذا الوقت؟ قالت: من عند محمد بن حامد، قلت: وما صنعت عنده؟ قالت عريب: يا تكش<sup>(4)</sup>، عريب تجيء من عند محمد بن حامد في هذا الوقت خارجة من مَضْرَب الخليفة وراجعة إليه، تقول لها: أيّ شيء عملت عنده؟ صلّيت معه التراويح؟ أو قرأت عليه أجزاء من القرآن، أو دارست شيئاً من الفقه، يا أحقّ

(1) طرايشي، جورج: شرق وغرب - رجولة وأنوثة (دراسة في أزمة الجنس والحضارة في الرواية العربية)، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الثانية، شباط/فبراير 1982م، ص 17.

(2) الأغاني، 67/21.

(3) م. ن، 68/21.

(4) لم أجدّها في المعاجم، وربّما لا أصل لها في اللغة العربية، وربّما هي كلمة بذينة من الدارجة تستخدم للشتيمة.

تعاتبنا، وتحادثنا، واصطلننا ولعبنا، وشربنا وغنينا، وتنايكننا، وانصرفنا، فأحججنتني وغازتني وافترقنا»<sup>(1)</sup>.

إذا كان إسحاق الموصلي، في الحكاية السابقة، هو الذي وصف للمأمون جمال خديجة بنت الحسن، قائلاً: «جارية كأنها البدر الطالع»<sup>(2)</sup>، فإنه في الواقع التاريخي هو الذي وصف له جمال الجارية عريب، وشجعه على شرائها، فما كان من المأمون إلا أن أمر كاتب نفقاته إبراهيم بن رباح أن يشتريها<sup>(3)</sup>. ويبدو أن أفعال ندماء الخلفاء ومواقفهم وعبر تاريخهم الطويل كانت مكرسة لخدمة الخلفاء، فبالإضافة إلى أنهم ندماء ظرفاء مرفهون - بكسر الفاء - عن الخليفة، فإنهم دلّون له على النساء الجميلات المتميزات في دولته. وحتى يستطيع الندم الوصول إلى مكانة مهمة عند الخليفة أو الملك، عليه أن يتحلّى بعدة مزايا أخلاقية، ومنها أن يكون ذكياً، فـ «الذكاء أوّل ما يجب أن يتّصف به من يخالط السلطان ويلازمه لأنّ صحبة السلطان لا تليق بذوي الجهل، وذاكؤه عدته للخروج من كثير من المتاعب التي قد يتعرض لها ولذا ينبغي أن يكون جليس السلطان وأنيسه جامعاً لخصال كثيرة أهمّها: «العقل، فإنه رأس الفضائل، والعلم، فإنه من ثمار العقل». وإذا كان العقل أهمّ خصال هذا الجليس فهذا يعني أنّه يجب أن يكون قادراً على ان يفهم ما يريده الملك الذي يجالسه ويقربه، ولذلك قيل: «ينبغي للندم أن يكون كأنما خلّق من قلب الملك، ويتصرّف بشهواته، ويتقلّب بإرادته، لا يملّ المعاشرة، ولا يسأم المسامرة»<sup>(4)</sup>.

ويبدو أن إسحاق الموصلي كان جامعاً لخصال كثيرة تؤهله لأن يكون نديماً متميّزاً عند المأمون ومفضلاً على غيره من الندماء الكثر الذين كانوا يحضرون مجلسه، فقد «كان عالماً فقيهاً وشاعراً مجيداً، وأديباً أريباً، ونديماً جمّ الظرف حلو

(1) الأغاني، 81/21.

(2) ألف ليلة وليلة، 416/2.

(3) الأصفهاني: الأغاني، 67/21.

(4) سرحان، جمال: المسامرة والنادمة عند العرب حتى القرن الرابع الهجري، دار الوحدة، بيروت، الطبعة الأولى 1981م، ص 102.

الشمائل، وجليسا لطيف المعاشرة (...) لا يستغني عنه الخلفاء. وراوية يروي أخبار القدامى والمحدثين بل وكثيراً ما كان يصحح خطأ من ينسب الأشياء إلى غير قائلها. وكان مغنياً عارفاً بفنّ الغناء تمام المعرفة، وعازفاً ماهراً، وملحناً بارعاً<sup>(1)</sup>.

وتشير حكاية: «الجواري المختلفة الألوان»، إلى دور النديم في تقديم الجواري للخليفة وتعريفه بهنّ من خلال أوصافهنّ المثيرة، وقدراتهنّ على المسامرة والمنادمة، وحفظهنّ الشعر، وبالتالي تحريض الخليفة على شرائهنّ. فقد كان من جملة ندماء الخليفة المأمون في الحكاية نديم يسمّى محمد البصري، وذات ليلة يسأله المأمون أن يحدّثه بشيء لم يسمعه قط، فقال: «يا أمير المؤمنين أتريد أن أحدّثك بحديث سمعته بأذني أو بأمر عاينته ببصري؟ فقال المأمون: حدّثني يا محمد بالأغرب منهما»<sup>(2)</sup>. ولأنّ النديم يعرف أنّ أهمّ ما يزيل هموم الخلفاء ويثيرهم في مجتمع عباسي منفتح على ثقافات العالم ونسائه وجواريه هو الحديث عن النساء فقد قرّر محمد البصري أن يكون حديثه عن الجواري الجميلات، يضاف إلى ذلك أنّ محمداً البصري عندما ينقل للمأمون أخبار النساء، فإنّ مكانته بين الندماء ستزداد عنده، وسيقرّبه أكثر، نظراً لشغف الخلفاء بالنساء شغفاً لا يقاوم، وبالتالي إثارةهم لكلّ نديم يكون دلالاً لهم على هاته الجواري. فالبؤرة المركزيّة للحكاية التي سيحكّيها محمد المصري للمأمون تضمّ «ستّ جوار كأنهنّ الأقمار (...) وكنّ حسان الوجوه كاملات الأدب عارفات بصناعة الغناء وآلات الطرب»<sup>(3)</sup>. وكانت هاته الجواري مختلفات الألوان ومملوكات لرجل يمانيّ، انتقل من اليمن وحمل ماله وجواريه، واستقرّ ببغداد مستمتعاً بالأيام الجميلة، والطعام والنبذ والطرب، وبهاته الجواري المثيرات، ذوات الأصوات والألحان الشجيّة، القادرة على أن تجعل المكان ينفلت من سكونيته، ليرقص تحت وقع هذه الألحان: «فأخذت [إحدى الجواري] العود، وأصلحته، ورجّعت عليه الألحان حتى رقص المكان»<sup>(4)</sup>.

(1) الحفني، د. محمود احمد: إسحاق الموصليّ الموسيقار والنديم، الهيئة المصرية العامّة للكتاب، القاهرة، الطبعة

الثانية 1985م، ص 64.

(2) ألف ليلة وليلة، 71/3.

(3) ألف ليلة وليلة، 72/3.

(4) م. ن، 72/3.

ويستمر النديم محمد البصري في وصف هاته الجوارى وقدراتهنّ المتميّزة على المناظرة فيما بينهنّ وبين سيدهنّ حول مفاهيم الجمال اللوني والجنسيّ، ومتى تكون المرأة مثيرة جمالياً ومتى لا تكون. ومن خلال المناظرة تُظهر هاته الجوارى المغنّيات معرفة عميقة بأشعار الغزل التي قيلت في أوصاف المرأة المثيرة، ولون بشرتها، ثم تقدّم كلّ منهنّ نفسها إلى سيدها على أنّها هي النموذج الجمالي المثالي الذي يجب على الرجال أن يبحثوا عنه ويظفروا به<sup>(1)</sup>. وما إن ينتهي النديم محمد البصري من سرد الحكاية، قائلاً<sup>(2)</sup>: «فما رأيت يا أمير المؤمنين في مكان ولا زمان أحسن من هؤلاء الجوارى الحسان»، حتى يكون المأمون استُثير وانفجرت رغبات الامتلاك لديه، وقرّر أن يضّمّ الجوارى إلى حوزته، لاستكمال لذاته بهاته النسوة التي لا يوجد الزمان بمثلهنّ مرّة أخرى. يقول المأمون<sup>(3)</sup> لنديمه محمد البصري: «وهل يمكنك ان تشتريهن لنا من سيدهنّ؟ فقال له محمد: يا أمير المؤمنين قد بلغني أنّ سيدهنّ مغرم بهنّ ولا يمكنه مفارقتهنّ. فقال المأمون: خذ معك إلى سيدهنّ في كلّ جارية عشرة آلاف دينار، فيكون مبلغ ذلك الثمن ستين ألف دينار، فاحملها صحبتك وتوجّه إلى منزله واشترينّ منه».

لقد عُرف عن المأمون في فترة حكمه أنّه كان شغوفاً بالموسيقى، وسماع أصوات المغنّين من الرجال والنساء، ومن شدّة شغفه بالغناء كان في بعض الأحيان يدعو سائر المغنّين في بغداد للمثول بين يديه، ومنذ الصباح الباكر<sup>(4)</sup>، ليفتح يومه بإشعال طقوس الموسيقى، وكان في مجلسه يجلس مكللاً وسط المغنّيات الجميلات، إذا كان يُجلس عشر مغنّيات عن يمينه وعشراً عن يساره<sup>(5)</sup> وكان يسرف في الإنفاق على هؤلاء المغنّيات وعلى غيرهنّ، فقد كانت نفقاته على مسرّاته ستّة آلاف دينار كل يوم<sup>(6)</sup>.

(1) لمزيد من الاطلاع على مقاييس الجمال المفضّلة عند الرجال الجنسيين ومعرفة متى تكون المرأة مهمّة عندهم ومتى لا تكون، ينظر: المجلد الثالث، من ص 73 إلى ص 77.

(2) م. ن، 81/3.

(3) م. ن، 81/3.

(4) الأصفهاني: الأغاني، 75/21.

(5) الحفني، د. محمود أحمد: إسحاق الموصليّ الموسيقار والنديم، ص 173.

(6) ابن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانيّة والدول الإسلاميّة، ص 226.

ومن هنا ليس بعيداً، في الحكاية، أن يأمر المأمون بشراء جوارى الرجل اليماني بستين ألف دينار، في حين أن فقراء بغداد يعانون الفاقة والجوع<sup>(1)</sup>. ففي عصر الخلفاء العباسيين، على الرغم من الازدهار والثراء الذي عرفته الدولة العباسية فقد «تردى الشعب في هوة من الفقر أشد عمقاً لكي يقدم إلى الخليفة نفقات متارفة في بغداد. وكان من الطبيعي أن تُبترّ الأموال الضرورية لإشباع موظفي الدولة ونفقات البلاط من جيوب الشعب»<sup>(2)</sup>، ما دام هذا البلاط غارقاً في حمى الترف والملذات وامتلاك النساء.

وفي الحكاية السابقة يرسل المأمون نديمه محمد البصري إلى الرجل اليماني، ويعلمه برغبة الخليفة بشراء الجوارى، ولأن الرجل اليماني يعيش في بغداد غير بعيد عن جلاوزة الخليفة وسطوتهم، فإنه يضطرّ مكرهاً إلى بيع الجوارى، ولأن راوي الحكاية هو محمد البصري نديم الخليفة المأمون، أو هو الراوي الذي لا يخرج عن طوع السلطان أو المهيأ لأن يكون نديماً له فإنه لا يستطيع أن يضع الرجل اليماني موضع الرفض لعملية البيع، فيضطرّ عندها إلى أن يقول إن عملية البيع تمت «لأجل خاطر أمير المؤمنين»<sup>(3)</sup>. فهو يعرف مسبقاً إلى أي مدى سوف يكون الخليفة باطشاً ومستبدداً في حال لم تتم عملية البيع، وهو يعرف أنه في ظلّ الخليفة المعرفية التي فرزتها السياسة العباسية من ظلم واستبداد مطلقين، ومن كون الخليفة هو الأمر والناهي، وظلّ الله على الأرض؛ لا يمكن لأيّ رجل كان، ومهما كان ثرياً أو سلطوياً، أن يردّ طلبه، وهذا الراوي متأكد من أنه قد يلجأ إلى قتل الرجل، أو تدبير مكيدة له، ثم مصادرة أمواله وجواريه، إذا رفض بيع هاته الجوارى، عندها اضطرّ الراوي النديم إلى تحقيق منطلق التصالح بين الرعية والسلطة، انطلاقاً من وجوب طاعة الرعية للسلطان، وجعل بطله اليماني يتخلّى عن الجوارى، هذا من جهة، ومن جهة أخرى لا يستطيع الراوي أن يضع الخليفة أمير المؤمنين في حالة أرق وغضب، لأن من مهمته أن ينادمه وأن يزيل أرقه. وعلى المستوى البنائي لا

(1) ألف ليلة وليلة 89/1؛ 396/3.

(2) لاندو، روم: الإسلام والعرب ص 83.

(3) ألف ليلة وليلة، 81/3.

يستطيع الراوي فيما إذا قتل اليمانيّ أن يفكّ عقدة حكايته، ويجعل مسار سرده ينمو ليحقق غاية وظيفيّة أخرى، وهي الوصول إلى فكرة عدل المأمون وحلمه، كما سيظهر في آخر الحكاية.

وتاريخياً تشير سيرة المأمون إلى أنّه كان باطشاً وسفكاً، على الرّغم من حلمه وكرمه وعفوه، وتقديره للعلوم والعلماء. ويروي علي بن الحسين المسعودي<sup>(1)</sup> الخبر الآتي: «وغلّب على المأمون الفضل بن سهل<sup>(2)</sup>، حتى ضايقه في جارية أراد شراءها، فقتله، وادّعى قوم أن المأمون دسّ عليه من قتله»، وإذا كان المأمون، تاريخياً، يقتل وزيره الفضل بن سهل لأجل جارية<sup>(\*)</sup> أراد شراءها فليس بمستبعد حكائياً أن يقتل الرجل اليمانيّ - لا يذكر الراوي اسماً له - فيما إذا امتنع عن بيع جواريه الحسان. وتقول الحكاية: إنّ الجوّاري عندما وصلن «إلى أمير المؤمنين هيّاً لهنّ مجلساً لطيفاً، وصرن يجلسن فيه معه وينادمنه، وقد تعجّب من حسنهنّ وجمالهنّ واختلاف ألوانهنّ وحسن كلامهنّ، وقد استمر على ذلك مدّة من الزّمان»<sup>(3)</sup>.

ولأنّ للمرأة أهمية خاصّة، لا تعادلها أهمية أخرى، عند الرجال في التاريخ العباسي وألف ليلة وليلة، باعتبارها ضروريّة جدّاً لإقامة طقوس المسرات، فإنّ الرجل اليمانيّ ما استطاع صبراً على مفارقة جواريه، وحنّ إليهنّ، وأرسل كتاباً إلى الخليفة المأمون، يشكو فيه ما عنده من لوعة وحزن وشوق عارم لهذه الجوّاري، ويقول فيه<sup>(4)</sup>:

(1) مروج الذهب ومعادن الجوهر، 7/4.

(2) الفضل بن سهل: (الفضل بن سهل السرخسي، أبو العباس، 154 - 202هـ/771 - 818م): هو وزير الخليفة العباسي المأمون، من أولاد ملوك الفرس الجوس، وكان أبوه جوسياً فأسلم في أيام الرشيد، وكان سخياً كريماً، وحليماً بليغاً، عالماً بأداب الملوك، بصيراً بالحيل، وسمّي بذي الرياستين لجمعه بين السيف والقلم. وكان يُقال له الوزير الأمير.

- ابن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، ص 221.

(\*) على الأرجح أن يكون هناك أسباب سياسية أخرى، وربّما يكون منها: خوف المأمون من هذا الوزير، بعد أن قويت شوكته في الدولة، وربّما كان اغتياله نتيجة لبروز قوّة جديدة للنفوذ الفارسيّ في الدولة العباسية بعد نكبة البرامكة، ولا سيما أنّ الفضل بن سهل كان فارسياً.

(3) ألف ليلة وليلة، 81/3.

(4) م. ن، 82/3.

قد سلبت ستّ ملاح حسان      فعلى الستّة [كذا] الملاح سلامي  
هنّ سمعي وناظري وحياتي      وشراي ونزهتي وطعامي  
لست أسلو من حسنهنّ وصالاً      ذاهب بعدهنّ طيب منامي  
آه يا طول حسرتي وبكائي      ليتني ما خلقت بين الأنامي [كذا]

ولأنّ الراوي في هذه الحكاية هو راو سلطوي مؤدج لخدمة فكرة العدل والكرم والمروعة عند الخلفاء المسلمين، اضطرّ وحتى يُظهر الخليفة المأمون في صورة الرجل الكريم العادل، إلى أن يرجع هاته الجواري إلى سيدهنّ. يقول<sup>(1)</sup>: «فلما وقع ذلك الكتاب في يد الخليفة المأمون، كسا الجواري من الملابس الفاخرة وأعطاهنّ ستّين ألف دينار وأرسلهنّ إلى سيدهنّ، فوصلنّ إليه وفرح بهنّ غاية الفرح، أكثر مما أتين به من المال، وأقام معهنّ في أطيب عيش وأهنأه [كذا]، إلى أن أتاهم هادم اللذات ومفرّق الجماعات».

وإذا أخذنا بمنطق التجارة المكرّس في ألف ليلة وليلة الذي يعدّ المرأة سلعة، تتحدّد قيمتها بقدرتها على إشعال طقوس المسرّات، ومجامر أجساد الخلفاء والملوك، فإنّه يمكننا القول: إنّ ما قدّمته الجواري الستّ من ترفيه ومسرّات وغناء، خلال المدة التي بقين فيها في قصر الخليفة المأمون، يعادل كل ما دفعه المأمون لصاحبهنّ اليمانيّ من أموال، وربما لا يعوّض خسارة صاحبهنّ في فقدانه لهنّ، نظراً لما سبّب له هذا فقدان من حسرات وآلام، فهو ليس بحاجة إلى المال، لأنّه من أصحاب الثراء الواسع<sup>(2)</sup>، كما يؤكّد الراوي في أوّل الحكاية.

إذا كان الراوي في حكاية «إبراهيم بن المهديّ مع ابن أخيه المأمون» قد صورّ المأمون في صورة الحاكم الحليم والعاقل، والكريم الذي يعفو عند المقدرة، فإنّ راوياً آخر في حكاية «المأمون ورغبته في هدم أهرامات مصر» قد صورّه في صورة الرجل الجاهل بقيمة الآثار التاريخية والجمالية، وعلاقة هذه الآثار بفكر الأمم والحضارات التي أنتجتها، فهو في هذه الحكاية يصمّم على هدم أهرامات مصر،

(1) ألف ليلة وليلة، 82/3.

(2) م. ن، 71/3.

التي بناها الفراعنة: «حُكي أنّ المأمون ابن هارون الرشيد لما دخل مصر أراد هدم الأهرام ليأخذ ما فيها (...)، فلما حاول هدمها لم يقدر على ذلك مع أنّه اجتهد في هدمها، وأنفق على ذلك أموالاً عظيمة، ولم يقدر على هدمها وإنّما فتح في إحداها طاقة صغيرة. ويقال إنّ المأمون وجد في الطّاقة التي فتحها من الأموال قدر الذي أنفقه على فتحها لا يزيد ولا ينقص فتعجّب المأمون من ذلك، ثم أخذ ما هناك ورجع عن تلك النية»<sup>(1)</sup>.

وإذا كان الراوي قد غطّى هدر المأمون لأموال الدولة الإسلامية، وعبثه بها، في محاولته لهدم صرح حضاري وعمراني، يُعدّ آية في الرّوعة والجمال والهندسة المعماريّة، من خلال المال الذي وجده في الكوة المفتوحة، والذي يشكّل تعويضاً عن الأموال المهذورة في عمليّة الهدم، فإنّ صورة المأمون هنا لا تتفق مع صورته في المواضيع الأخرى التي يبدو فيها حاكماً عاقلاً، وذوّاقاً للأدب والفنّ والجمال والموسيقى، كما يؤكّد بعض رواة الليالي، بل تتباين معها تبايناً واضحاً، لأنّ المأمون يبدو في هذه الحكاية رجلاً مستهيناً بالإرث المعرفي والعمراني الذي تركته الحضارات السّابقة على الحضارات الإسلامية، هذا الإرث الذي يدلّ على عظمة هذه الحضارات، ودورها التاريخي في مسيرة البشريّة وتطوّرها.

ويبدو أنّ لهذه الحكاية خلفية مرجعية تاريخية سجّلتها المصادر التاريخية. إلا أنّ هذه المصادر تذكر أنّ الخليفة العباسي الذي أمر بهدم أحد هذه الأهرامات هو الخليفة هارون الرشيد، وليس ابنه المأمون. ويروي هذه الحكاية المسعودي قائلاً<sup>(2)</sup>:

«إنّ الرشيد لما دخل مصر، فرأى الأهرام أحبّ أن يهدم بعضها ليعلم ما فيه، فقليل له إنّك لا تقدر على ذلك، فقال لا بدّ من فتح شيء منه، ففتحت الثُّلثة المفتوحة بنار توقد وخلّ يرشّ ومجانيق يرمى بها وحدّادين يعملون ما فسد منها وأنفق عليها مالاً عظيماً فوجدوا عرض الحائط قريباً من عشرين ذراعاً، فلما انتهوا إلى آخر الحائط

(1) ألف ليلة وليلة، 3/173.

(2) أخبار الزمان، تحقيق عبد الله الصّاوي، دار الأندلس للطباعة والنشر، بيروت، د.ت، ص 165.

وجدوا خلف التَّقب مَطْهَرَةٌ<sup>(1)</sup> خضراء فيها ذهب مضروب وزن كل دينار أوقية من أواقينا، وكان عددها ألف دينار فعجبوا من ذلك ولم يعرفوا معناه، فأخبروا بذلك الرشيد، وأتوه بالذهب والمطهرة فجعل يعجب من ذلك الذهب، ومن جودته وحسنه وحمرة، ثم قال ارفعوا إليَّ حساب ما أنفقتموه على هذه الثلثة ففعل ذلك فوجوده بأزاء ذلك الذهب الذي أصابوه لا يزيد ولا ينقص».

إذا كان النصُّ السابق الذي يرويه المسعودي صحيحاً، فإنَّه يمكن القول: إنَّ راوي الحكاية في ألف ليلة وليلة يجهل بعض الحقائق التاريخية، أو بتعبير آخر تختلط عليه هذه الحقائق، فهو إمَّا يجهلها، وإمَّا يعمل فيها تحريفاً، وكما يجلو له، إذ يجعل المأمون يهدم الهرم بدلاً من أبيه هارون الرشيد. ويبدو أنَّ هذا التَّحريف في بعض الأحيان عائد إلى جهل الراوي بالعصور التاريخية والأدبيَّة للدولة الإسلامية. فعلى سبيل المثال نجد الراوي في حكاية «عبد الملك بن مروان والقمامة السليمانية»، يذكر أن الشاعر الجاهليَّ النابغة الذبيانيَّ كان حاضراً في مجلس عبد الملك بن مروان، يستمع إلى حكاية القمامة السليمانية التي يرويها طالب بن سهل للخليفة عبد الملك<sup>(2)</sup>. وهذا خطأ تاريخي واضح، لأنَّ النابغة الذبيانيَّ توفيَّ سنة 604م<sup>(3)</sup>، أي قبل هجرة النبيِّ محمد (ص) إلى المدينة سنة 622م، في حين أنَّ الخليفة عبد الملك بن مروان ولد سنة 26هـ/646م<sup>(4)</sup>، وبُويع له بالخلافة في مدينة دمشق في شهر رمضان سنة 65هـ/685م<sup>(5)</sup>. فكيف يستطيع الشاعر النابغة أن يكون حاضراً في مجلس الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان؟

(1) المَطْهَرَةُ: إناء يُطَهَّر به.

- المنجد في اللغة، مادة: طهر، ص 474.

(2) ألف ليلة وليلة، 4/25.

(3) عن/ضيف، د.شوقي: العصر الجاهلي، دار المعارف بمصر، القاهرة، الطبعة السابعة، 197م، ص 275.

(4) المنجد في الأعلام، ص 453.

(5) الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك: تحفة ذوي الألباب فيمن حكم بدمشق من الخلفاء والملوك والنواب، تحقيق إحسان خلوصي وزهير الصمصام، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، طبعة 1991م، القسم الأوَّل، ص 115.

### ج - ملامح شخصية الخليفة عمر بن عبد العزيز

لا تختلف شخصية الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز (99 - 101هـ/717 - 720م)، كما صورتها ألف ليلة وليلة عمّا جاء في المصادر التاريخية التي ذكرت هذه الشخصية. ويبدو أنّ هذا الخليفة كان يتمتّع بمزايا إنسانية وأخلاقية عالية، جعلته مثلاً مضيئاً للخليفة العادل الذي كرّس حياته لرفع راية الحق والدفاع عن المظلومين من مستضعفي أمّته. ومن هنا فإنّ مزاياه الإنسانية والجمالية أهّلته لأن يكون أفضل خلفاء بني أمية وأعدّهم قاطبة، وربما أفضل خلفاء الدولة العباسية أيضاً. وقد سئل محمد بن علي بن الحسين<sup>(1)</sup> عن الخليفة عمر بن عبد العزيز فقال<sup>(2)</sup>: «هو نجيب بني أمية، وأنه يُبعث يوم القيامة أمّة وحده».

ويصوّره الراوي في حكاية وحيدة من حكايات ألف ليلة وليلة، وهي حكاية «الملك عمر التّعمان وولديه شرّكان وضوء المكان»، بصورة الزاهد الصالح السورع الذي عمل على مرضاة الله، وسلك مسلكاً مغايراً للخلفاء الأمويين قبله، فلم يشر على حساب رعيّته، ولم يُعرف عنه أنّه كان لاهياً أو مبدّراً أو فاجراً كغيره من بعض الخلفاء الذين سبقوه، بل رأى هذا الخليفة أنّ من أهمّ واجبات الحاكم، أن يكون عادلاً في تعامله مع رعيّته، لا يفرّق بينهم، ولا يؤثّر أقرباءه على بقية أفراد الرعيّة، وأن يوزّع أموال بيت المال على المسلمين كافة، وقد عمل على تحقيق هذه القناعة بشكل عمليّ وصارم، فما كان منه إلاّ أن عمد إلى مصادرة أموال أهل بيته الأموي، الكثيرة جداً، والتي أخذوها استبداداً وسطوة من أموال المسلمين، ما أغضب هؤلاء فذهبوا إلى عمّته فاطمة بنت مروان، يطلبون منها أن تدخل عليه وتتوسّط عنده، ليكفّ عن قبض أموالهم، إلاّ أنّه رفض، وصمّم على مصادرة الأموال تمهيداً لإصلاح ما أفسده الخلفاء قبله، واقتداءً بسيرة النبيّ محمد(ص)

(1) محمد بن علي بن الحسين: (محمد بن علي زين العابدين ابن الحسين بن علي بن أبي طالب (محمد الباقر)، 57 - 114هـ/676 - 732م): الإمام الخامس للشيعة. ولد وتوفي بالمدينة. تابع توسيع مدرسة أبيه علي زين العابدين، وتخريج العلماء فيها من كلّ الأقطار الإسلامية.

- المنجد في الأعلام، ص 113.

(2) عن/الصفدي، صلاح الدين خليل بن أبيك: تحفة ذوي الألباب فيمن حكم بدمشق من الخلفاء والملوك والنواب، 147/1.

والخليفين أبو بكر الصّديق (11 - 13هـ/632 - 634م)، وعمر بن الخطّاب (13 - 23هـ/634 - 644م) يقول الراوي<sup>(1)</sup>:

«فأرسلت [عمّته فاطمة بنت مروان] إليه قائلة أنّه لا بدّ من لقائك، ثمّ أتته ليلاً فأنزلها عن دابّتها، فلما أخذت مجلسها، قال لها: يا عمّة أنت أولى بالكلام لأنّ الحاجة لك فأخبريني عن مرادك؟ فقالت: يا أمير المؤمنين أنت أولى بالكلام ورأيك يستشفّ ما يخفى عن الإفهام فقال عمر بن عبد العزيز: إنّ الله تعالى قد بعث محمداً صلّى الله عليه وسلّم رحمة للعالمين وعذاباً لقوم آخرين، ثمّ اختار له ما عنده فقبضه إليه، وترك للناس نهراً يشربون منه. ثمّ قام أبو بكر خليفة بعده، فأجرى النهر مجراه وعمل ما يرضي الله، ثمّ قام عمر بعد أبي بكر فعمل خير أعمال الأبرار واجتهد اجتهاداً ما يقدر أحد على مثله. فلما قام عثمان اشتقّ من النهر نهراً ثمّ ولي معاوية فاشتقّ الأنهار ثمّ لم يزل كذلك يشتقّ منه يزيد وبنو مروان كعبد الملك والوليد وسليمان حتى آل الأمر إليّ فأحببت أن أردّ النهر إلى ما كان، فقالت قد أردتّ كلامك ومذاكرتك فقط، فإن كانت هذه مقالتك فلست بذاكرة لك شيئاً».

ونلاحظ أنّ هذه الصّورة النبيلة لهذا الخليفة العادل لا تتكرّر كثيراً في حكايات ألف ليلة وليلة، فهو يكاد يكون الوحيد بين الخلفاء الأمويين والعباسيين، الموصوف بالعدل والورع، والذي لا يمالئ ظالماً أو متجبراً، ولا يخاف في الحقّ لومة لائم. وإذا كان الخليفة عمر بن عبد العزيز أراد أن يصلح ما أفسده بعض الخلفاء قبله، أو أن يردّ النهر إلى ما كان عليه على حدّ تعبيره، فإنّ إرادته هذه كانت نتيجة رئيسة لانحراف النظام الأموي عن الأخلاقيات التي دعا إليها الإسلام، فقد عمد الخلفاء الأمويون إلى مخالفة الشريعة الإسلامية، «وحوّلوا الخلافة إلى ملك وراثي استأثر به أفراد البيت الأموي الذين انصرف معظمهم إلى حياة الترف والمجون كيزيد بن معاوية ويزيد بن عبد الملك والوليد بن عبد الملك وغيرهم ممن

(1) ألف ليلة وليلة، 1/310.

كانوا يؤثرون معاقره الخمر والانغماس في اللهو والاستمتاع بالموسيقى على متابعة إقرار العدالة وتنفيذ واجباتهم الشرعية»<sup>(1)</sup>.

ويبدو أن السياسة الإصلاحية التي بدأ الخليفة عمر بن عبد العزيز بانتهاجها، لإعادة ترتيب ما أفسده البيت الأموي أضرت بمصالح الطبقة الثرية في دمشق، وهشمت من طموحاتها في الاختلاس والثراء والتحكم باقتصاد الدولة وأموالها، فقد قرّر أن يكون أول اهتماماته في هذا الترتيب ردّ المظالم وإعطاء كل ذي حقّ حقه. ويُروى عنه أنه عندما تولّى الخلافة: «مكث شهرين مقبلاً على بنته<sup>(2)</sup> وحزنه لما ابتلي به من أمور الناس. ثم أخذ في النظر في أمورهم وردّ المظالم إلى أهلها، حتى كان همه بالناس أشدّ من همه بأمر نفسه، فعمل بذلك حتى انقضى أجله»<sup>(3)</sup>.

لقد عمل الخليفة عمر بن عبد العزيز - تاريخياً - جاداً على إلغاء السياسة المالية الجائرة التي سنّها الخلفاء قبله، والتي كانت تشكّل انتهاكاً صارخاً لتعاليم الإسلام، إذ كانت هذه السياسة تفرض الجزية على من أسلم من الموالي، وتتفنن في فرض ضرائب جديدة عليهم لم ترد لها أصول في الشريعة، يُضاف إلى ذلك الهدايا التي فرضَ على الرعية تقديمها للخلفاء والولاة والعمّال في عيدي النيروز والمهرجان<sup>(4)</sup>. ويبدو أن هذا الإلغاء قد أسهم في إثارة حفيظة أصحاب السطوة والتفوذ من بني أمية، ما دفعهم إلى التخلص منه، فقد «قيل إنّ بني أمية سقوه سمّاً لما شدّد عليهم، وانتزع كثيراً ممّا في أيديهم»<sup>(5)</sup>.

إنّ معالم الصورة العادلة لهذا الخليفة، التي شكّلها راوي الحكاية، تتناصّ مع الخلفيات المرجعية الإسلامية التي تحدّثت وأرّخت لفصول من سيرة عمر بن عبد العزيز، ودوره في تخفيف سياسية الجور التي كرّسها خلفاء بني أمية قبله. وقد قام

(1) إسماعيل، د. محمود: الحركات السرية في الإسلام - رؤية عصرية، دار القلم، بيروت، الطبعة الأولى، آب/أغسطس 1973م، ص 62.

(2) البث: أشدّ الحزن.

(3) أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم: كتاب الخراج، ص 16.

(4) إسماعيل، د. محمود: الحركات السرية في الإسلام - رؤية عصرية، ص 63 - 64.

(5) الصفدي، صلاح الدين خليل بن أبيك: تحفة ذوي الألباب فيمن حكم بدمشق من الخلفاء والملوك والنواب، 146/1.

راوي الحكاية بإسقاط أبعاد هذه الصورة على الواقع السياسي والاجتماعي الذي عاصرته الرعية في عهد الخليفة. يقول الراوي<sup>(1)</sup>: «قال بعض الثقات كنت أحلب الغنم في خلافة عمر بن عبد العزيز فمررت براعٍ فرأيت مع غنمه ذئباً أو ذئباً فظننت أنها كلابها، ولم أكن رأيت الذئب قبل ذلك، فقلت: ماذا تصنع بهذه الكلاب؟ فقال: إنها ليست كلاباً بل هي ذئاب في غنم لم تضربها؟ ثم قال: إذا صلح الرأس صلح الجسد!». وها هو الخليفة عمر بن عبد العزيز يعلن أمام أفراد رعيته الذين لحقهم الجور من بعض ولاته، أنه بريء مما أصابهم من جور هؤلاء الولوة، ويدعوهم إلى رفض جورهم، وإلى عدم طاعتهم حتى يرجعوا إلى الحق. ويثبت الراوي هذه الرسالة التي وجهها الخليفة إلى رعيته من الحجاج في أحد مواسم حجهم. تقول الرسالة<sup>(2)</sup>: «أما بعد فإني أشهد الله في الشهر الحرام ويوم الحج الأكبر، إني أبرأ في ظلمكم وعدوان من اعتدى عليكم أن أكون أمرت بذلك أو تعمّدت، أو يكون أمر من أموره بلغني وأحاط به علمي، وأرجو أن يكون لذلك موضع من الغفران، ألا أنه لا أذن مني بظلم أحد، فإني مسؤول عن كلّ مظلوم، ألا وأيّ عامل من عمالي زاغ من الحقّ وعمل بلا كتاب ولا سنة فلا طاعة له عليكم حتى يرجع إلى الحقّ».

ومن خلال الوحدة السردية السابقة يمكن القول: إنّ هذا الخليفة العادل كان يدعو إلى تأسيس مبدأ محاسبة أجهزة الدولة، ومحاربة الفساد في دواوينها ومؤسساتها، داعياً أفراد رعيته للحدّ من سطوة ولاته، والمتنفّذين من رجال سلطته، والامتناع عن طاعتهم فيما إذا تجاوزوا القوانين الناظمة لعلاقتهم مع رعاياهم.

لقد كان الخليفة عمر بن عبد العزيز حريصاً على انتقاء عمّاله وولاته المشهود لهم بالسيرة الحميدة، وذلك تأسيساً على سياسة العدل التي انتهجها وأراد لها أن تعمّ ولايات الدولة الإسلامية، وكان مستعداً لأن يعزل الولوة الذين ينحرفون عن نهج هذه السياسة، فها هو يطلب من أحد رجاله المسافرين إلى العراق أن يسأل

(1) ألف ليلة وليلة، 311/1.

(2) م. ن، 311/1 - 312.

أهله عن سيرة ولاته وسياستهم فيهم. يقول الرجل<sup>(1)</sup>: «فلما كان يوم ودّعته قلت: يا أمير المؤمنين حاجتك أوصني بها. قال: حاجتي أن تسأل أهل العراق وكيف سيرة الولاة فيهم ورضاهم عنهم؟ فلما قدمت العراق سألت الرعيّة عنهم فأخبرت بكلّ خير عنهم. فلما قدمت عليه سلّمت عليه وأخبرته بحسن سيرتهم في العراق وثناء الناس عليهم، فقال: «الحمد لله على ذلك لو أخبرتني عنهم بغير هذا عزلتهم ولم أستعن بهم بعدها أبداً. إنّ الراعي مسؤول عن رعيّته فلا بدّ له من أن يتعهّد بكلّ ما ينفعهم الله به ويقربّه إليه، فإنّ من ابتلي بالرعيّة فقد ابتلي بأمر عظيم»».

وتؤكد سيرة هذا الخليفة العادل، كما يروي راوي الحكاية السابقة، نزاهته وعدله وزهده، ومحافظته على أموال بيت المسلمين، ورفضه إعطاء أولاده ما يثريهم أو يزيدهم مكانة مالية، وبطراً سلطوياً، على غيرهم من أفراد رعيّته، حتى أنّه أفقر أولاده مرضاةً لربّه، ولم يوص لهم بشيء، ولم يترك لهم مالاً، أو قطاعات زراعية كغيره من الخلفاء قبله فهو يرفض أن يقوِّبهم على معصية الله. يقول الراوي<sup>(2)</sup>:

«قدمت على أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز وهو خليفة فرأيت بين يديه اثني عشر درهماً فأمر بوضعها في بيت المال، فقلت: يا أمير المؤمنين إنّك أفقرت أولادك وجعلتهم عيالاً لا شيء لهم، فلو أوصيت لهم بشيء وإلى من هو فقير من أهل بيتك؟ فقال ادن منّي، فدنوت منه، فقال: أمّا قولك أفقرت أولادك فأوص إليهم أو إلى من هو فقير من أهل بيتك فغير سديد، لأنّ الله خليفتي على أولادي وعلى من هو فقير من أهل بيتي وهو وكيل عليهم، وهم ما بين رجلين: إمّا رجل يتقي الله فسيجعل الله له مخرجاً، وإمّا رجل معتكف على المعاصي فإنّي لم أكن لأقويه على معصية الله، ثم بعث إليهم وأحضرهم بين يديه وكانوا اثني عشر ذكراً، فلما نظر إليهم ذرفت عيناه بالدموع، ثم قال: إن أباكم ما بين أمرين: إمّا أن تستغنوا

(1) أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم: كتاب الخراج، ص 119.

(2) ألف ليلة وليلة، 1/312.

فيدخل أبوكم النار، وإما أن تفتقروا فيدخل أبوكم الجنة، ودخول أبيكم الجنة أحب إليه من أن تستغنوا، قوموا قد وكلت أمركم إلى الله».

لقد وعى الخليفة عمر بن عبد العزيز أن المال يفسد الضمائر والذمم والأخلاق، وأن الانشغال به وجمعه يبعد العبد عن ربه، وأن كنزه والاستئثار به في الحياة الدنيا، لا يعني إلا مزيداً من عذاب يوم الآخرة، تأسيساً على النص القرآني الكريم:

«... وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ \* يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنْزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ»<sup>(1)</sup>. ووعى أن المال يشوّه العلاقة الإنسانية بين من يملكونه، وبين من يفتقدون إليه، وأن المال يعمل على إفساد الحكام والولاة، ويغرقهم في اللهو والانقياد للملذات والمعاصي، والابتعاد عن هموم شعوبهم في آن، فما كان منه إلا أن أبعده أولاده عن السقوط في دائرة شهوة امتلاكه، تاركاً أمر فقرهم إلى الله لأن الله هو الخليفة على أولاده وأهل بيته كما يقول راوي الحكاية، وقد طبّق أيضاً سياسة الابتعاد عن لوثة المال ودائرة سطوته على ولاته وعمّاله، وأمر ولاته بأن يقتصدوا في إنفاقه بوصفه ملكاً للمسلمين جميعاً. ويروى أن واليه على المدينة أبا بكر بن حزم<sup>(2)</sup> كتب إليه: «إن رأى الأمير أن، يقطع لي من الشمع والقراطيس ما كان يقطع لعمال المدينة؛ فكتب إليه: جاءني كتابك وإنّ عهدي بك تخرج من بيتك في الليلة الظلماء بغير سراج. وأمّا القراطيس فأدقّ القلم، وأوجز الإملاء، واجمع الحوائج في صحيفة»<sup>(3)</sup>.

ومن مظاهر زهد الخليفة عمر بن عبد العزيز وتواضعه أنّه رفض حين مرضه الشّدِيد أن يصنعوا له متكاً مريحاً ليستريح عليه خوفاً من أن يلقي الله،

(1) سورة التوبة، آية: 34، 35.

(2) هو أبو بكر بن محمد بن عمر بن حزم، وُلِدَ حوالي سنة 40هـ (661م)، ومات سنة 120هـ (738م)، وعيّنهُ عمر بن عبد العزيز والياً على المدينة.

(3) الآبي، أبو سعيد منصور بن الحسين: نثر الدرّ، 281/1.

وفي عنقه إثم صناعة هذا المتكأ، لأنّه رأى أنّ تكاليف صناعته ستؤخذ من بيت مال المسلمين، وهذا ما لا يرضاه، وهو الحريص على مال المسلمين. يقول الراوي<sup>(1)</sup>: «قال له مَسَلَمَة<sup>(2)</sup> [بن عبد الملك] يا أمير المؤمنين لو عملنا لك متكأً لتقعد عليه قليلاً! فقال: أخاف أن يكون في عنقي منه إثم يوم القيامة». في حين أنّ الخلفاء الأمويين قبله كانوا منغمسين في كلّ ألوان الملذّات والتّرف، والثراء الفاحش<sup>(3)</sup>.

وتثبت سيرة عمر بن عبد العزيز - التاريخية - أنّه كان من أكثر الناس تواضعاً وتقتشفاً في مأكله وملبسه، حتى أنّ تواضعه في ملبسه بدا كأنّه أسطورة. ويُروى عنه أنّه: «خرج يوم الجمعة إلى الصلاة وقد أبطأ، فقال: أيّها الناس؛ إنّما بطّأني عنكم أنّ قميصي هذا كان يُرْفَع (...). ولا والله ما أملك غيره»<sup>(4)</sup>، مع ملاحظة أنّ الخليفة سليمان بن عبد الملك (96 - 99هـ/715 - 717م) - الخليفة الذي كان قبله - كان غارقاً في نعيم الدّنيا ومسرّهاها. ويُروى أنّه «كان هُماً» ومن شدّة هُمه: «أنّ الطّباخ كان يأتيه بالشّواء فلا يصبر حتى يبرّد فأخذه بكمه»، ويُروى أنّه «لبس يوماً حلّة خضراء وعمامة خضراء ونظر في المرآة فقال: أنا الملك الفتي»<sup>(5)</sup>.

ومن شدّة تواضع الخليفة عمر بن عبد العزيز أنّه كان يخطب بين الناس ويحمد الله ويثني عليه، وذلك من فوق منبر من الطين، كما تؤكد ليالي ألف ليلة وليلة<sup>(6)</sup>، في حين أنّ الخلفاء الأمويين قبله كانوا يتشبهون بالملوك، ويصلّون داخل المقاصير خوفاً من الاغتتيال، وكانوا يحضرون إلى المسجد وقد ارتدوا الثياب البيضاء،

(1) ألف ليلة وليلة، 311/1.

(2) مَسَلَمَة بن عبد الملك: (مسلمة بن عبد الملك بن مروان، ... - 120هـ/.../738م): أمير وقائد أموي من الكسبار. غزا بلاد الروم في دولة أخيه الخليفة سليمان بن عبد الملك. ولأه أخوه يزيد العراقي ثم أرمينية. توفي بالشام.

(3) لمزيد من الاطلاع على مكونات هذا الترف، يُنظر: ابن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، ص 55.

(4) الآبي، أبو سعيد منصور بن حسين: نثر الدرّ، 283/1.

(5) ابن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية، ص 128.

(6) ألف ليلة وليلة، 311/1.

والعمائم البيضاء المرصعة بالجواهر، ويصعدون المنبر لإلقاء خطبة الجمعة، ويبد الخليفة منهم الخاتم والعصا، وهما شارتا الملك<sup>(1)</sup>.

ونظراً للمكانة العالية التي احتلها هذا الخليفة العادل في نفوس بعض معاصريه، من إعجاب وتقدير عظيمين، نجد أن الراوي في ألف ليلة وليلة يشكّله حلماً جميلاً يحضر وبعد وفاته، وقد نال مرتبة خالدة عند ربّه، تليق بأفعاله النبيلة في فترة خلافته. فها هو مسلمة بن عبد الملك في الحكاية يحدّد هذه المرتبة قائلاً<sup>(2)</sup>: «فلما مات حضرت دفنه فحملتني عيني فرأيتة فيما يرى النائم في روضة فيها أنهار جارية وعليه ثياب بيض، فأقبل عليّ وقال يا مسلمة لمثل هذا فليعمل العاملون».

#### د - ملامح بعض الشخصيات السلطوية الأخرى في ألف ليلة وليلة

يؤسّس كثير من رواة ألف ليلة وليلة لمجمل من المفاهيم التي تکرّسها السّلطة، ومن هذه المفاهيم: ضرورة الطّاعة المطلقة للملك أو الحاكم الذي يتمتّع بسلطة مطلقة، فالحاكم في الليالي هو حاكم مستبدّ، وما على الرعيّة إلا أن تقدّم له الطّاعة بحجرة. ويلاحظ أنّ هؤلاء الرواة يعمّمون مفهوم الطّاعة على جميع العلاقات بين بني البشر في مدن الليالي، وبين المخلوقات الأخرى من الطيور والحيوانات في ما بينها، فلا مجتمع، مهما كان صغيراً بلا سلطة، سواء أكان مجتمعاً إنسانياً أم حيوانياً، إذ تقوم المخلوقات داخل هذه المجتمعات على تنظيم نفسها في جماعات توكل أمرها لواحد منها لتصبح محكومة حكماً مطلقاً. وليس شرطاً في، بعض الأحيان، أن يكون حاكم هذه الجماعات واحداً من أفرادها، بل يمكن أن يكون إنساناً عارفاً وخبيراً وحكيماً، ففي حكاية «حاسب كريم الدين وملكة الحيّات»، نجد أنّ ملك الطيور هو الشّيخ المؤمن نصر الذي تمنحه العناية الإلهية قدرة وسطوة على الطيور التي تستجيب لأوامره، باعتباره ملكاً عليها<sup>(3)</sup>. وهناك ملك الوحوش شاه بدري، وهو ملك من ملوك الجان، تأتيه الوحوش طائعة<sup>(4)</sup>، إلا أنّه من الملاحظ أنّ جميع

(1) حسن، د. حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، 1/437.

(2) ألف ليلة وليلة، 1/311.

(3) ألف ليلة وليلة، 3/336.

(4) م. ن، 3/368.

الطّيور والحيوانات والجان وملوكها تنصاع في المحصّلة الأخيرة للإنسان الذي هو السّيّد المطلق، والذي ينصاع بدوره لسلطة الإله في السّماء. هذا الإنسان السّيّد الذي يمتلك من أسرار العلوم والمعارف والسحر مفاتيح كثيرة تؤهّله لأن يكون ذا سلطة على كلّ من حوله، فالرّاهب يغموس الذي يساعد البطل جانشاه للوصول إلى قلعة «جوهر تكي» - حيث تقيم محبوبته في حكاية «حاسب كريم الدين ومملكة الحيّات» - ينزوي داخل كنيسة ليغيب فيها، «وقد أطاعته جميع الطّيور والوحوش والجان من كثرة أقسامه، لأنّه ما زال يتلو الأقسام على ملوك الجان حتى أطاعته قهراً عنها من شدّة تلك الأقسام والسّحر الذي عنده، وجميع الطيور والوحوش تسير إلى خدمته»<sup>(1)</sup>.

ولقد اعتاد الناس في مدن ألف ليلة وليلة أن يسيروا دائماً إلى خدمة الأقوى، وأن يتجنّبوا غضبه وبطشه، سواء أكان خليفة أم أميراً أم والياً، أم تابعاً لواحد من هؤلاء. وقد قدّمت ألف ليلة وليلة كثيراً من الخلفاء والملوك والأمراء والقادة والوزراء والحكّام ورجال السّلطة الأقوياء باختلاف مواقعهم السلطوية، سواء أكانوا عادلين أم ظلمة، وأبرزت بعضاً من صفاتهم وملامح حياتهم، فالحكّام الواقعيّون المعروفون تاريخياً، والذين ذكرتهم الليالي، هم الخلفاء الراشدون: أبو بكر الصّدّيق<sup>(2)</sup>، وعمر بن الخطّاب<sup>(3)</sup>، وعثمان بن عفّان<sup>(4)</sup>، وعلي بن أبي طالب<sup>(5)</sup>، وبعض خلفاء الدولة الأموية: معاوية بن أبي سفيان<sup>(6)</sup>، وعبد الملك بن مروان<sup>(7)</sup>، والوليد بن عبد الملك<sup>(8)</sup>، وعمر بن عبد العزيز<sup>(9)</sup>، وهشام بن عبد الملك<sup>(10)</sup>،

(1) م. ن، 369/3.

(2) ألف ليلة وليلة، 310/1.

(3) م. ن، 305/1؛ 308؛ 61/3.

(4) م. ن، 30/1، 310.

(5) م. ن، 305/1.

(6) م. ن، 306/1؛ 412/2.

(7) م. ن، 404/2؛ 24/4، 52، 93.

(8) م. ن، 403/2.

(9) تمت الإشارة إليه في صفحات سابقة.

(10) م. ن، 312/1؛ 404/2.

وبعض خلفاء الدولة العباسية: هارون الرشيد<sup>(1)</sup>، ومحمد الأمين بن هارون الرشيد<sup>(2)</sup>، وعبد الله المأمون بن هارون الرشيد<sup>(3)</sup>، والمتوكل على الله بن المعتصم<sup>(4)</sup>. وقدّمت الليالي خليفة واحداً من الخلفاء الفاطميين في مصر، وهو الحاكم بأمر الله<sup>(5)</sup> (منصور بن العزيز)، كما قدّمت من الملوك: الملك الفارسي كسرى أنوشروان<sup>(6)</sup>، والملك المملوكي محمد بن قلاوون (الناصر)<sup>(7)</sup>. وذكرت بعض الأمراء والقادة المسلمين: الأمير موسى بن نصير<sup>(8)</sup>، والأمير عبد العزيز بن مروان<sup>(9)</sup>، والأمير معن بن زائدة<sup>(10)</sup>، والأمير خالد بن عبد الله القسري<sup>(11)</sup>، والقائد طارق بن زياد<sup>(12)</sup>. ومن الولاة الذين احتفت بهم الليالي احتفاءً خاصاً الوالي الحجّاج بن يوسف الثقفي<sup>(13)</sup>. ومن أهم الوزراء الذين ذكرتهم الليالي الوزير جعفر البرمكي، وزير الخليفة هارون الرشيد<sup>(14)</sup>.

وذكرت ألف ليلة وليلة بعض الأنبياء والقديسين: سليمان بن داود<sup>(15)</sup>، وعيسى بن مريم<sup>(16)</sup>، ومحمد بن عبد الله<sup>(17)</sup>، والخضر<sup>(18)</sup>، بالإضافة إلى ذلك فقد

(1) سبقت الإشارة إليه.

(2) م. ن، 88/1؛ 171/3.

(3) سبقت الإشارة إليه.

(4) م. ن، 129/3.

(5) م. ن، 82/3، 169.

(6) م. ن، 158/3.

(7) م. ن، 114/3؛ 445/4.

(8) م. ن، 50/4.

(9) م. ن، 26/4.

(10) م. ن، 400/2.

(11) ألف ليلة وليلة، 5/3.

(12) م. ن، 403/2.

(13) ستتم الإشارة إليه بالتفصيل في الصفحات القادمة.

(14) م. ن، 89/1 - 90، 204؛ 433/2. ومواضع أخرى كثيرة توجد في كل الحكايات التي ذكرت الخليفة هارون الرشيد.

(15) م. ن، 338/3؛ 24/4، 185، 188، 217.

(16) م. ن، 316/3.

(17) م. ن، 364/1، وفي مواضع كثيرة جداً.

(18) م. ن، 382/3؛ 51/4.

ذكرت كثيراً من الحكّام والملوك غير المعروفين، كالمملك عمر النعمان<sup>(1)</sup>، والمملك شمس الدولة<sup>(2)</sup>، ومعروف الإسكافي<sup>(3)</sup>، وجودر ابن التاجر عمر<sup>(4)</sup>، وحكّام المدن المتخيّلة المنسوجة من خيال رواة ألف ليلة وليلة، الذي هو في المحصلة الوعي الجمعي والحضاري المعرفي لذاكرة شعوب مدن ألف ليلة وليلة وثقافتها وخرافاتها وأساطيرها.

وإذا كانت الليالي قد قدّمت بعض هؤلاء الخلفاء والحكّام في صورة الحاكم العادل، فإنّها اجترأت على حكّام آخرين - وهم كثر - وأدانتهم، واعتبرتهم أعداءً حقيقيين لشعوبهم، إلاّ أنّه من الملاحظ أنّ أهمّ ملمح يلتقي فيه حكّام الليالي: خلفاء وملوكاً أو وزراء وولادة، هو ملمح المستبدّ الطّاغي الذي يرى نفسه إلهاً متوجّحاً على مجموع من الرّعاع، الذين يجب عليهم طاعته طاعة مطلقة، هذا الطّاغي الذي يبيح لنفسه أن يعيث فيهم فساداً وتخريباً وبطشاً ونهباً لأموالهم وممتلكاتهم، ونسائهم الجميلات.

إنّنا في ألف ليلة وليلة أمام سلطة متجبرّة وباطشة ومخيفة وحضورها طاغٍ في كل حيّ وبيت، ولها هيبتها المطلقة على كل أفراد شعوبها. والملامح الآتية التي صوّرها رواة ألف ليلة وليلة، تشير إلى أي مدى كان رجال السّلطة طغاة ومستبدّين، سواء أكانوا مسلمين أم مسيحيين أم يهوداً.

## - 1 -

في حكاية «المملك مع المرأة الجميلة» - لا يذكر الراوي اسم المملك ولا المرأة ولا اسم مدينته - تنفجر رغبة أحد ملوك الليالي مسعورة لامتلاك إحدى نساء رعاياه امتلاكاً جنسيّاً، وتقول الحكاية: إنّ أحد ملوك ألف ليلة وليلة خرج متنكراً ليطلّع على أحوال رعيتّه، وعندما وصل إلى قرية عظيمة، أحسّ بالعطش، فدخلها

(1) م. ن، 242/1، وما بعدها.

(2) م. ن، 78/4، وما بعدها.

(3) م. ن، 370/4، وما بعدها.

(4) م. ن، 53/4، وما بعدها.

منفرداً، ووقف بباب دار من دور القرية، وطلب ماءً، فخرجت إليه امرأة جميلة متزوّجة، وقد حملت إليه الماء، وما إن شرب وارتوى، حتى افتتن بها، فراودها عن نفسها، فما كان من المرأة الجميلة التي عرفت أنّ الذي يراودها هو ملك المدينة، إلاّ أن خافت سطوته، فأدخلته إلى دارها وأجلسته، وأخرجت له كتاباً، وطلبت منه أن ينظر الكتاب ريثما تتزيّن وتصلح شأنها استعداداً لتلبية رغبته الجنسيّة، «فجلس يطالع في الكتاب وإذا فيه الزّجر عن الزّنا وما أعدّه الله لأهله من العذاب، فاشعرّ جلده وتاب إلى الله وصاح بالمرأة وأعطاهما الكتاب، وذهب»<sup>(1)</sup>.

وتحكى المرأة لزوجها الفقير ما جرى لها مع الملك، فيخاف الزوج من أن يقترب من زوجته، لأنّ الملك رغب بها جنسيّاً. فسطوة الملك بالرّغم من مغادرته القرية، لا تزال حاضرة في نفوس رعاياه البسطاء، لأنّ هؤلاء الرّعايا يعرفون إلى أي مدى يكون ملكهم قاسياً وطاغية، ومالكاً لأدوات القهر، ويعرفون أنّ ما يطمح إليه هذا الملك في ممتلكاتهم، لا بدّ من أن يحصل عليه، سواء بالرضى أم بالقهر. ومن هنا فإنّ الرجل البسيط، زوج المرأة الجميلة، عجز على المستوى النفسي من الاقتراب من زوجته، بعد أن أعلن الملك رغبته فيها. وبعد أن تراجع أيضاً عن هذه الرّغبة، وتاب إلى الله، ظلّ هذا الزوج ممتنعاً عن زوجته، فأعلمت المرأة أقاربها بما حصل لها مع زوجها، فذهبوا إلى الملك شاكين هذا الزوج، عندها أكّد لهم الملك أنّ لا رغبة له في قريبتهم، وأنّه لن يقترب منها ثانية، وما على الزوج إلاّ أن يشعر بالأمان، ويعود إلى زوجته: «فقال الملك [للزوج]: ما الذي يمنعك من زرع أرضك؟ فقال: أعزّ الله الملك أنّه بلغني أن الأسد قد دخل الأرض، فهبته ولم أقدر على الدّنو منها، لعلمي أنّه لا طاقة لي بالأسد وأخاف منه. ففهم الملك القصّة، وقال له: يا هذا إنّ أرضك لم يطأها الأسد وأرضك طيّبة الزّرع فازرعها، بارك الله لك فيها، لأنّ الأسد لن يعدو عليها»<sup>(2)</sup>.

وإذا كان الراوي في هذه الحكاية أشار إلى أنّ الملك لا يعرف ما أعدّ الله للزّاني من عقاب، وأنّ الملك عفّ عن المرأة بعد أن عرف هذا العقاب، فإنّ متلقّي

(1) ألف ليلة وليلة، 187/3.

(2) م. ن، 188/3.

الحكاية يجد نفسه غير مقتنع بما قاله هذا الراوي الذي يقدم الملك بطلاً سلطوياً جاهلاً بأبسط قوانين الأخلاق، ولا يعرف ما هي عقوبة الزنى، وما يتعرّض له الزاني من عقاب شديد، وسيتساءل هذا المتلقّي: كيف يكون ذلك، ولا سيما أنّ الملك هو حامي حمى السلطتين التشريعية والتنفيذية، وأنّه يعدّ نفسه نائباً عن الله في الأرض، ومسؤولاً عن أمن المواطنين وسلامتهم؟ وسيقول: من غير المعقول أن يكون هناك ملك لا يعرف حدود الزنى مهما كان جاهلاً.

ويبدو من الطبيعيّ، ومن داخل التركيبة الذهنية والمعرفية لحكّام الليالي، وأمام رغبة هؤلاء الحكّام العارمة بالتعددية الجنسية من خلال امتلاك النساء الكثيرات ووطئهنّ، أن يراود الملك في هذه الحكاية امرأة أحد رعاياه، بوصفها امرأة جميلة ومثيرة، لكن من المستهجن والجهل الفاحش أن لا يعرف هذا الملك أنّ الزنى حرام، وأنّ الله أعدّ له عذاباً شديداً إلاّ بعد أن تقدّم له هذه المرأة كتاباً يزجر الناس عن فعل الزنى، ويمكن القول وبشكل عام: إنّ ملوك ألف ليلة وليلة ليسوا هيّابين من رعاياهم، ولا يخشون الله إذا ما زنوا وعربدوا وشربوا الخمر، وظلموا وقتلوا مواطنيهم، فالشغل الشاغل للملوك والأمراء، ولبعض الخلفاء - كما يؤكده رواية آخرون - هو الزنى والعريضة، واصطياد النساء والجواري، واستنفاذ طاقتهم الجنسية بشكل طقوس يومية ومتكرّرة<sup>(1)</sup>.

## - 2 -

وفي حكاية «الملك عمر النعمان وولديه شركان وضوء المكان»، يلوح وجه الملك عمر النعمان، الطاغية المستبدّ الذي يقول عنه الراوي: إنّ «كان لا يصطلى بنار، ولا يجاريه أحد في مضمار»<sup>(2)</sup>. هذا الطاغية الذي تُهدى إليه الجوّاري من بلاد الروم<sup>(3)</sup>، والذي يبدو غادراً لا وفاء له، وعبداً لشهواته الجنسية، ولا يعصمه

(1) لمزيد من الاطلاع ينظر: ألف ليلة وليلة، 186/1، 198، 246، 264؛ 411/4، 416.

(2) ألف ليلة وليلة، 242/1.

(3) م. ن، 264/1.

دين ولا خلق إذا ما فارت دوافعه الجنسيّة، وها هو يعشق أبريزة ابنة ملك الروم، المرأة التي يحبّها ولده الأمير شركان، ويعي شركان أطماع والده في جميع النساء الجميلات اللواتي يشاهدنّ، فيحذّر عشيقته ابريزة من أن تقع في حباله لأنّه طمّاع، لكنّ المرأة الوفيّة تؤكّد له أنّها لن تحبّ غيره، وإذا ما فكّر والده عمر النعمان بالاعتداء عليها، فإنّها ستقتل نفسها: «فقلت اعلم يا شركان أنّ أباك ما له حكم عليّ ولا يقدر أن يأخذني بغير رضاي وإن كان يأخذني غصباً قتلت روحي»<sup>(1)</sup>، إلا أنّ عمر النعمان الذي اعتاد أن تُهدى إليه الجوّاري، وأن يصل إلى كلّ امرأة يشتهيها، قرّر أن ينال من المرأة الجميلة أبريزة - عشيقته ابنة شركان - بالتودّد أو بالاغتصاب، ولا يهّمه الطريفة التي يسلكها للوصول إليها، سواء أكانت طريفة مشروعة، ووفق ما تقتضيه أخلاقيات الزواج الكريم، أم اغتصابيّة وفق ما تقتضيه أخلاق الطّغاة الاستبداديين، ما يهّمه جسدها - بالدرجة الأولى - أمّا الوسائل التي تؤدّي إلى الحصول على هذا الجسد، فلتكن كيفما كانت، نبيلة أم وضيعة.

لقد حاول عمر النعمان، في البداية، الوصول إلى أبريزة باللطف والتودّد وإظهار الكرم: «أمّا ما كان من أمره مع الملكة أبريزة، فإنّه اشتغل بحبها، وصار ليلاً ونهاراً مشغولاً بها، وفي كل ليلة يدخل إليها ويتحدّث عندها ويلوّح لها بالكلام، فلم تردّ له جواباً، بل تقول له يا ملك الزمان أنا في هذا الوقت ما لي غرض في الرجال، فلما رأى تمنّعها منه اشتدّ به الغرام وزاد عليه الوجد والهيام، فلما أعياه ذلك أحضر وزيره دندان وأطلعه على ما في قلبه من محبّة، الملكة أبريزة ابنة الملك حردوب، وأخبره أنّها لم تدخل في طاعته وقد قتله حبّها ولم ينل منها شيئاً»<sup>(2)</sup>. وسيخطّ الوزير دندان لملكه حيلة يتمكّن بها من الوصول إلى جسد ابريزة شاءت أم أبت، ومكوّنات هذه الحيلة: الشّراب المسكر، والبنج الثّقيل الذي يوضع في هذا الشّراب، ومائدة ملكيّة عليها فاخر الأطعمة والنّقل والفواكه، تشعّ تحت أضواء الشّموع، مثلها مثل كل موائد ألف ليلة وليلة السلطوية، عندها لن

(1) م. ن، 272/1.

(2) ألف ليلة وليلة، 274/1.

تستطيع أبريزة أن تحمي جسدها، وهي تحت سطوة الحمرة، من سعار عمر النعمان الشّقيّ، ولن يستطيع هو أن يكبح جماح هذا السّعار أو أن يرتدع خوفاً ممّا أعدّه الله لأهل الزّنى من العقاب، كما فعل الملك السّابق في حكايته مع المرأة الجميلة التي راودها عن نفسها، بل سيغتصبها وهي نائمة. يقول الراوي<sup>(1)</sup>:

«وصار يشرب معها وينادمها إلى أن دبّ السّكر في رأس الملكة أبريزة. فلمّا رأى عمر النّعمان ذلك أخرج قطعة البنج من جيبه وجعلها بين أصابعه، وملاً كأساً بيده وشربه وملاً ثانياً وأسقط قطعة البنج من يده فيه وهي لا تشعر بذلك، ثم قال خذي اشربي هذا، فأخذته الملكة أبريزة وشربته. فما كان إلاّ دون ساعة حتى تحكّم البنج فيها وسلب إدراكها. فقام إليها فوجدها ملقاة على ظهرها. وكانت قد قلعت السّراويل من رجليها ورفع الهواء ذيل قميصها عنها. فلمّا دخل عليها الملك ورآها على تلك الحالة ووجد عند رأسها شمعة وعند رجليها شمعة تضيء على ما بين فخذيهما، طار عقله، ووسوس له الشّيطان فما تملك نفسه حتى قلع سراويله ووقع عليها وأزال بكارتها».

وإذا كان راوي الحكاية قد رأى أنّ الشّيطان وسوس لعمر النعمان بأن يفترس أبريزة، عندما رأى ما بين فخذيهما، فإنّ الرّؤية ليست دقيقة تماماً، لأنّ عمر النّعمان كان قد صمّم على افتراس أبريزة قبل أن يراها عارية، وقبل أن يستعين بوزيره دندان ليرسم له خطة الافتراس، إذ تشير الحكاية إلى أنّ سعار عمر النّعمان الجنسيّ قد انفجر منذ التّظرة الأولى التي شاهد فيها أبريزة - عشيقه ابنه شركان - التي قدّمها له ولده الأمير شركان، إذ إنّّه عندما شاهدها «تعجّب من فصاحتها (...) وأمرها بالجلوس فجلست وكشفت عن وجهها، فلما رآها الملك خبلت عقله، ثم إنّّه قرّبها إليه وأدناها منه وأفرد لها قصراً مختصاً بها وجواريهما، ورثب لها وجواريهما الرواتب»<sup>(2)</sup>.

(1) م. ن، 274/1 - 275.

(2) م. ن، 271/1.

لقد اعتدى الملك عمر النعمان على عشيقته ابنه وضيفته الملكة أبريزة اعتداءً جنسياً أجبرها في ما بعد على أن ترضخ له، وتبقى في قصره زوجة بالإكراه، لا تختلف عن آية جارية مجبرة على العيش في قصره، سواء بالامتلاك أو بالسبي، أو بالشراء أو بالإهداء، وأذلها وأفقدتها كرامتها ومكانتها السامية، باعتبارها ملكة وابنة ملك. يقول الراوي<sup>(1)</sup>: «فاغتمت لذلك غمّاً شديداً وحجبت نفسها، وقالت لجواربها امنعوا كل من أراد الدخول عليّ وقولوا له إنّها ضعيفة حتى أنظر ماذا يفعل الله بي، فعند ذلك وصل الخبر إلى الملك عمر النعمان بأنّ الملكة أبريزة ضعيفة، فصار يرسل إليها الأشرطة والسكر والمعاجين، وأقامت على ذلك شهوراً وهي محجوبة. ثم إنّ الملك بردت ناره وانطفأ شوقه إليها». وعلى الرغم من الاعتداء الجنسي على الملكة أبريزة الضيفة نجد أنّ الراوي لم يدين عمر النعمان بأية إشارة، ولم يُظهره بموقف التادم، أو المعتذر للمرأة المهانة، بل إنّه، وبعد أن نال منها جنسياً ينطفئ شوقه إليها، ويهملها، ولا يعودها في مرضها، فتصبح أقلّ منزلة من آية حظية من حظاياها.

وفي موضع آخر من الحكاية نجد أنّ هذا الراوي يتعاطف مع جنود الملك عمر النعمان وقادته، في صراعهم مع الروم، معتبراً أنّ هذا الصراع هو إعلاء لراية الحقّ، وكسر لشوكة الفساد. يقول<sup>(2)</sup>: «ثم انطبقت عساكر الإسلام على الروم وأحاطوا بهم من جميع الأقطار وجاهدوهم حقّ الجهاد وكسروا شوكة الكفر والعناد والفساد». وهنا يمكن أن يتساءل متلقّي الحكاية: ألا يعني اغتصاب الملك عمر النعمان المسلم للملكة أبريزة الرومية - غير المسلمة - والاحتيال عليها بواسطة البنج والخمرة إعلاء لشوكة الكفر والظلم والعناد والفساد - بمفردات الراوي - والتي يرفعها هذا الملك في الدولة الإسلامية، ويقهر بها كل من يعارضه، إشباعاً لنزواته الجنسيّة؟ هذا إذا عرفنا أنّ هذه المرأة الجميلة - الملكة أبريزة - كانت مثلاً للوفاء، إذ أنقذت ولده شركان من مائة بطريق من قومها كادوا يفتكون به، عندما عرفوا أنّه ابن عدوهم عمر النعمان<sup>(3)</sup>، وأحبّته وأكرمته، و«ولاقته وأخذته

(1) ألف ليلة وليلة، 275/1.

(2) م. ن، 364/1.

(3) م. ن، 260/1.

بالأحضان»<sup>(1)</sup>، وتركت أهلها وقومها، وفضلته عليهم، وسافرت معه، هي وجواربها، إلى بغداد للزواج به<sup>(2)</sup>. ويمكن أن يتساءل: أليست أخلاق الملوك المسلمين في الليالي وأفعالهم، والذين يتعاطف الرواة معهم، أخلاقاً دونية وضيفة، وتزداد وضاعة أمام جسد المرأة الجميل، وتبتعد عن الأخلاق والتعاليم الإسلامية في جوهرها التبيل؟ هذه الأخلاق التي حرّمت فعل الزنى، واعتبرته فاحشة، وحصّت على عقوبة مرتكبيه، تأسيساً على الخطاب القرآني الكريم: «وَلَا تَقْرُبُوا الزَّانِيَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا»<sup>(3)</sup>، و«الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيَشْهَدُ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ»<sup>(4)</sup>. وتأسيساً على الأحاديث النبوية الشريفة: عن أنس قال: قال رسول الله (ص): «إِنَّ الْإِيمَانَ سُرْبَالٌ يَسْرِبُهُ اللَّهُ مِنْ يَشَاءَ، فَإِذَا زَنِى الْعَبْدُ نَزَعَ اللَّهُ مِنْهُ سُرْبَالَ الْإِيمَانِ، فَإِنْ تَابَ رُدَّهُ عَلَيْهِ». وجاء عن النبي (ص) أنه قال: «يا معشر المسلمين اتقوا الزنى فإن فيه ستّ خصال، ثلاث في الدنيا وثلاث في الآخرة، فأما التي في الدنيا: فذهاب بهاء الوجه وقصر العمر ودوام الفقر، وأما التي في الآخرة فسخط الله تبارك وتعالى وسوء الحساب والعذاب بالنار». وقال رسول الله (ص): «ما من ذنب بعد الشرك بالله أعظم عند الله من نطفة وضعها رجل في فرج لا يحلّ له»<sup>(5)</sup>. وتأسيساً على آراء الفقهاء الإسلاميين التي تجتهد متخيلة ما سيكون للزاني من عقوبات كبيرة يوم القيامة، إذ تؤكد هذه الآراء على «أنّ من وضع يده على امرأة لا تحلّ له بشهوة جاء يوم القيامة مغلوله يده إلى عنقه، فإن قبلها قرضت شفتاه في النار، فإن زنى بها نطقت فحذه وشهدت عليه يوم القيامة، وقالت: أنا للحرام ركبت، فينظر الله تعالى إليه بعين الغضب، فيقع لحم وجهه فيكابر، ويقول: ما فعلت فيشهد عليه لسانه فيقول: أنا بما لا يحلّ

(1) م. ن، 262/1.

(2) م. ن، 270/1.

(3) سورة الإسراء، آية: 32.

(4) سورة النور، آية: 2.

(5) عن/الذهبي، شمس الدين: كتاب الكبائر، دار الهجرة، بيروت/دمشق، الطبعة الأولى 1407هـ/1987م،

نطقت، وتقول يدها: أنا للحرام تناولت، وتقول عيناه: أنا للحرام نظرت، وتقول رجلاه: أنا لما لا يحلّ مشيت، ويقول فرجه: أنا فعلت، ويقول الحافظ من الملائكة: وأنا سمعت، ويقول الآخر: وأنا كتبت ويقول الله تعالى: وأنا اطّلت وسترته. ثم يقول الله تعالى: يا ملائكتي خذوه ومن عذابي أذيقوه، فقد اشتدّ غضبي على من قلّ حياؤه مني»<sup>(1)</sup>.

وفي هذه الحكاية - حكاية عمر النعمان - يتعاطف الراوي مع أولاد عمر النعمان، ويضعهم في غير منزلتهم الحقيقيّة، فهو يقول عن: «قضي فكان» ابنة الملك شركان: «كانت أحسن أهل زمانها وأشجعهم لأنّها كانت صاحبة تدبير وعقل ومعرفة بعواقب الأمور» مع العلم أنّها في الثامنة من عمرها<sup>(2)</sup>. ويقول عن ابن عمّها «كان ماكان» ابن الملك ضوء المكان: «إنّه كان مولعاً بمكارم الخلاق»، وهو أيضاً لم يتجاوز الثامنة<sup>(3)</sup>. فكيف لهذا الراوي أن يُقنع متلقّي الحكاية بهذه الإيديولوجيا الملكيّة التي يروّج لها؟. إنّ متلقّي الحكاية سيتساءل: هل يستطيع ابن الثامنة الذي لم يتعدّ مرحلة الطفولة بعد أن يجمع هذه المزايا الناضجة؟ فهل لأنّه ابن ملك سيكون قادراً على تحطّي الزمان والمكان، وخارقاً للمألوف، وسباقاً إلى الفضائل ومكارم الأخلاق؟

ومن يقرأ ليالي ألف ليلة وليلة جيّداً سيكتشف أنّ السلطة في كثير من هذه الليالي ليست سلطة أصحاب العقل والمعرفة والخبرة، الذين يتمتّعون بمكارم الأخلاق، بل هي سلطة أصحاب الحظّ والمصادفات الغرائبية التي تقدّفهم من دون أسباب معروفة إلى سدّة الحكم، وأحياناً سلطة الرجال الذين هم على قدر كبير من الغباء والجهل، ويساهم في وجود الأغبياء والمستبدّين على رأس السلطة في مدن ألف ليلة وليلة التعيين العشوائي لحكّام هذه المدن من قبل الحكّام المركزيين، هذا التعيين الذي لا يقوم على مدى ما يعرفه الوالي الجديد المعيّن، بفنون الحرب والفروسية والحكم وفنّ السياسة، وصفات الحاكم العادل، كما تشير إلى ذلك

(1) م. ن، ص 54.

(2) ألف ليلة وليلة، 81/2.

(3) م. ن، 81/2.

حكاية «عمر النعمان وولديه شركان وضوء المكان»، إذ نرى أنّ الوقاد الذي جلب ضوء المكان من القدس إلى بغداد كان مجرد وقاد في إحدى حمّامات القدس ولا علاقة له بالسياسة من قريب أو من بعيد، وعندما يصل إلى بغداد مع ضوء المكان، يطلب منه ضوء المكان أن يتمنى أي أمنية يحققها له، ومهما كانت عظيمة، اعترافاً بجميله معه، لأنّه رافقه من القدس إلى بغداد: «والله لو طلبت منّي مهما أردت لأعطيتك إياه فتمنّ علي الله (...) لو تمنّيت نصف مملكتي لشاركتك فيها فتمنّى ما تريد»<sup>(1)</sup>. ولأنّ الراوي يعرف قدرات بطله الوقاد، ومكانته الاجتماعية الدنيوية في مجتمع ملكي طبقي مكرّس لخدمة الأقوياء، وذوي الطبقات العليا، ويعرف أنّ الوعي الجمعي للفقهاء في هذا المجتمع قد تواضع على اعتبار مهنة بطله من المهن الدنيوية الخسيسة<sup>(2)</sup>، فقد رفض أن يتمنى له أمنية بعيدة المنال، بل تمنّى له أمنية تتناسب مع مكانته الاجتماعية، والمهنية التي يمارسها، ورأى أنّ هذه الأمنية التي تمنّاها له هي عظيمة، وهي الغاية القصوى التي يمكن أن يصل إليها، إن حقّقها له الملك ضوء المكان. وها هو الراوي يعلن عن أمنية بطله العظيمة: «تمنّيت عليك أن تكتب لي مرسوماً بعرفة جميع الوقادين الذين في مدينة القدس (...)، [أو] أن تجعلني رئيس الزبّالين في مدينة القدس أو في مدينة دمشق»<sup>(3)</sup>. لكنّ الملك ضوء المكان يرفعه إلى أعلى المناصب ويعيّنه والياً على دمشق<sup>(4)</sup>. فهذا الوقاد يبدو في النسق الحكائي فاقداً لجميع المزايا التي تؤهله لأن يكون والياً، لأنّه «قد غلظ وسمّن من الأكل والراحة، وصار عنقه كعنق الفيل وبطنه كبطن الدرفيل، وصار طائش العقل لأنّه كان لا يخرج من المكان الذي هو فيه»<sup>(5)</sup>، فكيف للراوي أن يستطيع إقناع المتلقي بأنّ تعيين هذا الوقاد والياً على دمشق، هو من الحكمة، ومن مكارم الأخلاق، التي يتمتّع بها ضوء المكان، وبخاصّة إذا كان هذا الوقاد طائش

(1) ألف ليلة وليلة، 79/2.

(2) زيادة، د. خالد: "الخسيس والنفيس - الفئات الاجتماعية في المدينة الإسلامية"، مجلة الفكر العربي، العدد التاسع والعشرون، تشرين الأوّل/أكتوبر، تشرين الثاني/نوفمبر 1982م، ص 155.

(3) ألف ليلة وليلة، 79/2.

(4) م. ن، 79/2.

(5) ألف ليلة وليلة، 78/2.

العقل، ووالياً على مدينة مركزية من مدن الدولة الإسلامية، وفيها عدد غير قليل من الحكماء والعقلاء والفقهاء؟ فعلى الحاكم - كما يرى أحد رواة ألف ليلة وليلة - أن يتقن فن السياسة، وأن يكون ذا فراسة وأن يكون قادراً على إنصاف الناس وضبط أمورهم. يقول هذا الراوي<sup>(1)</sup>: «فالإمارة ينبغي لها السياسة التامة والفراسة الصادقة، لأن الإمارة مدار عمار الدنيا التي هي الطريق إلى الآخرة (...)، [و الناس بحاجة] إلى سلطان لأجل أن ينصف بينهم ويضبط أمورهم ولولا ردع الملك عن بعضهم لغلب قويهم ضعيفهم». ويتابع قائلاً<sup>(2)</sup>: «وقد دلت الشرائع والعقول على أنه يجب على الناس أن يتخذوا سلطاناً يدفع الظالم عن المظلوم، وينصف الضعيف من القوي، ويكف بأس العاتي والباغي. واعلم أيها الملك على قدر حسن أخلاق السلطان يكون الزمان فإنه قد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: شيطان في الناس إن صلحوا صلح الناس وإن فسدا فسد الناس، العلماء والأمراء».

وينقل هذا الراوي ما قاله بعض الحكماء في صفات الملوك الأخيار، وأهم الخصال التي يجب أن تتوفر فيهم، حتى يكونوا قادرين على نشر العدل، وفي صفات الملوك الأشرار المنقادين لأهوائهم. يقول<sup>(3)</sup>: «وقد قال بعض الحكماء: الملوك ثلاثة: ملك دين وملك محافظة على الحرمات وملك هوى، فأما ملك الدين فإنه يلزم رعيته باتباع دينهم وينبغي أن يكون أدينهم لأنه هو الذي يقتدى به في أمور الدين ويلزم الناس طاعته فيما أمر به موافقاً للأحكام الشرعية، (...) وأما ملك المحافظة على الحرمات فإنه يقوم بأمور الدين والدنيا ويلزم الناس باتباع الشرع والمحافظة على المروءة ويكون جامعاً بين العلم والسياف، فمن زاغ عمّا سطر القلم زلت به القدم، فيقوم اعوجاجه بحد الحسام وينشر العدل في جميع الأنعام، وأما ملك الهوى فلا دين له إلا اتباع هواه، ولم يخش سطوة مولاه الذي ولاه، فمآل ملكه إلى الدمار ونهاية عتوه إلى دار البوار».

(1) م. ن، 302/1 - 303.

(2) م. ن، 303/1.

(3) م. ن، 303/1.

- 3 -

تشير نصوص ألف ليلة وليلة، التي تتناصّر مع الأدبيّات والخلفيّات الإسلامية والتاريخية للدولة الإسلامية، إلى أنّ كثيراً من الخلفاء والملوك والأمراء الذين ذكّرتهم هذه النصوص كانوا غير عادلين، وغير ورعين، وغير أبرار بشعوبهم، إنهم فجرة حقيقيون وباطشون<sup>(1)</sup>، وغادرون لؤماء<sup>(2)</sup>. وتضع هذه النصوص المتلقّي أمام شعوب مهزومة، مستكينة لخلفائها وملوكها وأمرائها وأولادهم وقادتهم العسكريّين، الفسقة واللصوص والمجرمين<sup>(3)</sup>. وإذا كان رواة ألف ليلة وليلة قد أشاروا إلى فحور هؤلاء الحكّام، فإنّهم وقفوا عاجزين عن الدّعوة إلى تغيير هؤلاء الحكّام أو الحدّ من جورهم، تأسيساً على قول الرّسول الكريم (ص)<sup>(4)</sup>: «من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان». وهنا يمكن القول: إنّ الخليفة أو الملك ليس جديراً بالسلطة إن لم يكن عادلاً وعاقلاً، وعاقفاً عن أموال المسلمين وأعراضهم، وقادراً على الخروج على الظلمة شاهراً سيفه، داعياً لإعلاء سلطة الحق<sup>(5)</sup>.

إنّ السلطة أو الحكومة تختلف أشكالها باختلاف الغاية التي ترمي إليها، فالحكومات تُعدّصالحة متى كانت غايتها خير المجموع، وتعدّ فاسدة متى توخّى الحكّام مصالحهم الخاصّة<sup>(6)</sup>. وتأسيساً على ثنائية الصّلاح والفساد التي تحكم من خلالها الحكومات الصّالحة أو الفاسدة، يمكن أن تُعيّن أشكال هذه الحكومات كما يأتي، واستناداً إلى رأي أرسطو<sup>(7)</sup>:

(1) لمزيد من الاطلاع يُنظر: ألف ليلة وليلة، 46/2.

(2) لمزيد من الاطلاع يُنظر: م. ن، 106/2.

(3) م. ن، 186/1، 275، 357/3.

(4) القشيري، أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم: صحيح مسلم، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده، القاهرة، دون تاريخ، الجزء الأول، ص 50. مع ملاحظة أنّ بقية الأحاديث النبوية الكريمة الواردة في هذه الأطروحة، غير موجودة في صحيح مسلم، وغير موجودة في صحيح البخاري.

(5) عمارة، د. محمد: نظرية الخلافة، ص 54.

(6) نادر، د. ألبير نصري: في شرح كتاب "أبو نصر الفارابي - كتاب الجمع بين رأيي الحكيمين"، ص 40.

(7) عن/م. ن، ص 40.

الحكومات الفاسدة	الحكومات الصالحة
1 - الطغيان	1- الملكية
2 - الأوليغركية	2 - الأرستقراطية
3 - الديماغوغية	3 - الديموقراطية

ووفق رأي أرسطو<sup>(1)</sup> فإنّ الملكيّة هي «حكومة الفرد الفاضل العادل. والأرستقراطية حكومة الأقلية الفاضلة العادلة والديموقراطية حكومة الأغلبية الفقيرة، تمتاز بالحرية والمساواة (...). أمّا الطغيان فهو حكومة الفرد الظالم، والأوليغركية حكومة الأغنياء والأعيان، والديماغوغية حكومة العامة تتبع أهواءها المتقلّبة».

وبالعودة إلى نصوص ألف ليلة وليلة، ومقارنة حكومات مدنها بالحكومات العادلة التي حددها أرسطو - آنفة الذكر - سنجد أنّها تتباين عن هذه الحكومات تبايناً كبيراً، فالملكية في مدن الليالي لا يمكن أن تكون حكومة الفرد الفاضل العادل، لأنّ نصوص ألف ليلة وليلة تشير إشارات جريئة وواضحة إلى أنّ الملك أو السلطان في غير حكاية هو ظالم غشوم ومتجبر ومعتد على أموال الناس وأعراضهم ومرتش، فعلى سبيل المثال نجد أنّ الملك الغيور والد الملكة بدور في حكاية «قصر الزمان مع الملكة بدور»، «جائر ظلوم وقاهر غشوم»<sup>(2)</sup>، والملك عمر النعمان دكتاتور ومستبدّ وقاهر «وإذا غضب يخرج من منخرية لهيب النار»<sup>(3)</sup>، والملك شمس الدولة ملك مصر ملك ظالم، إذا غضب «طار عقله من رأسه»<sup>(4)</sup>، ولا يتوانى في الاعتداء على الناس، واغتصاب أموالهم، فها هو يأمر وزيره بالذهاب إلى قصر جودر بن عمر ليقبض على ماله، ثم ليقتله. يقول لوزيره<sup>(5)</sup>: «يا وزير أرسل لهم أميراً بخمسين رجلاً يقبضون عليه وعلى أخويه ويضعون الختم على ماله ويأتون بهم لأقتلهم، فقال له الوزير احلم فإنّ الله حلیم لا يعجل على عبده إذا عصاه». وما كان الملك قادراً على الحلم، ومستمعاً إلى نصيحة وزيره، لا في هذه الحكاية

(1) عن/نادر، د. ألبير نصري: في شرح كتاب "أبو نصر الفارابي - كتاب الجمع بين رأيي الحكيمين"، ص 40.

(2) ألف ليلة وليلة، 2/227.

(3) م. ن، 1/242.

(4) م. ن، 4/83.

(5) م. ن، 4/84.

ولا في حكايات أخرى. أمّا الأمير قمر الزّمان ابن الملك شهرمان فهو أمير أهوج لا يرمى حرمة لأحد من أفراد مملكته، مهما علا قدره، حتى ولو كان وزير أبيه. يقول الراوي<sup>(1)</sup>: «ثم إن قمر الزمان قام من وقته وتقدّم إلى الوزير وقبض لحيته، وكانت لحيته طويلة، فأخذها قمر الزّمان ولّفها على يده، وجذبه منها فرماه من فوق السّريّر وألقاه على الأرض، فأحسّ الوزير أنّ روحه طلعت من شدّة نفث لحيته. وما زال قمر الزّمان يرفس الوزير برجليه ويصفعه على قفاه بيديه حتى كاد أن يهلكه، فقال الوزير في نفسه (...). إنّه مجنون لا شكّ في جنونه».

ولقد وعى وزراء ألف ليلة وليلة أنّهم أمام ملوك وأمراء طائشين وفسقة، وحمقى، وفاقدين لعقولهم في بعض الأحيان، فعمد هؤلاء الوزراء إلى طاعتهم طاعة مطلقة، وإلى التّحاييل عليهم اتّقاءً لشُرّهم وبطشهم. وقد وعت النساء الأميرات جنون هؤلاء الأمراء ومدى بطشهم، واندفاعهم الأهوج، فاستسلمن لهم طائعات راضيات. يصوّر الراوي هوج أحد أولاد الملوك قائلاً<sup>(2)</sup>: «وبينما هم في لعب وانسراح، إذ هجم ابن الملك على ذلك الخادم ولطمه لطمه فبطحه وأخذ السيف من يده وهجم على الجوّاري اللاتي مع ابنة الملك فشتمتهنّ يميناً وشمالاً، فلمّا نظرت ابنة الملك إلى حسنه وجماله (...). أقبلت عليه وعانقته وقبّلته ورقدت هي وإياه».

أمّا الحكومة الأرستقراطية في مدن الليالي فهي ليست حكومة الأقلّيّة الفاضلة العادلة، بل هي حكومة الأقلّيّة المستبدّة، التي يدير دفتها مجموعة من الأمراء والولاة الظّلمة وقادة الجيوش البطرون المستأثرون بخيرات البلاد وفيئها، والذين يجيزون لجنودهم أن ينهبوا المدن التي يصلون إليها: «ثم إنّ الملك كفيد خرج بالعساكر والجيوش وسار حتى وصل إلى أطراف بلاد كابل (...). ولما وصلوا إلى تلك البلاد نهبوها وفسقوا في الرّعية وذبحوا الكبار والصغار»<sup>(3)</sup>.

أمّا حكومة الديموقراطية في ألف ليلة وليلة، فلا وجود لها، لأنّ الغالبيّة من شعوب مدنها مهمّشة، ولا قرار سياسي لها، وتعيش فقراً أسود، ويبدو حضورها،

(1) م. ن، 242/2.

(2) ألف ليلة وليلة، 91/3.

(3) م. ن، 357/3.

هو الآخر، مهمّشاً في ألف ليلة وليلة، لأنّ الرواة يركّزون بالدرجة الأولى على حياة الملوك والخلفاء والأمراء والوزراء والجواري الحظايا، والنساء الجميلات. ومن ممثلي هذه الغالبية الغائبة المهمّشة: جودر ابن التاجر عمر ومعروف الإسكافي، وذلك قبل أن يصبح ملكين، والسندباد البرّي الحمال الذي يعيش حياة الدلّ والفاقة، في بغداد الثريّة البطرة، الغارقة في أوج ازدهارها المالي، في عهد الخليفة هارون الرشيد. وها هو يقف مدهوشاً أمام قصر السندباد البحري، مناجياً ربّه، ومستغرباً من حدّة التباينات الطبقيّة في مجتمعه البغدادي: «سبحانك يا ربّ يا خالق يا رازق ترزق من تشاء بغير حساب، اللهم إني أستغفرك من جميع الذنوب وأتوب إليك من العيوب، يا ربّ لا اعتراض عليك في حكمك وقدرتك فإنّك لا تُسأل عمّا تفعل وأنت على كل شيء قدير، سبحانك تغني من تشاء وتفقر من تشاء وتعزّز من تشاء وتذلّ من تشاء، لا إله إلاّ أنت، (...). وقد حكمت في خلقك بما تريد وما قدرته عليهم، فمنهم تعبان ومنهم مستريح»<sup>(1)</sup>.

#### - 4 -

ولا يتوانى بعض رواة ألف ليلة في أن يسخروا برجال السّلطة السياسية والدّينيّة، ويغمزوا بأخلاقهم، فهذا هو أحد الرواة يسخر بأمر الحجاجّ وذلك في حكاية «الحشاش مع حريم أحد الأكابر»، إذ تشير الحكاية إلى أنّ أحد الحشاشين كان قد زنى بزوجة رجل مهمّ من رجال السّلطة، وقد بدت و«كأنّها قضيب بان، كاملة الحسن في الظّرف والدّلال»<sup>(2)</sup>، وذلك بعد أن دعتّه إلى قصرها في غياب زوجها - انتقاماً من هذا الزوج السلطوي الثريّ الذي زنى بإحدى جواريها في مطبخ القصر - ثم صرفته إلى حال سبيله، ووعدته بأنّها ستعود وتزني، إن عاد زوجها وزنى بالجارية: «ثم قالت: فمتى وقع زوجي على الجارية أو رقد معها مرّة أخرى أعدتك إلى ما كنت عليه معي»<sup>(3)</sup>.

(1) ألف ليلة وليلة، 3/396 - 397.

(2) م. ن، 2/421.

(3) م. ن، 2/425.

وعندما أتى أوان الحجّ ذهب الحشّاش ليحجّ، وهنالك في الكعبة وقف يدعو ربّه، «وهو يقول من صميم قلبه: أسألك يا الله أنّها تغضب على زوجها وأجامعها»<sup>(1)</sup> وبينما هو يدعو ربّه سمعه جماعة من الحجّاج فأشبعوه ضرباً، وأخذوه إلى أمير الحجّ، وفي محضر أمير الحجّ يحكي الرجل الحشّاش للأمير قصّته مع المرأة التي زنى بها، وبدلاً من أن يعاقبه أمير الحجّ، لأنّه انتهك فضاءً يُعدّ من أهمّ الفضاءات المقدّسة عند المسلمين، ودعا الله من قدسية هذا الفضاء أن يتحقّق له فعل الزنى بالمرأة الزانية، فإنّ هذا الأمير عندما يسمع قصّته لا يعفو عنه فحسب، بل يطلب من الحاضرين أن يدعوا الله معه لكي يستطيع تحقيق فعل الزنى: «فلما سمع أمير الحجّ قصّة الرجل أطلقه وقال للحاضرين: بالله عليكم أن تدعوا له فإنّه معذور»<sup>(2)</sup>.

ومن هنا يمكن القول: إنّ القيم الإسلامية والإنسانية التي يدّعي الأمراء في ألف ليلة وليلة صونها وزرعها في نفوس رعاياهم، ومعاينة كل من يشوّهها هي قيم غير جوهرية وغير عميقة في نفوس هؤلاء الأمراء، ويمكن أن يتجاوزوها ويعفوا عمّن تجاوزها، فالزنى حرام، وفاحشة من أكبر الفواحش، لكنّ أمير الحجّ، وهو وجه مهمّ من وجوه السلّطة الإسلامية، لا يرى مانعاً من أن يزني الحشّاش بزوجة الرجل السلطوي الكبير فحسب، بل يراف بهذا الحشّاش لتعلقه بالمرأة الزانية، ويدعو له أن يحصل عليها، عندما يشكو له درجة وله بها: «ورمت قلبي من لحظها بالسّهام. [و] جرت دموعي حتى قرّحت المحاجر، ثم أنّها أمرت بخروجي من عندها. وقد تحصّل لي منها أربعمائة مثقال من الذهب. فأنا أصرف منها الآن وقد جئت إلى هنا أدعو الله سبحانه وتعالى أن يعود زوجها إلى الجارية مرّة أخرى لعلّي أعود إلى ما كنت عليه»<sup>(3)</sup>.

إنّ حكاية «الحشّاش مع حريم أحد الأكابر»، هي حكاية مروية من قبل راوٍ ساخر من رجال السلّطة، فهو يسخر من المرأة الزانية، ويسخر من زوجها، ويسخر من أمير الحجّ - ممثّل السلّطة الدينيّة - ويحتقرهم جميعاً. ويبدو أنّ السخرية

(1) م. ن، 421/2.

(2) م. ن، 425/2.

(3) ألف ليلة وليلة، 425/2.

كانت ملاذاً للرواة الشعبيين من هموم مدتهم الغارقة بالاستلاب والسطوة، والمحكومة برجال ونساء سلطة فاسدين وفسقة ومستبدّين، ويبدو أنّ غرض السخرية في النصّ الحكائي يكون - في الغالب - هجاءً مستوراً أو توبيخاً أو ازدراءً<sup>(1)</sup> لمجمل العلاقات التي تقيمها، وتتصرّف من خلالها، شخوص هذا النصّ.

ومن الولاة الذين قدّمهم ألف ليلة وليلة تقديمًا ساخرًا الحجاج بن يوسف الثقفي (40 - 95هـ/660 - 714م)، فهو ظالم غشوم، يختطف زوجات المسلمين ويقدمهنّ هدايا لسيده الخليفة عبد الملك بن مروان، كما تصوّره حكاية «نعم ونعمة»، إذ تكشف الحكاية عن امرأة جميلة اسمها «نعم»، وقد كانت زوجة لـ «نعم بن الربيع»، و«لم يكن بالكوفة جارية أحسن ولا أحلى ولا أظرف منها، وقد كبرت وقرأت القرآن والعلوم، وعرفت أنواع اللعب والآلات، وبرعت في المغنى وآلات الملاهي، حتى أنّها فاقت جميع أهل عصرها»<sup>(2)</sup> وكما يشيع خبر جميع النساء الجميلات في مدن ألف ليلة وليلة فقد شاع خبر جمال هذه المرأة في مدينة الكوفة، فيسمع بها الحجاج، ويقرّر أن يحتال عليها ويخطفها، ويقدمها هدية للخليفة الأموي عبد الملك بن مروان. ولأنّ لعجائز ألف ليلة وليلة قدرات متميزة على النصب والاحتيال، فإنّ الحجاج يلجأ إلى إحداهنّ لمساعدته في حبك الحيلة، واختطاف «نعم». يقول الراوي<sup>(3)</sup>: «ثم استدعى بعجوز قهرمانه وقال لها: امضي إلى دار الربيع واجتمعي بالجارية نعم، وتسيبي في أخذها، لأنّه لا يوجد على وجه الأرض مثلها، فقبلت العجوز من الحجاج ما قاله».

وبطبيعة الحال، فإنّ عملية اختطاف الجارية سيكون لها مكافأة مالية كبيرة يقدمها الحجاج إلى القهرمانه، وهو مستعدّ لتقديم هذه المكافأة، طالما أنّ خطف هذه الجارية سيحقق له مكافأة أهمّ، وهي زيادة حظوته عند عبد الملك بن مروان، وبالتالي تغاضي هذا الأخير عن عبث الحجاج بالمجتمع الإسلامي، وتنكيله بشرفاء هذا المجتمع، كما هو معروف تاريخياً، إذ أسرف الحجاج في قتل الناس، ولم يرحم شيوخم وهم

(1) وهبة، د. مجدي: معجم مصطلحات الأدب، ص 263. مادة: السخرية.

(2) ألف ليلة وليلة، 324/2.

(3) م. ن، 325/2.

على حافة الموت، بل أمر بضرب أعناقهم كمال فعل مع الشيخ عمير بن صابئ<sup>(1)</sup>. وقد أُحصي من قتله الحجاج بن يوسف «فوجد مائة وعشرين ألفاً، ومات وفي حبسه خمسون ألف رجل، وثلاثون ألف امرأة، (...) وكان يجبس النساء والرجال في موضع واحد، ولم يكن للحبس ستر يستر الناس من الشمس في الصيف ولا من المطر والبرد في الشتاء»<sup>(2)</sup>، مع العلم أن جميع هؤلاء القتلى والمساجين «لم يجب على أحد منهم قطع ولا قتل»<sup>(3)</sup>. ويقول راوي<sup>(4)</sup> الحكاية: «ثم إن العجوز توجهت إلى الحجاج. فقال لها: ما وراءك؟ فقالت له: إني نظرت إلى الجارية فرأيتها لم تلد النساء أحسن منها في زمانها. فقال لها الحجاج: إن فعلت ما أمرتك به يصل إليك مني خير جزيل. فقالت له: أريد منك المهلة شهراً كاملاً. فقال لها: أمهلك شهراً».

وتستطيع القهرمانه خلال هذا الشهر أن تقدم نفسها لـ «نعمة بن الربيع» وزوجته «نعم» وأسرته، على أنها مثال للزاهدة المتعبدة، الفانية عمرها في الركوع والسجود والدعاء والصوم. وعندما يتأكد كل من في الدار أنهم أمام سيّدة زاهدة، تختلي العجوز بالجارية «نعم» وتقول لها<sup>(5)</sup>: «يا سيّدي والله إني حضرت الأماكن الطاهرة ودعوت لك، وأتمنى أن تكوني معي حتى تري المشايخ الواصلين ويدعون لك بما تختارين». وتنطلي الحيلة عليها، وعلى أم زوجها، عندما كان زوجها خارج منزله، إذ تقول «نعم»<sup>(6)</sup> لأم زوجها: «سألتك بالله أن تأذني لي في الخروج مع هذه المرأة الصالحة لأتفرّج على أولياء الله في الأماكن الشريفة، وأعود بسرعة وقبل مجيء سيّدي». وأمام دهاء العجوز القهرمانه وورعها الزائف، وتوق الجارية لزيارة الأماكن الشريفة، اضطرت الأم لأن تسمح لزواج ابنها بالخروج، وما إن تخرج الزوجة «نعم» من دارها حتى تسارع القهرمانه بالاحتيال عليها، وأخذها إلى قصر الحجاج بن يوسف بالكوفة، القصر الذي تظّنه «نعم»، للوهلة الأولى،

(1) لأبشيهي: المستطرف في كل فن مستظرف، 82/1.

(2) المسعودي: مروج الذهب، 187/3.

(3) الأبشيهي: المستطرف في كل فن مستظرف، 83/1.

(4) ألف ليلة وليلة، 336/2.

(5) م. ن، 327/2.

(6) م. ن، 327/2.

مكاناً طاهراً يجتمع فيه أهل الذكر من أولياء الله الصالحين: «ثم أخذت الجارية بالحيلة وتوجهت بها إلى قصر الحجاج، وعرفته بمجيئها بعد أن أدخلتها في مقصورة، فأتى الحجاج ونظر إليها، فرآها أجمل أهل زمانها ولم ير مثلها، فلما رآته نعم سترت وجهها، فلم يفارقها حتى استدعى حاجبه وأركب معها خمسين فارساً، وأمره أن يأخذ الجارية على نجيب سابق، ويتوجه بها إلى دمشق، ويسلمها إلى أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان، وكتب له كتاباً»<sup>(1)</sup>.

إن للعجائز في ألف ليلة وليلة قدرة عجيبة على المكر والاحتيال، إذ تشير حكايات الليالي إلى أن هذه العجائز اكتسبن في حياتهن، ومن خلال تعاملهن مع رجال عصرهن ونسائهن، خبرة كبيرة في اصطيد الجوارى الجميلات، وتقديمهن للرجال العشاق، مقابل مكافأة مالية. وكان الرواة جريئين عليهن، فعلى سبيل المثال نجد أن أحد الرواة يصف العجوز شواهي ذات الدواهي في حكاية «عمر النعمان وولديه شركان وضوء المكان» بالعاهرة<sup>(2)</sup>، وبـ «سيّدة العجائز الماكرة ومرجع الكهّان في الفن الثائرة»<sup>(3)</sup>. وفي حكاية «علي الزبيق المصري ودليلة الختالة ابنتها زينب النصابة»، يصف الراوي العجوز دليلة الختالة بأنها أخبت من إبليس الذي كان قد تعلّم المكر منها، فقد كانت «صاحبة حيل وخداع ومناصف وكانت تتحيل على الثعبان حتى تطلعه من وكره! وكان إبليس يتعلّم منها المكر!»<sup>(4)</sup>. والعجوز في حكاية «نعم ونعمة» متفتحة بثياب الزهاد، و«في تسييح وابتهاال وقلبها ملآن بالمكر والاحتيال»<sup>(5)</sup>.

ولا تخلو مدينة من مدن ألف ليلة وليلة من العجائز الماكرات والختالات، إلا أنه من الملاحظ أن أهم المدن الإسلامية في ألف ليلة وليلة، والتي تجد فيها هذه العجائز مرتعاً خصباً لممارسة عمليّات التّصب والاحتيال، هي بالترتيب: بغداد والقاهرة ودمشق، وبخاصّة في عهدي الدولتين الأموية والعباسية. ويمكن تفسير

(1) ألف ليلة وليلة، 327/2.

(2) م. ن، 351/1.

(3) م. ن، 357/1.

(4) م. ن، 112/4.

(5) م. ن، 325/2.

ظاهرة النَّصب والاحتيال في هذه المدن، بأنَّها كانت نتيجة لتفشي ظاهرة الطغيان والتسلُّط - في هاتين الدولتين اللتين حكمتا هاتين المدن - من جهة، وما رافق هذه الظاهرة من ظلم الحكام وفجورهم وابتعادهم عن هموم شعوبهم ومصائبها من جهة أخرى. ومن هنا كانت الحيلة، في بنيتها العميقة، حيلة ضدَّ المظالم، وضدَّ المجتمع نفسه، بجميع تشكيلاته الطبقيَّة سياسياً واجتماعياً. وتورَّط في هذه الحيلة الفقراء والأغنياء، النساء والرجال، رجال السلطة وعمامة الشعب. فالشخصية المستلبة المحرومة من لقمة عيشها تحتال لأجل هذه اللقمة، والأغنياء يحتالون لزيادة ثرواتهم، والملوك والسلاطين والخلفاء يحتالون لزيادة جواريتهم وأملاكهم، والوزراء يحتالون على ملوكهم وبناتهم الأميرات الجميلات، ونساء السلطة المتخلمات ثراءً وبطراً يحتلن لإشباع متطلباتهنَّ الجنسيَّة والمحرَّمة، ونساء التجار تحتال على أزواجهن للخروج من المنازل والوصول إلى عشاقهنَّ من الغلمان الظرفاء، والقهرمانه العجوز في حكاية «نعم ونعمة» تجد نفسها مندفعة للتورَّط في الحيلة، لأنَّها تحقِّق من خلالها امتلاك الثروة من جهة، وتأمين شرِّ السلطة السياسية وبطشها من جهة أخرى، فهي لا تستطيع أن ترفض طلب وال ظالم كالحجاج بن يوسف الثقفي.

وقد أدَّى سعار التجديد الجنسيِّ عند شخوص ألف ليلة وليلة في المدن الإسلاميَّة، في أحيان كثيرة، إلى ظهور نوع من العجائز المحتالات، والعارفات بفنون الصبوة والعشق وسعار الجسد، والمتخصِّصات في خطف النساء، إلاَّ أنَّ حيل العجائز في الليالي ليست قصديَّة، أو ليست موجودة عند هذه العجائز لأنَّ لهنَّ طاقة عجيبه على الشرِّ والمكر، وعلى تعليم إبليس فنون الحيلة كما يرى أحد الرواة، وكما أشير إلى ذلك سابقاً، بل لأنَّ المجتمع الذي عايشته هاتين العجائز هو مجتمع التباين الطبقي، ومجتمع الذكور الذي تُحرم فيه النساء من كثير من امتيازات الرجال، المجتمع الذي يلد الرجال، «أي ما يمكن أن نقول عنه، بأنَّ الرجل يلد الرجل، والذكر داخل ابنه الذكر، واسم الدَّم والمني داخل الابن، وحسب هذا النظام كانت المرأة (...) الجهييز المنحرف والثانوي»<sup>(1)</sup>. ومن هنا فإنَّ حيلة

(1) الخطيبي، د. عبد الكبير: في الكتابة والتجربة، ترجمة د. محمد برادة، دار العودة، بيروت، الطبعة الأولى

النساء بشكل عام في الليالي كانت نتيجة للبنى الاقتصادية والاجتماعية والسياسية الفاسدة، التي يشكّلها الحكّام الذكور، ورجال السّلطة الأقوياء، والتي يُؤذى منها، بالإضافة إلى النساء، الرجال الفقراء الفاقدون لجميع وسائل القوّة والملكيّة. ويرى أحد الباحثين أنّ «ظاهرة العجوز [المحتالة] في الليالي تجسيد لمعاناة الجوّاري والحرائر على حدّ سواء بكل جوانبها المضطربة مما جعل سلوكها في الليالي امتداداً للذات المحرومة فراحت تخطّط لتحقيق آمال تعينها على سحق الحرمان بسلوك كان يعتبره المجتمع السائد مقبولاً بالإضافة إلى خضوعه للوقائع اليومية في ممارسات الحياة»<sup>(1)</sup>.

وبالعودة إلى حكاية «نعم ونعمة» يُلاحظ أنّ الحجّاج لا يعمل على العبث بأمن مواطنيه في الكوفة، وتفريقهم عن أزواجهم، وتهجيرهم قسرياً عن أوطانهم، ونشر بذور الفساد، وذلك بتشجيع مفاهيم الاحتيال والاختطاف فحسب، بل هو يكذب على الخليفة عبد الملك بن مروان، ويدّعي أنّه اشترى له الجارية الجميلة «نعم» بعشرة آلاف دينار.

يقول الراوي<sup>(2)</sup>: «فتوجّه الحاجب وأخذ الجارية على هجين، وسافر بها وهي باكية العين من أجل فراق سيّدها، حتى وصلوا إلى دمشق، واستأذن على أمير المؤمنين فأذن له، فدخل الحاجب عليه وأخبره بخبر الجارية، فأخلى لها مقصورة. ثم دخل الخليفة حريمه فرأى زوجته، فقال لها: إنّ الحجّاج قد اشترى لي جارية من بنات ملوك الكوفة بعشرة آلاف دينار، وأرسل إليّ هذا الكتاب وهي صحبة الكتاب».

إنّ سلوك الحجّاج في الحكاية، وهو يخطف النساء، ويؤسّس لما يهدم القيم الإنسانية في المدينة الإسلامية، من كذب واحتيال، وتفريق بين المحبّين، وتهجير قسري لهم، ليس غريباً أو بعيداً عن مجمل مواقفه وتصرفاته التاريخية التي كانت معادية لجميع مفاهيم الحقّ والعدل، والرّحمة بالرّعيّة. وها هو يعترف بنفسه أنّ فيه كثيراً من العيوب التي تؤكّد معادتها للمفاهيم الإنسانية التي يجب أن يتحلّى بها من يصبح والياً على المسلمين، من خلال حوارهِ الآتي مع الخليفة عبد الملك بن مروان:

(1) الملاح، عبد الغني: رحلة في ألف ليلة وليلة، ص 48 - 49.

(2) ألف ليلة وليلة، 2/329 - 330.

«وقال عبد الملك بن مروان للحجاج: إنّه ليس من أحد إلاّ وهو يعرف عيب نفسه، فصّف لي عيوبك.

قال: أعفني يا أمير المؤمنين.

قال: لست أفعل.

قال: أنا لجوج لدود حقود حسود.

قال: ما في إبليس شرٌّ من هذا»<sup>(1)</sup>.

ويدين الراوي في حكاية «نعم ونعمة» جلاوزة الحجاج، وصاحب شرطته، إذ يصوّره متقاعساً عن كشف جرائم الاختطاف التي تحدث في الكوفة، ومتواطئاً مع سيّده الحجاج في التغطية على خطف «نعم» جارية «نعمة»، إذ بعد أن تُخطف الجارية يشكّ «نعمة» بأنّ الذي خطف جاريته هو صاحب الشرطة، فيتوجّه إلى داره، ويتوعّده بأنّه سيشكّوه إلى الحجاج إن لم يرجع الجارية له. يقول الراوي<sup>(2)</sup>: «ثمّ توجه إلى صاحب الشرطة فقال له: أتحال عليّ وتأخذ جاريّتي من داري فلا بدّ لي أن أسافر وأشتكيك إلى أمير المؤمنين. فقال صاحب الشرطة: ومن أخذها؟ فقال: عجوز صفتها كذا وكذا، وعليها ملبوس من الصّوف ويدها سُبحة عدد حبّاتها ألوف. فقال له صاحب الشرطة: أوقفني على العجوز وأنا أخلّص لك جاريّتك. فقال: ومن يعرف العجوز؟ فقال له صاحب الشرطة: ما يعلم الغيب إلاّ الله سبحانه وتعالى. وقد علم صاحب الشرطة أنّها محتالة الحجاج، فقال له نعمة: ما أعرف حاجتي إلاّ منك وبينك الحجاج. فقال له: امضِ إلى من شئت». إلاّ أنّ خيبة «نعمة بن الربيع» كانت شديدة عندما استمع إلى المسرحيّة الهزليّة التي افتعلها الحجاج مع صاحب شرطته، طالباً منه أن يبحث عن العجوز المحتالة، وعن الجارية «نعم»، ويعيدها إلى صاحبها: «فقال [الحجاج]: هاتوا صاحب الشرطة فنأمّره أن يفتش على العجوز. فلمّا حضر صاحب الشرطة قال له: أريد منك أن تفتش على جارية نعمة بن الربيع. فقال له صاحب الشرطة: لا يعلم الغيب إلاّ الله تعالى. فقال له الحجاج: لا بدّ أن تركب الخيل وتبصر الجارية في الطّرقات وتنظر

(1) ابن عبد ربه الأندلسي: العقد الفريد، 6/210.

(2) ألف ليلة وليلة، 2/329 - 330.

في البلدان (...). والطَّرقات وتفتَّش على الجارية. ثم التفت إلى نعمة وقال له: إن لم ترجع جاريتك دفعت لك عشر جوارٍ من دار صاحب الشرطة»<sup>(1)</sup>.

وعندما سمع «نعمة» ما قاله الحجاج، خرج يائساً وذهب إلى داره، فشاهده والده الربيع بن حاتم الذي كان من أكابر أهل الكوفة ووجهائها<sup>(2)</sup>، وخبيراً عارفاً بأخلاق الحجاج وتجاوزاته، وتواطؤ صاحب شرطته، وتغطيته لهذه التجاوزات، وتأكد أن الذي خطف زوج ابنه هو الحجاج بن يوسف الثقفي. يقول الراوي<sup>(3)</sup>: «وخرج نعمة مغموماً وقد يئس من الحياة، وكان قد بلغ من العمر أربع عشرة سنة، ولا نبات بعارضيه، فجعل يبكي ويتحب، وانزل في داره. ولم يزل يبكي إلى الصبح، فأقبل والده عليه وقال: يا ولدي إن الحجاج قد احتال على الجارية وأخذها، ومن ساعة إلى ساعة يأتي الله بالفرج من عنده، فتزايدت الهموم على نعمة وصار لا يعلم ما يقول ولا يعرف من يدخل عليه. وأقام ضعيفاً ثلاثة أشهر حتى تغيّرت أحواله ويئس منه أبواه، ودخلت عليه الأطباء فقالوا: ما له دواء إلا الجارية».

وما إن يصل «نعمة بن الربيع» إلى دمشق، لأجل البحث عن جاريته، حتى يكشف السرد الحكائي عن وجود جاريته «نعم» في قصر عبد الملك بن مروان. وهناك في قصر الخليفة تنكشف الحقيقة، وتؤكد أخت الخليفة أن الحجاج كان كاذباً في ما ادّعاه: «فقال أخت الخليفة: يا أمير المؤمنين إن هذه الواقعة هي نعم المسروقة. سرقها الحجاج بن يوسف الثقفي وأوصلها لك، وكذب فيما ادّعاه في كتابه من أنه اشتراها بعشرة آلاف دينار، وهذا الواقف هو الربيع سيدها، وأنا أسألك بجرمة آبائك الطاهرين أن تعفو عنهما وتبهما لبعضهما، لتغنم أحرهما، فإنهما في قبضتك وقد أكلا من طعامك وشربا من شرابك، وأنا الشافعة فيهما المستوهبة دمهما»<sup>(4)</sup>.

(1) ألف ليلة وليلة، 2/330.

(2) م. ن، 2/330.

(3) م. ن، 2/330.

(4) ألف ليلة وليلة، 2/341.

وتؤكد الحكاية أن الخليفة عبد الملك بن مروان عفا عنهما، ووهبها لبعضهما. وقد يتساءل متلقي الحكاية: لم تستحلف أخت الخليفة - التي لا يذكر الراوي اسمها - أباها أن يعفو عنهما؟ وما هي الجريمة التي ارتكباها حتى يعفو عنهما؟ وما جدوى هذا العفو مادام لا يوجد هناك أية جريمة؟. فبحث «نعمة» عن زوجته هو بحث مشروع، ولم يكن متجاوزاً لهيبة الخليفة وسلطاته، مادامت الجارية الأسيرة في قصره هي زوجة رجل من رعاياه كان قد ظلمه الحجاج والي هذا الخليفة. ولأن الراوي في هذه الحكاية مؤدج ضد والي الظالم الحجاج، ومتعاطف مع سيده عبد الملك بن مروان في آن، فقد رأى ضرورة أن يتحلى أمير المؤمنين بدمشق، بالحكمة والعدل، اللذين يدفعانه للعفو عن «نعمة» وزوجته «نعم». وقد اضطر أن يقول على لسان الخليفة: «لا بأس عليكما فقد وهبتكما لبعضكما»<sup>(1)</sup>. وقد غاب عن إيديولوجية هذا الراوي أن «نعمة» و«نعم» ليسا مجرمين بحق سلطة عبد الملك بن مروان وسياسته، وأن هذا العفو في المحصلة الأخيرة ليس كرمًا من الخليفة، ولا مآثرة من المآثر التي يجب أن تُذكر له، مادام المعفو عنهما مظلومين ومهجرين من قبل واليه المحتال الحجاج. ويمكن القول: إن أي رجل عادي سوي جنسيًا، ومستقيم أخلاقياً، لو وُضع موضع الخليفة عبد الملك بن مروان لكان قد تصرف مثله، وأرجع «نعم» لسيدها «نعمة».

ومن الملاحظ، أنه على الرغم من أن عبد الملك بن مروان تأكد أن واليه الحجاج قد اعتدى على حرمة المرأة «نعم» وكرامتها، وسلبها حرّيتها بالخطف، وحوّلها إلى جارية مستلبة، وهجرها قسرياً من مدينتها الكوفة، وحرّمها من زوجها «نعمة». وسبب تعاسة لهذا الزوج كادت تفتك به، واجترأ وكذب على الخليفة - على الرغم من أنه يمثل أعلى رمز سياسي سلطوي وديني في الدولة الإسلامية قاطبة، في عهد بني أمية - وعلى الرغم من كل ذلك، فإن الحكاية تنتهي من دون أن تشير أية إشارة إلى أن الخليفة عاقب واليه الحجاج على جريمته أو أدانه، أو حتى استدعاه، وسأله: لماذا ينتهك حرّيات منازل المسلمين، ويعتدي على حرّيات المواطنين في الكوفة؟. ولقد غاب عن الراوي المتعاطف مع نظام السلطة الإسلامية

المركزيّة بدمشق، والتي يمثّلها عبد الملك بن مروان، أنّ انفراج الحكاية على نهاية سعيدة، ينعم بها أبطال الحكاية: عبد الملك بن مروان، و«نعمة» و«نعم»، والطبيب العجمي الذي سافر مع «نعمة» من الكوفة إلى دمشق، حيث «أقاموا في أطيّب عيش إلى أن أتاهم هادم اللذات ومفرّق الجماعات»<sup>(1)</sup>، ليس شرطاً أن يشكّل حالة سعيدة، أو أدنى مستوى من مستويات العيش الطيب عند مواطني الكوفة الذين يتعرّضون لمزيد من ظلم الحجاج وانتهكاته لحرمت منازلهم، طالما أنّ الخليفة تجاوز عن جريمة الحجاج ولم يعاقبه عليها، وطالما أنّه ما دام قائماً على رأس السّلطة السياسية والدينيّة في الكوفة.

ويشير المؤرّخون، إلى أنّ الحجاج بقي والياً للخليفة عبد الملك بن مروان، طوال استلام هذا الأخير لمنصب خلافة المسلمين في دمشق الأموية، ولم يعزله عن العراق أو يسجنه أو يعاقبه العقاب الرادع الذي يجعله يكفّ عن أذى المسلمين وسجنهم وسفك دمائهم، على الرّغم من معرفته الأكيدة بما سببه واليه الحجاج للمسلمين من أذى ومصائب، وتقتيل وتنكيل، لأنّه هو الذي سلّطه على الناس<sup>(2)</sup>، وأطلق يده فيهم، وسمح له برمي الكعبة بالمنجنيق<sup>(3)</sup>. وربّما كان قد ألمه أسلوب القتل والتّنكيل الذي انتهجه الحجاج، لأنّه عندما بلغه أنّ الحجاج قتل الشّاعر عمران بن عصام العنزي<sup>(4)</sup> وابن الأشعث<sup>(5)</sup>، استنكر قائلاً: «قطع الله يد

(1) ألف ليلة وليلة، 2/342.

(2) الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، ص 122.

(3) م. ن، ص 123.

(4) عمران بن عصام العنزي: (... - نحو 85هـ/... - نحو 704م): خطيب شاعر، من الشّجعان. اشتهر في أيام عبد الملك ابن مروان. وخطابه بأبيات يثني بها على الحجاج. ونسبت فتنة ابن الأشعث، فأنهّم الحجاج بالانحياز إليه وطلبه حتى قتله.

- الزركلي، خير الدين: الأعلام، 71/5.

(5) ابن الأشعث: (عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندي، ... - 85هـ/... - 704م): أمير، من القادة الشّجعان، وهو صاحب الوقائع مع الحجاج الثّقفي، فقد كان قائداً من قاداته، ثم عارضه ومعه مجموعة من أصحابه، واتفقوا على نبذ طاعته، ثم بايعه أصحابه على خلع الحجاج وإخراجه من أرض العراق، وعلى خلع عبد الملك بن مروان أيضاً. نشبت بينه وبين جيوش الحجاج وعبد الملك بن مروان معارك انتصر فيها، وتمّ له ملك سجستان وكرمان والبصرة وفارس (إلا خراسان). لكنّه أهرم في النهاية وقُتل، وأرسل برأسه إلى الحجاج فأرسله هذا إلى عبد الملك بن مروان بالشام.

الحجاج»<sup>(1)</sup>. ومات عبد الملك بن مروان سنة 86هـ/705م، واستلم ابنه الوليد بن عبد الملك مقاليد الحكم، وظلّ الحجاج والياً في عهده، منتهجاً السياسة التي انتهجها في عهد أبيه عبد الملك، من سجن وترهيب وقتل، إلى أن مات سنة خمس وتسعين هجرية، في مدينة واسط العراقية<sup>(2)</sup>. وبعد موته، يتأمل الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك (96 - 99هـ/715 - 717م)، ما جرى للذين ظلمهم الحجاج، ويسأل كاتبه يزيد بن أبي مسلم بعد أن «ازدراه ونبت عينه عنه»<sup>(3)</sup>، عن مصيره قائلاً: «أتظنّ الحجاج استقرّ في قعر جهنّم أم هو يهوي فيها»<sup>(4)</sup>، ويحييه الكاتب قائلاً: «يا أمير المؤمنين، إنّ الحجاج يأتي يوم القيامة بين أخيك وأبيك، فضعه من النار حيث شئت»<sup>(5)</sup>.

إنّ الحجاج بن يوسف الثقفي في حكاية «نعم ونعمة» يظلم «نعمة» ويخطف جاريته، وصاحب شرطته يتغاضى عن هذا الظلم، والخليفة عبد الملك بن مروان يتغاضى عن ظلمهما معاً. وهكذا تتسلسل حلقات المظالم، لتتشابك فيما بينها، وتشكّل حلقة واحدة متماسكة، يستحيل على الأفراد البسطاء في مدن ألف ليلة وليلة الأموية أو العباسية، أو الأسطورية، أن يخترقوها، أو يهربوا من قبضتها. وتذكّرنا هذه الحلقة من المظالم بهذه السلسلة من الخيانات التي تتحكّم في بنية النظام الأموي، من قاعدته حتى رأسه، وتنخره وتملؤه شرّاً وفساداً، والتي يذكرها ابن عبد ربّه الأندلسي<sup>(6)</sup> قائلاً: «اطّلع مروان بن الحكم<sup>(7)</sup> على ضيعة له بالغوطة

- الزركلي، خير الدين: الأعلام، 323/3 - 324.

(1) الأصفهاني: الأغاني، 275/17.

(2) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، 187/3.

(3) الحصري، أبو إسحاق إبراهيم بن علي: زهر الآداب وثمر الألباب، 412/3.

(4) العقد الفريد، 90/5.

(5) م. ن، 90/5.

(6) م. ن، 51/1.

(7) مروان بن الحكم: (ابن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس، (2 - 65هـ/623 - 685م): هو الخليفة الأموي الرابع بعد معاوية بن أبي سفيان، وي زيد بن معاوية، ومعاوية بن يزيد، استلم الخلافة سنة 64هـ/684م، دافع عن الخليفة عثمان بن عفان، واشترك في معركة الجمل، ضبط المقاييس والموازين. مات بالطاعون في دمشق.

- المنجد في الأعلام، ص 656.

فأنكر منها شيئاً، فقال لو كيلاه: ويحك! إنني لأظنك تخونني.

قال: أفظنّ ذلك ولا تستيقنه؟

قال: وتفعله؟

قال: نعم، والله إنني لأخونك، وإنك لتخون أمير المؤمنين، وإن أمير المؤمنين ليخون الله، فلعن الله شرّ الثلاثة».

ويتفق رواية ألف ليلة وليلة، في الحكايات التي ذكرت الحجاج بن يوسف الثقفي، على أنه أهمّ ممثلي الولاة الظلمة والاستبدادين الذين ذكروهم الليالي، ورسمت ملاحظهم، تأسيساً على الأدبيات التاريخية التي ساعدت رواية الليالي على تشكيل حكاياتهم، أو نقلها بتحويرات طفيفة جداً. ففي حكاية «رجل من الحجيج مع المرأة العجوز» ينقل الراوي بعض ما قرأه من آراء الفقهاء في ضرورة وجود السلطان في الأمة، حتى ولو كان هذا السلطان جائراً، ويقول<sup>(1)</sup>: «وفي الأمثال: جور السلطان مائة سنة ولا جور الرعية بعضهم على بعض سنة واحدة، وإذا جارت الرعية، سلط الله عليهم سلطاناً جائراً، وملكاً قاهراً».

ولكي يؤكد الراوي أنّ الحجاج بن يوسف الثقفي كان جائراً في سياسته على مواطنيه في العراق، فإنه يُثبت الرأي الفقهي السابق بوصفه مدخلاً، يستطيع من خلاله أن يُثبت إيديولوجيته المعادية للحجاج، هذه الإيديولوجية التي تتبني في آن النظرية الفقهية السابقة التي دعا إليها بعض الفقهاء<sup>(2)</sup>. ومن خلال المدخل الفقهي السابق يثبت راوي الحكاية آراء الحجاج بن يوسف التي يعتمدها منهجاً له في رسم سياسته الجائرة، ومن ثمّ ليشير إلى استنكار الناس لهذه السياسة البعيدة عن تقوى الله ومرضاته: «ورد في الأخبار أنّ الحجاج بن يوسف رُفعت إليه في بعض الأيام قصة مكتوب فيها: اتق الله ولا تجر على عباد الله كلّ الجور. فلما قرأ القصة رقي المنبر وكان فصيحاً فقال: أيها الناس إنّ الله تعالى سلطني عليكم بأعمالكم فإن أنا

(1) ألف ليلة وليلة، 227/3.

(2) والتي ربّما تتبني بعض النصوص الغائبة الأخرى التي تلتقي من قريب أو من بعيد بهذه النظرية. وقد يكون منها قول الحكماء: "إمام غشوم خير من فتنة تدوم". [العقد الفريد، 14/1]. و: "إذا أراد الله بقوم خيراً استعمل عليهم العلماء (...). وإذا أراد الله بقوم بلاءً استعمل عليهم السفهاء".

متّ فأنتم لا تخلصون من الجور مع هذه الأعمال السيئة لأنّ الله تعالى خلق أمثالي خلقاً كثيراً وإذا لم أكن أنا كان من هو أكثر مني شراً وأعظم جوراً وأشدّ سطوةً كما قال الشاعر في معنى ذلك:

وما من يد إلا يد الله فوقها ولا ظالم إلا سيلى بأظلم<sup>(1)</sup>

وإذا كان الحجاج يُسوِّغ لنفسه جوره وساديته، وتنكيله بعباد الله في المدن الإسلامية التي يحكم أمرها، لأنّ هؤلاء العباد مواقف رافضة ومعادية لسياسته الدموية، فإنّ في نهاية المطاف لا يمثل إلا وجه المستبدّ الظالم، الذي يقف وراءه نظام سياسي أكثر استبداداً وظلماً منه، ليعزّز بطشه، ويسوِّغ له سياسته السادية المعادية لأفراد شعبه، فـ «الحكومة المستبدّة تكون طبعاً مستبدّة في كلّ فروعها من المستبدّ الأعظم إلى الشرطيّ إلى الفرّاش، إلى كنّاس الشوارع؛ ولا يكون كلّ صنف إلا من أسفل أهل طبقته أخلاقاً، لأنّ الأسافل لا يهتمهم طبعاً الكرامة وحسن السمعة، إنّما غاية مسعاهم ان يبرهنوا لمخدومهم بأنهم على شاكلته (...). ولهذا لا بدّ أن يكون الوزير الأعظم للمستبدّ هو اللئيم الأعظم في الأمة، ثم من دونه لؤماً وهكذا تكون مراتب الوزراء والأعوان حسب مراتبهم في التشريفات والقربى منه»<sup>(2)</sup>.

وتاريخياً تشير المصادر إلى أنّ السياسة التي كان ينتهجها الحجاج كانت تتأسّس على خطاب استبدادي قاعم، يرتكز في بنيته الأساسية على تهديد أهل العراق والتنكيل بهم، والسخرية منهم، حتى يستطيع إذلالهم وتسخيرهم، ولي هاماتهم أمام سطوة النظام السياسي الذي يمثله، فمنذ أن وصل الكوفة دخل المسجد الجامع فيها، واعتلى المنبر وخطب:

«والله إنّني لأرى رؤوساً أينعت وقد حان قطافها وإنّي لصاحبها، وإنّي لأرى الدماء تفرّق بين العمائم واللّحي، والله يا أهل العراق إنّ أمير المؤمنين نثر كنانته بين يديه، فعجم عيدانها، فوجدني أمرها عوداً

(1) ألف ليلة وليلة، 227/3 - 228.

(2) الكواكبي، عبد الرحمن: طبائع الاستبداد، ص 64 - 65.

وأصلبها مكسراً فرماكم بي، لأنكم طالما أترتم الفتنة، واضطجعتم في مرقد الضلال، والله لأنكّلن بكم في البلاد ولأجعلنكم مثلاً في كل واد، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل، وإني يا أهل العراق لا أعد إلا وفيت، ولا أعزم إلا أمضيت (...). فاستوثقوا واستقيموا واعملوا ولا تميلوا وتابعوا وبايعوا، واجتمعوا، واستمعوا، فليس مني الإهدار والإكثار وإنما هو هذا السيف»<sup>(1)</sup>.

ولقد كان الحجاج، في ما بعد، وفيما بوعد، إذ عمل السيف في أهل العراق وذبح رجالهم وشيوخهم، وسجن نساءهم واستأصل أموالهم<sup>(2)</sup>. وها هو يعترف أمام خالد بن يزيد بن معاوية<sup>(3)</sup> ذاكراً عدد الذين قتلهم كما يروي أبو الفرج الأصفهاني<sup>(4)</sup>: «قدم الحجاج على عبد الملك [بن مروان] فمرّ بخالد بن يزيد بن معاوية ومعه بعض أهل الشام، فقال الشامي لخالد: من هذا؟ فقال خالد كالمستهزئ: هذا عمرو بن العاص، فعدل إليه الحجاج فقال: إني والله ما أنا بعمرو بن العاص، ولا ولدت عمرواً ولا ولدني ولكنني ابن الغطاريف<sup>(5)</sup> والعقائل<sup>(6)</sup>، من قريش، ولقد ضربت بسيفي أكثر من مائة ألف كلهم يشهد أنك وأباك من أهل النار، ثم لم أجد لذلك عندك أجراً ولا شكراً».

(1) الأبيشي: المستطرف في كل فن مستظرف، 81/1.

(2) م. ن، 207/1.

(3) خالد بن يزيد بن معاوية: (ابن أبي سفيان، ... - 90هـ/... - 708م): حكيم قريش وعالمها في عصره. اشتغل بالكيمياء والطب والنجوم، فأثقتها وألّف فيها رسائل. وشكّ ابن الأثير في بعض نواحي علمه، فقال: "يقال: إنّه أصاب علم الكيمياء ولا يصحّ ذلك لأحد". نقل الكتب من اللسان اليوناني والقبطي إلى العربي. وهو خطيب شاعر، وفصيح جامع، جيّد الرأي، كثير الأدب، وهو أوّ من ترجم كتب النجوم والطب والكيمياء. تُوفّي في دمشق.

- الزركلي، خير الدين: الأعلام، 300/2 - 301.

(4) الأغاني، 344/17 - 345.

(5) الغطاريف: مفردتها غطريف: الشاب الظريف، السخي، السيد، المحسن.

- المنجد في اللغة، مادة: غطر، ص 554.

(6) العقائل: مفردتها عقيلة: المرأة الكريمة، السيدة في قومها.

- المنجد في اللغة، مادة: عقل، ص 520.

ويقدم أحد الرواة الحجاج في حكاية «الحجاج بن يوسف الثقفي مع هند بنت النعمان» تقديمًا ساحرًا. إذ يجعل زوجته هند بنت النعمان تجترئ عليه وتصفه بالكلب وتبدي فرحها الشديد بتطبيقه لها، فعندما أراد الحجاج طلاقها: «بعث إليها عبد الله بن طاهر يطلقها، فدخل عبد الله بن طاهر عليها، وقال لها: يقول لك الحجاج أبو محمد إن لك عليه من باقي الصداق مائتي ألف درهم، وهي هذه حضرت معي وقد وكلني في الطلاق فقالت: اعلم يا ابن طاهر أننا كنا معه والله ما فرحت به يوماً قط، وإن تفرقنا والله لا أندم عليه أبداً، وهذه المائتا ألف درهم لك بشارة خلاصي من كلب بني ثقيف»<sup>(1)</sup>. ومن شدة احتقارها له فإنها عندما تتأمل نفسها في المرأة ترى أنها مهرة عربية وأن زوجها الحجاج بغل لا يستحقها، وتعتقد أن سلالتها الصافية النقية هي القادرة على إنجاب الأولاد المتميزين عرقاً وأصالة، وفي حال أن هذه السلالة عجزت عن إنجاب هؤلاء الأولاد فإن السبب الرئيس في ذلك يعود إلى حسنة الحجاج، ودونية منزلته، وسلالته غير القادرة على إنجاب المتفوقين بيولوجياً وعرقياً، تقول<sup>(2)</sup>:

«وما هند إلا مهرة عربية      ساللة أفراس تحللها بغل  
فإن ولدت فحلاً فلله درها      وإن ولدت بغلاً فجاء به البغل»

وعندما يسمع الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان بحسنها وجمالها، يرسل إليها رغباً الزواج بها، فتكتب إليه محتقرةً زوجها السابق - الحجاج - : «الثناء على الله والصلوة على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، أمّا بعد، فاعلم يا أمير المؤمنين أن الكلب ولغ في الإناء»<sup>(3)</sup>. ويرسل إليها مؤكداً رأيها في الحجاج ومحتقراً

(1) ألف ليلة وليلة، 92/4.

(2) م. ن، 92/4.

- وليس بمستبعد أن يكون لهذه الحكاية سند حقيقي في تاريخ الدولة الأموية، لأن المصادر التاريخية تذكر هذه الحكاية، فهي ترد عند الأبشيهي، وبنفس أحداثها وباختلافات جد طفيفة. أمّا البيت الشعري الأول من المقطع فهو عند الأبشيهي على الشكل التالي:

ما هند إلا مهرة عربية      سليلة أفراس تحللها بغل

- ينظر: المستطرف في كل فن مستظرف، 84/1.

(3) ألف ليلة وليلة، 93/4.

له، من خلال استناده إلى حديث من أحاديث رسول الله (ص). يقول الراوي<sup>(1)</sup>: «فلما قرأ كتابها أمير المؤمنين ضحك من قولها، وكتب لها: قوله صلى الله عليه وسلم «إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليغسله سبعاً إحداهن بالتراب» وقال اغسلي القذى عن محل الاستعمال».

ومن ملامح احتقار الخليفة عبد الملك بن مروان لعامله الحجاج أنه يرضى بالشرط الذي اشترطته هند على الخليفة حتى تقبله زوجاً، فقد اشترطت عليه ما يلي: «بعد الثناء على الله تعالى يا أمير المؤمنين إني لا أجري العقد إلا بشرط فإن قلت ما الشرط، أقول: أن يقود الحجاج محملي إلى بلدك التي أنت فيها، ويكون حافياً بملبوسه الذي هو لابسه»<sup>(2)</sup>. ويوعز للحجاج أن يقود حملها من بلدها معرة النعمان إلى مدينة دمشق مقر الخلافة، فيمثل الحجاج للأمر<sup>(3)</sup>، ويسافر من العراق إلى بلدها معرة النعمان<sup>(4)</sup> ليقود حملها إلى دمشق حافياً ذليلاً. وبقدر ما يبدو شرط هذه المرأة سخيلاً ومتسلطاً وفاقداً لأبسط مفاهيم القيم الإنسانية والجمالية، في علاقات الزواج في المدينة الإسلامية، يبدو قبول الخليفة عبد الملك بن مروان بهذا الشرط احتقاراً ومهانة لعامله الحجاج، وبخاصة عندما يمشي حافياً أمام محمل زوجته السابقة، وهي تتشفي منه محتقرة. يقول الراوي<sup>(5)</sup>: «فلما ركبت المحمل وركب حولها جواربها وخدمها ترجل الحجاج وهو حاف وأخذ بزمام البعير يقوده وسار بها! فصارت تسخر منه وتهزأ به وتضحك عليه مع بلائتها وجواربها». هذا إذا عرفنا أن المسافة التي يجب على الحجاج أن يقطعها حافياً، وهي ما بين معرة النعمان ودمشق، تقدر بحوالي أربعمائة كيلومتر.

(1) م. ن، 93/4.

- وعند الأبيهي في كتابه المستطرف على الشكل الآتي: "فاغسلي الإناء محل الاستعمال". 84/1.

(2) ألف ليلة وليلة 93/4.

(3) م. ن، 93/4.

(4) مع ملاحظة أن راوي الحكاية في ألف ليلة وليلة لا يذكر اسم بلد عبد الملك بن مروان ولا اسم بلد هند بنت النعمان، في حين أن الأبيهي يذكر.

- المستطرف في كل فن مستظرف، 84/1.

(5) ألف ليلة وليلة، 93/4.

وليس غريباً أن يقبل عبد الملك بن مروان بشرط هذه المرأة حتى ترضى به زوجاً بعد أن سلب منه كرسيّ السّلطة حبّه للعلم والمعرفة، والقيم الأخلاقية الإنسانية التي دعا إليها النصّ القرآني، إذ يُروى عن هذا الخليفة أنّه كان «قبل الخلافة أحد فقهاء المدينة، وكان يُسمّى حمامة المسجد، لمداومته على قراءة القرآن. فلمّا مات أبوه وبُشّر بالخلافة أطبق المصحف وقال: هذا فراق بيني وبينك. وتصدّى لأمر الدّنيا. وقيل إنّهُ قال يوماً لسعيد بن المسيّب: يا سعيد قد صرت أفعل الخير، فلا أسرّ به وأصنع الشرّ فلا أساء به. فقال له سعيد ابن المسيّب: الآن تكامل فيك موت القلب»<sup>(1)</sup>.

«إنّ هذا الشرط الغرائبي الذي اشترطته هند على الخليفة، وقبوله به لا يعني إلاّ شذوذاً وانحرافاً في التفكير والسلوك، يسعى صاحبه إلى تحقيق رغبة استبدادية سادية من رغبات الخلفاء ونساء السّلطة في مدن ألف ليلة وليلة، إذ تغيب ظاهرة الحلم والعمو عند هؤلاء ليحلّ محلّها سلوك مستبد يُرضي طموح ذات سلطوية مريضة، لا ترى في شعبها إلاّ قطعاً مهمته أن يظلّ منقاداً لها، و«كما تقضي الطّبيعة بأن يقود الرّاعي قطيعه، ويتصرّف به، وبأن يستجيب القطيع لراعيه ويتبعه، تقضي بأن يقود الحاكم شعبه، أي رعيتّه، ويتصرّف به، وبأن يطيع الشعب حاكمه، أي راعيه، ويتبعه (...). ففي النهاية لا يبحث الرّاعي إلاّ عن مصلحته ولذّته، ومصير القطيع لا يتعدّى تغذية صاحبه»<sup>(2)</sup>.

إنّ الحجاج في نهاية المطاف مجبرٌ على أن يلبي مطالب الخليفة عبد الملك بن مروان، مهما كانت قاسية عليه، ومهينة له، لأنّ تليته لهذه الأوامر هي الكفيلة ببقائه في منصبه السلطوي المتميّز. وإذا كانت سيرة الحجاج التاريخية وصمة في جبين الخلافة الأموية، وصفحات هذه السّيرة في ليالي ألف ليلة وليلة سوداء ملطّخة بسرقة نساء المسلمين، والتّحايل عليهنّ، والاعتداء على حرّياتهنّ

(1) ابن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، ص 122.

(2) نصّار، د. ناصيف: منطق السّلطة - مدخل إلى فلسفة الأمر، دار أمواج، بيروت، الطبعة الأولى 1995م،

الشخصية، كما أشير إلى ذلك<sup>(1)</sup>. فإن هذه السيرة - ووفق المنطق الإنساني والعقلاي - لا تُسوِّغ للخليفة عبد الملك بن مروان إذلاله واحتقاره لواليه الحجاج، وإجباره على أن يمشي حافياً من معرة النعمان إلى دمشق، إرضاءً لرغبة امرأة جميلة، يشتهيها، مجرد أنه سمع بجمالها الأخاذ. فالحجاج طلق هند بنت التّعمان، مثلما يطلق أيّ رجل امرأته وأعطائها مهرها، استناداً إلى نصوص تجيز له ذلك، مستمدة من تشريعات التّكاح الإسلامي - بناؤه وهدمه - ولا تشير الحكاية بأية إشارة إلى أن الحجاج عندما طلق زوجته أهانها أو احتقرها، ومع ذلك أهانه سيده عبد الملك بن مروان شرّاً إهانة، إرضاءً لرغبة هذه المرأة المستبدّة.

ومن مظاهر احتقار هذه المرأة لزوجها الحجاج، كما يقول الراوي<sup>(2)</sup>: إنّها «لم تزل تضحك وتلعب إلى أن قربت من بلد الخليفة فلما وصلت إلى البلد، رمت من يدها ديناراً على الأرض وقالت له: يا جمال إنّه سقط منّا درهم! فنظر الحجاج إلى الأرض فلم ير إلاّ ديناراً، فقال لها: هذا دينار، فقالت له: بل هو درهم، فقال لها: بل هو دينار، فقالت: الحمد لله الذي عوضنا بالدرهم ديناراً، فناولني إياه فحجل الحجاج من ذلك». ويمكن القول، تأسيساً على سلوك عبد الملك بن مروان مع واليه الحجاج: إنّهُ لا أمان لأيّ رجل في مدن ألف ليلة وليلة، مهما كان عالي القدر، في ما إذا كان متزوجاً من امرأة جميلة، سمع بها الخليفة واشتهاها، على الرّغم من طلاق هذا الرجل لهذه المرأة في ما بعد. وعلى سبيل المثال: لقد عبّرت إحدى جوارى ألف ليلة وليلة في بغداد عن خوفها على حياة حسن البصريّ، في ما إذا سمع الخليفة هارون الرشيد بجمال زوجته منار السنّا وسحراها. وحذّرت سيّدتها زبيدة من أن يسمع الخليفة بجمال هذه الزوجة، قائلة<sup>(3)</sup>: «وحقّ نعمتك يا سيّدي إن عرف بها أمير المؤمنين قتل زوجها وأخذها منه، لأنّه لا يوجد مثلها واحدة من النساء وقد سألت عن زوجها، فقالوا إنّ زوجها رجل تاجر اسمه حسن البصري (...)

(1) وذلك أثناء دراسة ملاحظته في حكاية "نعمة ونعم" في الصّفحات السّابقة.

(2) ألف ليلة وليلة 4/94.

(3) ألف ليلة وليلة، 4/295.

وأنا أخاف يا سيدي أن يسمع بها أمير المؤمنين فيخالف الشرع ويقتل زوجها ويتزوج بها!». <sup>(1)</sup>

وإذا كان الخليفة عبد الملك بن مروان في حكاية «الحجاج بن يوسف الثقفي مع هند بنت النعمان» قد أهان أهم رموز سلطته - واليه الحجاج - إرضاءً لرغبة طليقته، فكيف تكون حال الرجل العادي في دولة الخلفاء، فيما إذا رغبت طليقته الجميلة في إذلاله، وبخاصة إذا كانت هذه الطليقة الجميلة عشيقة لأحد الخلفاء أو الأمراء؟. بلا شك يمكن أن يُغتال، أو يُسجن أو يُنفى، فيما إذا رغبت هذه الطليقة الانتقام منه، لأن الرعيّة في دول خلفاء وملوك ألف ليلة وليلة مجبرة على أن تكون مملوكة لهؤلاء الخلفاء والملوك، وعاجزة عن أن تقول لهم: لا، فيما إذا اعتدوا عليها وعلى أملاكها، فـ «العلاقة بين الحاكم والمحكوم (...) ليست أكثر من علاقة بين مالك ومملوك، فالحاكم يملك رعيته والرعيّة ملك لحاكمها، والحكم مُلك، أو نوع من أنواع الملك» <sup>(1)</sup>.

وإذا كان الخليفة عبد الملك بن مروان قد عاقب واليه الحجاج هذه العقوبة المهينة والمشيئة، في الحكاية السابقة، على الرغم من عدم خطئه، فإنه في حكاية «نعم ونعمة» لم يعاقبه على الرغم من خطئه الفادح باحتياله على «نعم» وسرقتها، والسفر بها إلى دمشق، وتقديمها له هدية، وكذبه عليه. وهنا يبدو موقف الخليفة طبيعياً، لأن الحجاج وظّف انتهاكاته للحرّمات في حكاية «نعم ونعمة» من أجل إرضاء الخليفة عبد الملك بن مروان، فالخليفة مسرور منه لأنه أرسل إليه تلك المرأة الحسناء «نعم». أمّا في حكاية «الحجاج مع هند بنت النعمان» فإن مصلحة الخليفة تقتضي أن يذلّ واليه الحجاج لكي ترضى به الحسناء الأخرى - هند بنت النعمان - زوجاً لها. إن الآليّة الذهنيّة والسلوكيّة التي ينطلق منها الخلفاء - في ألف ليلة وليلة - في قراراتهم وطبيعة أحكامهم تهدف - بالدرجة الأولى - إلى تحقيق مصالحهم، وطموحاتهم، وغاياتهم، وملذّاتهم <sup>(2)</sup>.

(1) نصّار، د. ناصيف: منطق السّلطة - مدخل إلى فلسفة الأمر، ص 37.

(2) ويستوي معظم حكام ألف ليلة وليلة في ذلك..

ويبدو أن الخليفة عبد الملك بن مروان في النصوص التاريخية، كان يعرف أن واليه الحجاج ظالم وسفّاك، وكان يحتقره على الرغم من أنه يده الطولى التي كانت تفتك بجميع معارضي نظام حكمه، وتوجّهاته السياسية. ولأنه كان اليد الفاتكة بخصوصه، فقد أبقاه والياً على العراق إلى حين وفاته - وفاة عبد الملك بن مروان - . وها هو يكتب إليه محذراً من استفحال ظلمه وتجاوزاته، واستيلائه على أموال الناس، وإسرافه في عقوبتهم، وسفكه لدمائهم: «أمّا بعد، فقد بلغ أمير المؤمنين سرّفك في الدماء، وتبذيرك في الأموال، ولا يحتمل أمير المؤمنين هاتين الخصلتين لأحد من الناس، وقد حكم عليك أمير المؤمنين في الدماء: في الخطأ الديّة، وفي العمْد القوْد<sup>(1)</sup>، وفي الأموال ردّها إلى مواضعها، (...) وسيأتيك من أمير المؤمنين أمران: لينٌ وشدّة فلا يؤنسنك إلاّ الطاعة، ولا يوحشّتك إلاّ المعصية، وطُنّ بأمر المؤمنين كلّ شيء إلاّ احتمالك على الخطأ، وإذا أعطاك الظفر على قوم فلا تقتلنّ جانحاً ولا أسيراً، وكتب في أسفل كتابه:

إذا أنت لم تترك أموراً كرهتها      وتطلب رضائي بالذي أنا طالبه  
فلا لا تلمني والحوادث جمّة      فإنك مجزي بما أنت كاسبه<sup>(2)</sup>      (...)

وعلى الرغم من معرفة عبد الملك بن مروان بسلوك واليه الحجاج الدمويّ، فإنّه كان يرفض أن يُذمّ أمامه، بل كان يدافع عنه ويوبّخ من يذكره بسوء. ويروى أن إبراهيم بن محمد بن طلحة الذي كان من خاصّة الحجاج، وذا منزلة عظيمة عنده، قدم إلى عبد الملك بن مروان، وطلب منه أن يستمع إلى نصيحته التي لا يجد بُدّاً من ذكرها، فسمح له عبد الملك ابن مروان قائلاً: «يا بن طلحة، قل نصيحتك. فقال: تالله يا أمير المؤمنين، لقد عمّدت إلى الحجاج في تغطرسه وتعجرفه وبعده من الحقّ وقربه من الباطل، فولّيته الحرمين<sup>(3)</sup>، وهما ما هما وبهما ما

(1) القوْد: القصاص، وقتل القتال بدل القتل.

- المنجد في اللغة، مادة: قود، ص 660.

(2) لمسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، 151/3 - 152.

(3) الحرّمان: مكّة والمدينة.

بهما من المهاجرين والأنصار والموالي الأختيار يطؤونهم بطعام<sup>(1)</sup> أهل الشام، ورعاع لا روية لهم<sup>(2)</sup> في إقامة حق ولا في إزاحة باطل، ويسومهم الخسف<sup>(3)</sup> ويحكم فيهم بغير السنة، بعد الذي كان من سفك دمائهم، وما أنتهك من حرمهم (...)، فقال له عبد الملك كذبت (...). وظن بك الحجاج ما لم يجده فيك، وقد يُظن الخير بغير أهله، قم فأنت الكاذب...»<sup>(4)</sup>.

ويبدو أن سيرة الحجاج الدموية كانت محل استهجان وذم عند معظم الفقهاء والمؤرخين الإسلاميين. ويروى أنه «قيل للشعبي<sup>(5)</sup>: أكان الحجاج مؤمناً؟ قال: نعم بالطاغوت. وقال: لو جاءت كل أمة بخبيثها، وفاسقها، وجئنا بالحجاج وحده لزدناه عليهم والله أعلم»<sup>(6)</sup>. وها هو الدميري يذم الحجاج قائلاً<sup>(7)</sup>: «اللعين الحجاج أخزاه الله وقبحه».

وليست ملامح الحجاج في ألف ليلة وليلة بعيدة في الغرابة والتخيل، بل يمكن القول: إنَّها قريبة إلى حد ما من ملامحه التاريخية، كما أرخت لها المصادر الكثيرة، وهي في هذا لا تختلف عن ملامح الخلفاء الأمويين والعباسيين من حيث نقاط الالتقاء الكثيرة بين ملامحهم التاريخية، ولامحهم في نصوص ألف ليلة وليلة الحكائية.



(1) الطغام: أوغاد الناس

- المنجد في اللغة، مادة: طغم، ص 466.

(2) الروية: التفكير والنظر في الأمر.

م. ن، مادة: روى، ص 289.

(3) سامه الخسف: أي أهانه وكلفه المشقة.

- المنجد في اللغة، مادة: خسف، ص 179.

(4) ابن عبد ربه الأندلسي: العقد الفريد، 124/4 - 125.

(5) الشعبي: (عامر بن شراحيل الشعبي الحميري، 19 - 103هـ/640 - 721م): راوية، يُضرب المثل بحفظه. وُلد ونشأ ومات بالكوفة. اتصل بعبد الملك بن مروان، فكان نديمه وسميره ورسوله إلى ملك الروم. وسئل عما بلغ إليه حفظه، فقال: ما كتبت سوداء في بيضاء، ولا حدثني رجل بحديث إلا حفظته. وهو من رجال الحديث الثقا، استقضاه عمر بن عبد العزيز، وكان فقيهاً شاعراً.

- الزركلي، خير الدين: الأعلام، 251/3.

(6) الأبيشي: المستطرف في كل فن مستظرف، 83/1.

(7) حياة الحيوان الكبرى، 81/1.

ويمكن القول في نهاية الحديث عن ملامح بعض حكام ألف ليلة وليلة: إنَّ معظم هؤلاء الحكام ظلّام فسقة وغير أكفاء، وأنانيون، وغير قادرين على تحقيق العدالة والطمأنينة لأفراد شعوبهم، ومنقادون لرغباتهم الدونيّة البهيميّة، وبعيدون عن هموم شعوبهم ومآسيهم؛ ويأتي تنصيبهم على شعوبهم تنصيباً عشوائياً لا علاقة له بمبدأ الشورى الذي دعا إليه الإسلام في بداياته الأولى. ومن هنا فإنَّ شعوب ألف ليلة وليلة هي شعوب مهزومة، لا قرار لها، وعاجزة ومستلبّة ومُهانة أمام سطوة هؤلاء الحكام الذين يعيشون فساداً وتخريباً في مدّهم وشعوبهم.

## استبداد نساء ألف ليلة وليلة نماذج ثرية وسلطوية

يكاد يتفق معظم رواة ألف ليلة وليلة على رؤية تكاد تكون واحدة، ينطلقون منها لوصف نساء الليالي، وأخلاقهنّ وعاداتهنّ، وعلاقاتهنّ بالرجال في القصور وأسواق التّجارة، وهذه الرؤية محكومة بقيم الرجل السلطوي البطريك الذي لا يثق بأية امرأة مهما كانت. ومن هذه الرّؤية قُدمت النساء الزّواني<sup>(1)</sup>، والقوّادات<sup>(2)</sup>، والمختلات<sup>(3)</sup>، والمتآمرات على كلّ من يقف أمام رغباتهنّ الشّهوانيّة الفاجرة<sup>(4)</sup>، واللّواتي لا علاقة لهنّ بالعفّة والأخلاق الفاضلة، لأنّهنّ فاسدات الطّويّة والهوى<sup>(5)</sup>، والنساء اللّواتي هنّ أصل المصائب<sup>(6)</sup>، والفساد والمكر والخديعة<sup>(7)</sup>، ومن هنا فقد رأى هؤلاء الرجال أنّ المرأة شرّ، وأنّ الانقياد إلى رأيها ومشاورتها يعني مزيداً من الخسائر<sup>(8)</sup>.

وإذا كانت هناك استثناءات تنظر إلى المرأة نظرة احترام لمكانتها، بوصفها أمّاً أو أختاً أو زوجة صالحة ومخلّصة<sup>(9)</sup>، فإنّ هذه الاستثناءات نادرة جدّاً، ولا

---

(1) ألف ليلة وليلة، 13/1، 14، 15، 22. ومواقع أخرى كثيرة جدّاً.

(2) م. ن، 146/1؛ 34/2.

(3) م. ن، 161/1، 162، 165، 325/2 - 326.

(4) م. ن، 295/2 - 296.

(5) م. ن، 41/2؛ 85/3 - 86.

(6) م. ن، 299/2.

(7) م. ن، 238، 59/2.

(8) م. ن، 171/3.

(9) م. ن، 278/1؛ 158/3، 159، 187.

تشكّل نموذجاً للمرأة الموصوفة والمُحتفى بها في الليالي، أو مقياساً يمكننا من خلاله أن نتبين أهم ملامح المرأة في الليالي. ولعلّ أهمّ ملامح من ملامح النساء الذي يهمّ هذه الدراسة، هو ملامح المرأة السلطوية المستبدة الطاغية التي تقف نداً للرجال في ممارسة الطّغيان والاستبداد، والتي تفوقهم في أحيان أخرى، سواء أكانت من الحرائر أم من الجوّاري الحظايا؛ فالمرأة التي تساعدنا ظروفها لأن تكون في منزلة عليا من طبقات المجتمع، نجدها تمارس اضطهاداً وتسلاً على من دونها من الرجال والنساء، فهي تستمدّ سلطتها من سلطة زوجها، سواء أكان خليفة أم أميراً، أم من سلطة رجل قوي عشيق يخضع لرغباتها وأهوائها. وتشير حكايات الليالي إلى أنّ هذه النماذج السلطوية النسائية هي نماذج دموية، مثلها مثل رجال السّلطة، إذ إنّها تلجأ للقتل إذا غضبت، وترتكب جرائم أخرى كثيرة إذا مُنعت من تحقيق رغباتها. وبطبيعة الحال لا يستطيع بعض رواة الليالي الشّعبيين معاقبة هاته النسوة السلطويات على جرائمهنّ، لئلاّ تفقد حكاياتهم مصداقيتها وبعدها السياسي. فهاته النسوة محصّات بسلطات الرجال وبطشهم، ومن هنا فإنّ قدراتهنّ على اختراق القوانين وإلغائها كبيرة جدّاً، وقدراتهنّ على زرع الفساد والتّحريب، من دون أن ينلن أيّ عقاب، أكبر من ذلك بكثير.

وتحت عنوان: استبداد نساء السّلطة في ألف ليلة وليلة، تندرج نساء سلطويات كثيرات، ونظراً لكثرة هاته النسوة، فأني أكتفي بالإشارة إلى بعضهنّ، لأنّ نمّة ملامح مشتركة تجمع في ما بينهنّ، وبين النساء الأخريات غير المشار إليهنّ.

#### أ - في بضع ملامح السيدة زبيدة زوجة الخليفة هارون الرشيد

من أهمّ نساء السّلطة في ألف ليلة وليلة اللواتي مارسن تسلاً على من دونهنّ من الجوّاري والإماء والرجال، السيّدة زبيدة بنت جعفر المنصور<sup>(1)</sup>، إذ تبرز هذه

(1) زبيدة: (زبيدة بنت جعفر بن المنصور، ... - 216هـ/... - 831م): الهاشميّة العباسية، زوجة هارون الرشيد، وبنت عمّه. من فضيلات النساء وشهيراتهنّ. وهي أم الأمين العباسي. اسمها "أمة العزيز" وغلب عليها لقبها زبيدة. قيل: كان جدّها المنصور يرقصها في طفولتها ويقول: يا زبيدة أنت زبيدة! فغلب على ذلك اسمها. تزوّج بها الرشيد سنة 165هـ ولما قتل ابنها الأمين، اضطهدا رجال المأمون فكنبت إليه تشكو حالها، فغطف عليها، وجعل لها قصرأ في دار الخلافة، وأقام لها الوصائف والخدم. وكانت لها ثروة واسعة.

المرأة نموذجاً متسلطاً مطاعاً طاعة عمياء، لا يجروء أحد على مخالفتها من جواري قصرها، ومن رجال مدينة بغداد ونسائها. ففي حكاية «حسن الصائغ البصري»، تسمع السيّدة زبيدة بجمال منار السنّا زوجة حسن البصري، فتأمر بإحضار مسرور السيّاف، فيأتيها صاغراً، ويقبل الأرض بين يديها<sup>(1)</sup>، وتأمره أن يذهب ويحضر السيّدة منار السنّا: «فقلت له يا مسرور اذهب (...)» واث بالصبيّة التي هناك هي وأولادها والعجوز [أم حسن البصري] التي عندها بسرعة ولا تبطئ، فقال مسرور السمع والطاعة<sup>(2)</sup>. فيذهب مسرور إلى منزل حسن البصري، ويطلب من العجوز أن تحضر هي وزوج ابنها، وأولادها، إلى قصر زبيدة، لتسعد زبيدة برؤية جمال منار السنّا، لكنّ العجوز تعتذر وتتوسّل إليه أن يعفيها وزوج ابنها، من الذهاب: «يا مسرور نحن ناس غرباء وزوج البنت ولدي ما هو في البلد ولم يأمرني بالخروج أنا ولا هي لأحد من خلق الله تعالى، وأنا أخاف أن يجري أمر ويحضر ولدي فيقتل روحه فمن إحسانك يا مسرور أن لا تكلفنا ما لا نطيع»<sup>(3)</sup>. ولأنّ مسروراً يعتقد جازماً أنّ سيّدته زبيدة، بموقعها السلطوي، هي أفضل خلق الله جميعاً من النساء، بوصفها «زوجة أمير المؤمنين هارون الرشيد السادس من بني العباس، عمّ النبي صلّى الله عليه وسلّم»<sup>(4)</sup>. فإنّ على نساء بغداد ورجالها جميعهم أن يخضعوا لرغباتها وأوامرها. فما كان منه إلاّ أن رفض اعتذار المرأة، وهدهدها بسيف زبيدة قائلاً: «لا تخالفي تندمي»<sup>(5)</sup>.

وبطبيعة الحال لا تستطيع العجوز أن تخالف أوامر زبيدة، حتى لا تندم، فتذهب برفقة منار السنّا إلى قصر زبيدة، وعندما تشاهدها زبيدة تدهش من جمالها، وتساءلها: «يا سيّدة الملاح (...) أيّ شيء عندك من الذخائر»<sup>(6)</sup>. ولأنّ منار السنّا

(1) ألف ليلة وليلة، 296/4.

(2) م. ن، 296/4.

(3) م. ن، 296/4.

(4) م. ن، 296/4.

- مع ملاحظة أنّ الراوي يخطئ تاريخياً حين يقول عن هارون الرشيد أنّه السادس من بني العباس، فالرشيد هو الخليفة العباسي الخامس بعد الخلفاء الأربعة الذين سبقوه في حكم الدولة العباسية، وهم: أبو العباس عبد الله السفّاح، وأبو جعفر المنصور، ومحمد المهدي بن المنصور، والهادي بن المهدي.

(5) ألف ليلة وليلة، 296/4.

(6) م. ن، 297/4.

تريد السفر من بغداد، برفقة أولادها، إلى واق الواق - ضدّ رغبة زوجها حسن البصري الذي يخاف أن تهرب بأولاده ولا تعود أبداً - فإنّها تستثمر فرصة لقائها بزبيدة لتحتال على أمّ زوجها، ولتؤثّر في زبيدة بسطوة جمالها، فتؤكّد لها أنّ لها ثوباً عجيباً من الريش، وأنّها ستكون أكثر جمالاً لو أنّها تمكّنت من ارتدائه، وأنّ هذا الثوب قد أخفاه زوجها حسن البصري، وسافر خارج بغداد. ومن ثمّ تطلب من زبيدة أن ترغم أمّ زوجها على أن ترجع لها هذا الثوب، لتلبسه بحضورها، حتى تتأكّد من صحّة كلامها: «فقال الصبيّة يا سيّدي لي ثوب ريش لو لبسته بين يديك لرأيت أحسن مما تعجبين منه، ويتحدّث بحسنه كلّ من يراه جيلاً بعد جيل، فقلت وأين ثوبك هذا؟ قالت هو عند أمّ زوجي فاطلبه لي منها»<sup>(1)</sup>.

وتطلب السيدة زبيدة من أمّ حسن البصري - لا يذكر الراوي اسماً لهذه الأمّ - أن تذهب وتحضر ثوب الريش، لكنّ المرأة العجوز تقسم بالله أنّها لا تعرف شيئاً عن هذا الثوب. عندها تستنفر زبيدة سطوتها، وتصمّم على انتزاع الثوب قهراً واغتصاباً. يقول الراوي<sup>(2)</sup>: «فصرخت السيدة زبيدة على العجوز وأخذت منها المفتاح ونادت مسروراً فحضر وقالت له: خذ هذا المفتاح واذهب إلى الدار، وافتحها (...). تجد في وسطها صندوقاً فأخرجه واكسره وهات الثوب الريش الذي فيه واحضره بين يديّ». وما إنّ يحضر ثوب الريش، حتى ترتديه منار السنا. وبالرؤية التخيلية التي تحكم منطق القصّ في كثير من حكايات ألف ليلة وليلة، يجعل الراوي منار السنا تضع ولديها تحت ثوبها، وتفتح جناحي الثوب السحري، وتطير بأولادها إلى واق الواق، بلاد أبيها<sup>(3)</sup>.

إنّ السيدة زبيدة، وأمّ طغيان أنانيّتها الفردية، واستمتعها برؤية منار السنا، وهي تلعب وتتمايل، وترقص بثوبها السحري<sup>(4)</sup>، لا يهتمّها إن هي سببت التعاسة للآخرين، وإن هي باعدت بين حسن البصري، وأولاده وزوجته منار السنا، التي يحبّها حبّاً شديداً يفوق سحر ثوبها وقدراته الخرافية، ولا يهتمّها إن اغتالت أحلامه،

(1) م. ن، 297/4.

(2) م. ن، 298/4.

(3) م. ن، 300/4.

(4) ألف ليلة وليلة، 299/4.

وجعلته يائساً، مندفعاً لأن يتحمّل أقصى الأهوال، وهو يقطع الجبال والبحار بحثاً عن زوجته، وجعلت أمّه غارقة في بكائها، ولطم وجهها، وغشيتها المأساوية<sup>(1)</sup>. وهي في سبيل تحقيق سعادتها الآتية برؤية امرأة جميلة ترقص رقصاً يفوق رقص جواربها مُجتمعات، مستعدّة لأن تضحّي بكلّ أحلام شعبها في بغداد، وليذهب الشعب إلى جحيم التعاسة طالما هي تستلذّ بجمالية المشهد الراقص.

إنّ مآسي الآخرين لا تحرك في السيدة زبيدة السلطوية آية مشاعر حزن أو تعاطف، أو شفقة نحوهم، فالآخرون لا يعنون لها شيئاً إلاّ بقدر ما يقدمون لها من هدايا ورشاوى ومسرات آتية. وهنا يمكن القول: إنّ الراوي، وبشكل خفيّ، يبيّن إيديولوجيته المعادية لنظام القصر في بغداد، ولؤسسة السلطة في هذا القصر. ويمكن القول أيضاً: إنّ السلطة في ألف ليلة وليلة تشكّل فعلاً تدميراً ضدّ الآخر المُستلب، وضدّ طموحاته لأن يعيش حرّاً وحالماً وآمناً. ومنذ أن تشكّلت السلطة كانت «متعدّدة في الفضاء الاجتماعي [و] ممتدّة في الزمان التاريخي. وعندما نبعدها وندفعها هنا، سرعان ما تظهر هناك، وهي لا تزول البتّة قُماً ضدّها بثورة بغية القضاء عليها، وسرعان ما تبعث وتنبت في حالة جديدة (...) إنّ السلطة جرثومة عالقة بجهاز يخرق المجتمع ويرتبط بتاريخ البشرية في مجموعته، وليس بالتاريخ السياسي وحده»<sup>(2)</sup>.

أمّا في حكاية «هارون الرشيد مع محمد بن علي الجوهري»، فإنّ السيدة زبيدة تبدو مستبدّة ومطاعة؛ ومن تطلّبه إلى قصرها يجب عليه الحضور وإلاّ فإنّها ستغضب عليه وتبقى عدوّته. ففي هذه الحكاية يذكر الراوي أنّها سمعت من جوارب القصر التي تنقل إليها أخبار بغداد وعلاقات سكّانها، أنّ تاجراً ظريفاً وثرياً، وذا صوت شجيّ، يقيم في بغداد، وقد صار زوجاً للسيدة دنيا البرمكية - أخت الوزير جعفر البرمكي - فترسل إليه إحدى عجائز القصر، ليحضر إليها، لكنّ الرجل يخاف من زوجته السيدة دنيا، إن هو غادر قصرها. فيعتذر عن

(1) م. ن، 300/4.

(2) بارت، رولان: درس السيمولوجيا، ترجمة عبد السلام بن عبد العالي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء/المغرب، الطبعة الثانية 1986م، ص 12.

الذهاب، لكنّ العجوز تمّده بغضب السيدة زبيدة، فيضطرّ للذهاب مُكرهاً. يقول الراوي<sup>(1)</sup>: «وقالت: [العجوز] يا سيّدي محمد، إنّ السيدة زبيدة تدعوك فإنّها سمعت بأدبك وظرفك وحسن غنائك. فقلت لها: والله لا أقوم من مكاني حتى تأتي السيدة دنيا. فقالت العجوز: يا سيّدي لا تجعل السيدة زبيدة تغضب عليك وتبقى عدوتك، فقم كلمها وارجع إلى مكانك. وقمت من وقتي وتوجّهت إليها والعجوز أمامي إلى أن أوصلتني إلى السيدة زبيدة». فالجوهرى لا يستطيع أن يخالف أمر السيدة زبيدة، لأنّ مخالفته تعني غضبها الشديد عليه، وبالتالي قد تعني نفيه عن بغداد، أو مصادرة أمواله، وممتلكاته، ولا سيما أنّه من أغنى تجّار بغداد، بل وكما يذكر الراوي يصل في ثرائه إلى درجة ثراء الخليفة هارون الرشيد، أو يفوقه ثراءً<sup>(2)</sup>.

وعندما يصل محمد بن علي الجوهري إلى قصر السيدة زبيدة تبدي إعجاباً شديداً به، وتطلب منه أن يغني لها، وتقول له<sup>(3)</sup>: «يا نور العين هل أنت معشوق السيدة دنيا؟ فقلت: أنا مملوكك وعبدك. فقالت: صدق الذي وصفك بالحسن والجمال والكمال، فإنّك فوق الوصف والمقال، ولكن غنّ لي حتى أسمعك. فقلت: سمعاً وطاعة». تقول زبيدة للجوهري: يا نور العين، لكنّه يعي أنّ طبقة التجار التي ينتمي إليها، على الرغم من أهميّتها في المجتمع البغدادي الطبقيّ، تظلّ طبقة دونيّة، مقارنةً بطبقة السلطة التي تتحكّم بكلّ الطبقات الأخرى، وتراها خادمة مطيعة لها، عندها يؤكّد الجوهري أنّه مملوكها وعبدها، وهو لا يستطيع أن يقترب منها أكثر، ويستخدم خطاباً لغويّاً يقترب من خطابها، كأن يصفها، مثلاً بنور العين، أو يتغزّل بحسنها وجمالها، نظراً لهيبتها السلطوية من جهة، ومكانتها الطبقيّة من جهة أخرى.

لقد وعى بعض أدباء الدولة الإسلامية وفقهائها مدى الهالة السلطوية المقدّسة التي يتحصّن بها الملوك والخلفاء، وقدرة هؤلاء على البطش والاستبداد بشعوبهم، فدعوا الناس المقربّين منها إلى تقديسها وعدم اختراقها، والحذر منها، في رضاها وسخطها، والولاء والذلّ المطلق لها، ودعوا كلّ من لم يستطع ترويض نفسه على

(1) ألف ليلة وليلة، 437/2.

(2) م. ن، 430/2.

(3) م. ن، 437/3 - 438.

طاعة السلطان والرضى بكل ما يأتيه منه، سواء أكان خيراً أم شراً، إلى الحذر منه، والابتعاد عنه<sup>(1)</sup>. وتأسيساً على قول بعضهم: «إذا زادك السلطان إكراماً فزده إعظاماً، وإذا جعلك عبداً فاجعله رباً»<sup>(2)</sup>، يمكن القول: إن محمداً الجوهري، عندما أكرمه زبيدة في قصرها عدّ نفسه عبداً لها، وما استطاع أن يتخطى هذه المنزلة، على الرغم من أنها مهّدت له، وشجّعت له، لأن يتخطاها على المستوى الظاهري، وقالت له: يا نور العين.

ويبدو أن الراوي المتعاطف مع التاجر الجوهري، الثري جداً، أو المتقمص لشخصيته، والطامح - ولو على مستوى الحلم - لأن يكون مكانه في قصر زبيدة، تخيل من دائرة حرمانه وفقره وتوقه لأن يشاهد زبيدة، هذه السيدة الأنيقة التي ملأ صيتها آفاق الدولة الإسلامية، أنه لو حضر أمامها، لقاتل له: يا نور العين، ولأدنته، وأرضت طموحه لأن يكون ظريفاً، وكاملاً في الجمال والأدب، ومعنياً ماهراً، يستطيع أن ينتزع إعجاب أهم امرأة في الدولة العباسية، إلا أن الواقع المعيش الذي يحاول أن يتخطاه هذا الراوي الشعبي - وفق الأماني التخيلية العذبة، وصولاً إلى قصر زبيدة - يؤكد استحالة أن يستطيع هذا الراوي تجاوز طبقة الدونية إلى طبقة أعلى منه، فهو غير قادر على الوصول إلى طبقة التجار التي كانت قادرة على الوصول إلى قصور الخلفاء بترائها المالي، وتقديمها الرشاوى والهدايا لسادة هذه القصور، فالجتماع العباسي هو مجتمع تُهمّش فيه الطبقات الفقيرة، إذ يستحيل عليها أن تتجاوز واقعها المأساوي، الذي ساهم في زيادة مأساته، الخلفاء العباسيون «الذين حرموا الشعب حقوقه وطوقوه بالاستعباد والاستبداد والعنف الشديد، وقد مضوا هم وبطانتهم يحتكرون لأنفسهم أمواله وموارده الضخمة، بحيث كانت

(1) يقول عبد الله بن المقفع: "ينبغي لمن خدم السلطان أن لا يغرّ به، ولا يتغيّر له إذا سخط، ولا يستقل ما حمّله، ولا يلحف في مسألته. وقال أيضاً: لا تكون صحبتك للسلطان إلا بعد رياضة منك لنفسك على طاعتهم؛ فإن كنت حافظاً إذا ولّوك، حذراً إذا قرّبوك، أميناً إذا ائتمنوك، ذليلاً إذا صرموك، راضياً إذا أسخطوك؛ وتعلمهم وكانك تتعلم منهم، وتؤدّبهم، وكانك تتأدّب بهم، وتشكرهم ولا تكلفهم الشكر، وإلا فالبعد عنهم كل البعد، والحذر منهم كل الحذر".

- عن/ابن عبد ربه الأندلسي: العقد الفريد، 20/1.

(2) العقد الفريد، 29/1.

هناك طبقة تنعم بالحياة إلى غير حدّ، وطبقات قُتِرَ عليها في الرزق، فهي تشقى إلى غير حدّ، واضطرب أوساط الناس من التجار وغيرهم بين الشقاء والنعيم»<sup>(1)</sup>.

ومن ملامح زبيدة السلطوية في ألف ليلة وليلة، أنّها امرأة غيور على زوجها الرشيد، وحاقدة على الجوّاري اللّواتي كنّ ينلن حظوة ومحبة شديدة عنده، فقد كان الرشيد يحبّ إحدى جواريه - قوت القلوب - محبة شديدة، مما دفع زبيدة إلى الغيرة الشديدة منها، ومحاولة التخلص منها بالقتل<sup>(2)</sup>.

ويبدو من خلال المصادر التاريخية أنّ السيدة زبيدة كانت تغار على زوجها الرشيد من الجوّاري اللّواتي تعلق بهنّ، وأعجب بغنائهنّ. ويروي أبو الفرج الأصفهاني<sup>(3)</sup> الخبر الآتي:

« كانت دنانير لرجل من أهل المدينة، وكان خرّجها<sup>(4)</sup> وأدّبها، وكانت أروى الناس للغناء القديم، وكانت صفراء صادقة الملاحظة، فلمّا رآها يحي<sup>(5)</sup> وقعت بقلبه فاشتراها. وكان الرشيد يسير إلى منزله فيسمعها، حتى ألفها واشتدّ عجبّه بما فوهب لها هبات سنّية، منها أنّه وهب لها في ليلة عيد عقداً، قيمته ثلاثون ألف دينار، فرُدّ عليه في مصادرة البرامكة بعد ذلك. وعلمت أمّ جعفر خبره فشكته إلى عمومتها، فصاروا جميعاً إليه فعاتبوه، فقال: مالي في هذه الجارية من أرب في نفسها، وإنّما أربي في غنائها، فاسمعوها، فإن استحقّت أن

(1) ضيف، د. شوقي: العصر العباسي الأوّل، ص 45.

(2) ألف ليلة وليلة، 1/230.

(3) الأغاني، 18/67.

(4) خرّجها: درّبها وعلمّها.

- المنجد في اللغة، مادة: خرج، ص 173.

(5) يحيى البرمكي: (يحيى بن خالد بن برمك، 120 - 190هـ/738 - 805م): أبو الفضل، الوزير الجواد، سيد بني برمك وأفضلهم. وهو مؤدّب الرشيد العباسي ومعلمه ومربيّه. رضع الرشيد من زوجة يحيى مع ابنها الفضل، فكان يدعوّه: يا أبي، ولما ولي هارون الرشيد الخلافة دفع خاتمه إلى يحيى، وقلّده أمره، فبدأ يعلو شأنه. واشتهر يحيى بجموده وحسن سياسته. واستمر إلى أن نكب الرشيد البرامكة فقبض عليه وسجنه في "الرقّة" إلى أن مات.

- الزركلي، خير الدين: الأعلام، 8/144.

يُؤلف غناؤها وإلا فقولوا ما شئتم، فأقاموا عنده، ونقلهم إلى يحيى حتى سمعوا عنده فعدروه، وعادوا إلى أم جعفر فأشاروا عليها ألا تُلح في أمرها فقُبلت ذلك».

لقد كانت السيدة زبيدة متسلطة على سكان بغداد، وكان على هؤلاء - مهما علت مقاماتهم - أن يقبلوا الأرض بين يديها إجلالاً وتعظيماً لمكانتها السلطوية. فهي هو أحد أولاد التجار الأثرياء يقبل الأرض أمامها<sup>(1)</sup>، وهماي الأميرة منار السنا زوجة حسن البصري وأمه تقبلان الأرض بين يديها<sup>(2)</sup>. وكان على رجال القصر - مهما كانوا مرموقين - أن يقبلوا الأرض أمام زبيدة، فهي هو مسرور السياف، الباطش السفاح، يقبل الأرض أمامها عندما تأمره، ويقول لها: «السمع والطاعة»<sup>(3)</sup>. وكان على جوارري القصر المرموقات، والحظايا عند الخليفة الرشيد، أن يقدمن ولاء الطاعة لها، فهي تحفة العوادة - إحدى جوارري الرشيد المدللات - تعتذر لزبيدة لأنها تأخرت في الحمام، وتقبل الأرض بين يديها<sup>(4)</sup>.

وليست السيدة زبيدة هي المرأة السلطوية الوحيدة التي تُقبل الأرض بين يديها، بل يُلاحظ أن عادة تقبيل الأرض موجودة في كل بلاطات الحكام في ألف ليلة وليلة، باختلاف مذاهبهم الدينية. ويبدو أنها تجذرت في بلاطات الخلفاء الأمويين والعباسيين نتيجة احتكاكهم بالبلدان المجاورة، فهذه العادة في أصولها هي من «العادات الفارسية والبيزنطية»<sup>(5)</sup>. ولم تُعرف في العصر الإسلامي، في بداياته الأولى - عهد الرسول محمد (ص) وعهد الخلفاء الراشدين - وعلى الأرجح أنها تجذرت في الحياة العربية الإسلامية، بعد استلام بني أمية مقاليد الخلافة الإسلامية (41هـ/661م)، وتحويلهم الدولة الإسلامية من دولة الخلافة إلى دولة أشبه بالدولة

(1) ألف ليلة وليلة، 1/142.

(2) م. ن، 4/296.

(3) م. ن، 4/296.

(4) م. ن، 4/294.

(5) خليل، د. خليل أحمد: مضمون الأسطورة في الفكر العربي، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الثالثة،

نيسان/أبريل 1986م، ص 173.

الملكيّة ذات النزعة الاستبدادية<sup>(1)</sup>، والبعيدة كلّ البعد عن مبدأ الشورى الذي دعا إليه الخطاب القرآني: «... فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ...»<sup>(2)</sup>، و«وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ»<sup>(3)</sup>، ورسخ دعائمه النبيّ محمد (ص).

ويلاحظ في ألف ليلة وليلة أنّ الرواة، في بعض الأحيان، يصفون الخلفاء الأمويين والعباسيين بالملوك الخلفاء. فهذا هو أحد الرواة يقول عن الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان: «كان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان بدمشق الشام ملك من الخلفاء يسمّى عبد الملك بن مروان»<sup>(4)</sup>. أما الخليفة هارون الرشيد فقد كان يعدّ نفسه، بالإضافة إلى أنّه خليفة، ملكاً، ولا يكتفي بملك، بل بملك ملوك الأرض. يقول الرشيد<sup>(5)</sup> عن نفسه: «كيف أكون خليفة وملك ملوك الأرض وأعجز عن جوهرة».

ويبدو أنّ خلفاء الدولتين الأموية والعباسية قد تشبّهوا بالملوك في مآكلهم وملبسهم، وتعاملهم مع شعوبهم، وقلّدوا ملوك فارس، وطغوا وتجبروا على هذه الشعوب، واستبدّوا بها وحوّلوها إلى خدم وحشم، وقد «كان الخلفاء العباسيون أكثر استبداداً من الأمويين وأشدّ منهم تقليداً للمثال الفارسي في إدارتهم»<sup>(6)</sup>. ومن أهمّ علامات هذا الاستبداد انحناء الشعوب الإسلامية، وتقبيّل الأرض أمام الخلفاء والملوك، وتقبيّل أيديهم، إذ كانت هذه الشعوب تنحني في نصوص ألف ليلة وليلة أمام الخليفة أو الملك وزوجته وأبنائه الأمراء، ويتساوى في ذلك جميع غلمان

(1) ويبدو أنّ هذه النزعة الاستبدادية قد تأسست على يد الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان (41 - 60 هـ/661 - 680م)، الذي هدم كثيراً من أخلاق التواضع والتقتشف التي عرفها المسلمون الأوائل، إذ "نقل الحكم في الإسلامي من الخلافة إلى الملك ونصّب نفسه ملكاً، وكان لقب "ملك" في ذلك الحين شيئاً مكروهاً عند العرب، وجاء معاوية ببدع في الحكم كثيرة منها أنّه أحاط نفسه بحرسٍ ورفع نفسه عرشاً في قصره وشيّد مقصورة في المسجد لصلاته".

- حتى، فيليب: الإسلام منهج حياة، ص 170.

(2) سورة آل عمران، الآية: 159.

(3) سورة الشورى، الآية: 38.

(4) ألف ليلة وليلة، 24/4.

(5) م. ن، 8/3.

(6) حيب، هاملتون: التاريخ الإسلامي في العصور الوسطى، ص 48.

القصور وحظاياها وأفراد الشعب باختلاف طبقاته، فهذا هو أحد غلمان قصر الرشيد يقبل الأرض بين يدي الرشيد<sup>(1)</sup>. وها هو أثرى تاجر في البصرة، التاجر أبو محمد الكسلان، ما إن يسمع أن الخليفة الرشيد يطلب حضوره إلى بغداد، حتى يسارع ويقبل الأرض بين يدي مسرور رسول الخليفة تعظيماً للخليفة<sup>(2)</sup>.

لقد كان على كل من في القصر في بغداد أن يطيع الخليفة طاعة عمياء، ويقبل الأرض بين يديه. ونظراً لسطوة الرشيد، وهيمنة هذه السطوة على سكان الدولة العباسية، فقد تخيل أحد الرواة أن هذه السطوة طاغية أيضاً على أقرب المقربين منه - زوجته زبيدة - وأعتقد أنه كما على الناس في بغداد أن يقبلوا الأرض بين يدي زبيدة، فإن عليها هي الأخرى أن تقبل الأرض بين يدي زوجها الرشيد. يقول الراوي<sup>(3)</sup> عن غلام الرشيد: «ثم إن الغلام قبل الأرض بين يد الخليفة وقال له: يا أمير المؤمنين إن السيدة زبيدة تقبل الأرض بين يديك».

ومن ملامح السيدة زبيدة في نصوص ألف ليلة وليلة أنها امرأة ولعة بامتلاك الجواهر والأحجار الكريمة، ومن كثرة جواهرها فإنها لم تكن قادرة على المشي، كما يقول أحد الرواة<sup>(4)</sup>: «ثم رأيت عشرين جارية (...) وبينهن السيدة زبيدة وهي لا تقدر على المشي مما عليها من الحلّى والحلّل». ومن شدة ولع السيدة زبيدة بامتلاك الذهب والجواهر الكريمة، فقد كانت تحرص على امتلاك أنفس الجواهر، وأكبرها في بغداد. يقول الراوي<sup>(5)</sup>: «إن هارون الرشيد كان جالساً ذات يوم في تخت الخلافة، إذ دخل عليه غلام من الطواشيّة ومعه تاج من الذهب الأحمر مرصّع بالدرّ والجوهر، وفيه سائر اليواقيت والجواهر ما لا يفني به مال. ثم إن الغلام (...) قال له: يا أمير المؤمنين إن السيدة زبيدة (...) تقول لك: أنت تعرف أنّها قد عملت هذا التاج وأنه محتاج إلى جوهرة كبيرة تكون في رأسه وفتشت في ذخائرها

(1) ألف ليلة وليلة، 8/3.

(2) م. ن، 8/3.

(3) م. ن، 8/3.

(4) م. ن، 142/1.

(5) م. ن، 8/3.

فلم تجد فيها جوهرة كبيرة على غرضها». وعند ذلك يطلب الرشيد من الحجاب والنواب أن يفتشوا عن جوهرة مناسبة ترضي طموح زوجته<sup>(1)</sup>.

ويبدو أن السيدة زبيدة كانت - تاريخياً - تعتلي أعلى مراتب الثراء والأناقة بين نساء المجتمع البغدادي، إذ صارت ملابسها، نظراً لأناقتها الجمالية، زياً شائعاً في البيئة الاجتماعية<sup>(2)</sup>. وقد كانت سيّدة الأناقة في بغداد والمدن العباسية الأخرى. ويمكن القول: إن الراوي الذي أشار إليها، وهي مثقلة بجواهرها، وثيابها النفيسة، لم يكن يشكّل صورتها من تخيّلاته، بل ممّا وصل إليه من المصادر التاريخية. فعلى سبيل المثال يذكر المسعودي<sup>(3)</sup> أنّها كانت تلبس الثياب الجميلة المزينة بالألوان، والموشاة بالحرير، والباهظة الثمن، حتى أنّه بلغ ثمن الثوب من هذه الثياب خمسين ألف دينار. وكانت تتخذ النعال المرصّعة بالجواهر وشمع العنبر، ما دفع الناس في بغداد إلى تقليدها.

ويرى ابن طباطبا أن السيدة زبيدة كانت سديدة الرأي، وحكيمة عاقلة، أكثر من ولدها محمد الأمين، وتتجلّى حكمته من خلال تعليماتها لعلي بن ماهان<sup>(4)</sup> (ت 195هـ/811م)، وهو في طريقه إلى حرب عبد الله المأمون، وتأكيدها عليه أن يكون لطيفاً وكريماً مع المأمون، فيما إذا انتصر عليه<sup>(5)</sup>. إلا أنّ حكمته هذه وسداد رأيها، لم يمنعها من أن تكون بطرة عابثة بأموال الدولة

(1) لكن هؤلاء النواب يعجزون عن إيجادها في بغداد، ويؤكّدون له أنّ مثل هذه الجوهرة لا توجد إلا في البصرة، وعند أتري أثرياء البصرة، وهو التاجر أبو محمد الكسلان، فيرسل مسروراً السيّاف إلى البصرة ليحضر هذه الجوهرة، وعند ذلك قدم أبو محمد الكسلان إلى بغداد حاملاً معه للرشيد هدايا ثمينة جداً، "من جملتها أشجار من الذهب، وأوراقها من الزمرد الأبيض، وثمارها ياقوت أحمر وأصفر ولؤلؤ أبيض"، بالإضافة إلى أنواع عديدة من الجواهر النفيسة.

- ألف ليلة وليلة، 10/3.

(2) حتى، فيليب: الإسلام منهج حياة، ص 184.

(3) مروج الذهب ومعادن الجواهر، 337/4.

(4) علي بن ماهان: (علي بن عيسى بن ماهان، ... - 195هـ/... - 811م): من كبار القادة في عصر الرشيد والأمين العباسيين. وهو الذي حرّض الأمين على خلع المأمون من ولاية العهد. وسيره الأمين لقتال المأمون بجيش كبير، وولاه إمارة همدان وأصبهان وقمّ وتلك البلاد، فخرج من بغداد في أربعين ألف فارس، فتلّقاه طاهر بن الحسين قائد جيش المأمون في الرّي، فقتل ابن ماهان وانخرم أصحابه.

- الزركلي، خير الدين: الأعلام، 317/4.

(5) لمزيد من الاطلاع: ينظر: الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، ص 214.

العباسية. ويُروى أن الشاعر أشجع السُّلمي<sup>(1)</sup> دخل على محمد الأمين، وقد أُجسّس مجلس الأدب للتعليم، وهو ابن أربع سنين، فأنشده مادحاً:

ملك أبوه وأمه من نَبْعَةٍ<sup>(2)</sup> منها سراج الأُمَّة الوهاجُ  
شربت بمكة في ربا بطحائها<sup>(3)</sup> ماء النبوة ليس فيها مزاج

فما كان من السيدة زبيدة إلا أن أُعجبت بهذا المديح، ووهبت قائله مائة ألف درهم<sup>(4)</sup>.

إنَّ حكمة السيدة زبيدة وعقلها لم يمنعاها، أيضاً، من تبذير أموال الشعب على القضاة والفقهاء المقربين من قصر زوجها ببغداد. ويُروى أنّها «كتبت مسألة إلى أبي يوسف<sup>(5)</sup> تستفتيه فيها، فأفتاها بما وافق مرادها (...) فبعثت إليه بحق<sup>(6)</sup> فضة فيه حقان من فضة في كلِّ حقّ لون من الطيب، وجام<sup>(7)</sup> ذهب فيه دراهم، وجام فضة فيه دنانير، وغلّمان وتخت<sup>(8)</sup> من ثياب»<sup>(9)</sup>.

(1) أشجع السُّلمي: (أشجع بن عمرو السُّلمي، أبو الوليد، ... - نحو 195هـ/... - نحو 811م): شاعر فحل، كان معاصراً لبشار. وُلد باليمامة ونشأ في البصرة، وانتقل إلى الرقة واستقرَّ ببغداد. مدح البرامكة وانقطع إلى جعفر بن يحيى فقربه من الرشيد، فأعجب الرشيد به، فأثرى وحسنت حاله، وعاش إلى ما بعد وفاة الرشيد وورثاه.

- الزركلي، خير الدين: الأعلام، 331/1.

(2) النَّبْعَةُ: واحدة شجرة النَّبْع. وتستعمل للقوس. ويقال: "هو من نَبْعَةٍ كريمة" أي من أصل كريم. - المنجد في اللغة، مادة: نبع، ص 786.

(3) البطحاء: مسيل واسع فيه رمل وحصى.

- المنجد في اللغة، مادة: بَطْح، ص 41.

(4) الأصفهاني: الأغاني، 226/18.

(5) أبو يوسف: (يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري، 113 - 182هـ/731 - 798م): صاحب الإمام أبي حنيفة، وتلميذه، وأوّل من نشر مذهبه. كان فقيهاً علامة، من حفاظ الحديث. ولد بالكوفة، وتفقه بالحديث والرواية، ثم لزم أبا حنيفة النعمان، وولي القضاء ببغداد أيام المهدي والهادي والرشيد، ومات في خلافته، ببغداد، وهو على القضاء. وكان واسع العلم بالتفسير والمغازي وأيام العرب.

- الزركلي، خير الدين: الأعلام، 193/8.

(6) الحُقّ: الوعاء.

- المنجد في اللغة، مادة: حقّ، ص 144.

(7) الجّام: الكأس (فارسيّة).

- م. ن، مادة: جام، ص 111.

(8) التَّخْتُ: خزانة الملابس.

- م. ن، مادة: تَخْتُ، ص 59.

(9) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، 372/3.

## ب - ملامح إحدى جواري السيدة زبيدة

لم تكن السيدة زبيدة هي المتسلطة الوحيدة بين نساء قصر الرشيد ببغداد، فقد كانت عدوى التسلّط وباءً مستفحلاً أصاب ساكني القصر، من رجال ونساء وجوار، وكانت جواري السيدة زبيدة يقتدين بسيدتهنّ، في ممارسة البطش والسطوة، والجريمة أحياناً، وهذا ما تشير إليه إحدى الحكايات الفرعية في حكاية: «الأحذب وملك الصين». ففي الحكاية يشاهد أحد أولاد التجار الأثرياء - لا يذكر الراوي اسماً له - جارية جميلة من جواري السيدة زبيدة، وسرعان ما يقع تحت تأثير جسدها، باعتبارها امرأة جميلة وثريّة. يقول عنها: «رأيت صبيّة لم ترّ عيني أحسن منها، عليها حلّي وحُلّ فاخرة»<sup>(1)</sup>. ولأنّ الوصول إلى نساء السلطة وجواريتها في الليالي صعب جدّاً، ويبدو مستحيلاً أحياناً - إذ يصبح الاقتراب منهنّ مخفوفاً بالمخاطر التي تصل حدّ القتل أحياناً، وبخاصّة إذا كان الراغب في هاته النسوة من طبقة أدنى من طبقتهنّ في الترتيب الطبقيّ الذي يتحكّم في علاقات ألف ليلة وليلة الإنسانية والاقتصادية - فإنّ ابن التاجر لن يستطيع الوصول إلى جسد هذه الجارية إلاّ بصعوبة بالغة. فماذا يفعل إذا؟ هل يتراجع عن حبّها؟ هل يقامر ويقتحم أسوار القصر وبواباته بالحيلة، ولو كان في ذلك مقتله؟. هو لا يستطيع أن يتراجع، لأنّ سلطة المرأة الجميلة على رجال ألف ليلة وليلة، مهما كانت مراتبهم الطبقيّة، سلطة طاغية مغرية لا تُقاوم، وإن حاول الرجال منع أنفسهم من الوقوع في فخّ إغرائها، فإنّ ذلك يعني الموت الحتميّ لهم<sup>(2)</sup>، أو يعني الجنون<sup>(3)</sup>، أو النحول والمرض الشديد<sup>(4)</sup>. فابن التاجر، قبل أن يرى وجه الجارية رأى قوامها، فاعتقد

(1) ألف ليلة وليلة، 1/139 - 140.

(2) يموت بعض عشاق ألف ليلة وليلة، إن لم يتمكّنوا من الوصول جنسياً إلى عشيقاتهم، أو لأنّ المرأة المعشوقة الجميلة ترفضهم.

- م. ن، 213/2، 386.

(3) م. ن، 248/2.

(4) يقول الراوي عن الأمير تاج الملوك الذي لم يستطع الوصول إلى جسد عشيقته الأميرة دنيا: "و ما زال تاج الملوك على ذلك [على حبّ دنيا] أياماً وليالي وهو لا ينام، وقد تمكّن الغرام منه وزاد به النحول والإسقام، حتى حُرِمَ لذيق المنام وامتنع عن الشراب والطعام".

- م. ن، 52/2.

جازماً أنّه لم يرَ أحسن منها، وعندما كشفت وجهها، تأكّد أنّه لن يستطيع الصبر عنها. يقول<sup>(1)</sup>: «ثمّ كشفت عن وجهها فنظرتها نظرة أعقتني ألف حسرة، وتعلّق قلبي بمحبّتها وجعلت أكرّر النظر إلى وجهها».

إنّ ابن التاجر لا يستطيع أن يترك الجارية الجميلة تغادر دكانه، في سوق التجار، من دون أن يحبّها محبة عميقة، لأنّه على مستوى بنية الحكاية، يبدو من الضروريّ أن يجعل الراوي بطله ابن التاجر متعلّقاً بالجارية، وذلك حتى تنمو الحكاية مُشكّلة علاقات وفضاءات جديدة في قصر الخليفة الرشيد، يستطيع الراوي من خلالها أن يصل بالحدث الحكائي إلى ذروته التشويقية، بعد أن تكتمل الوحدات السردية، ويكون بذلك قد بثّ رؤيته الإيديولوجية المعادية لسلطة الحرّيم في القصر، أو المساندة لها. وطالما أنّ البطل التاجر لا يستطيع أن يتراجع عن حبّ هذه المرأة فليغامر حتى يكسب ودّها وعطفها عليه. ولأنّ معظم نساء ألف ليلة وليلة لا يلنّ أمام الرجال، إلّا إذا سفحوا الأموال والهدايا أمام أقدامهنّ، اضطرّ هذا التاجر لأنّ يشتري أجمل الملابس وأغلاها من دكاكين زملائه، والتي بلغت قيمتها خمسة آلاف درهم، وأن يثق بها، ويسمح لها بأن تحملها إلى مقصورتها بقصر الرشيد، من دون أن تدفع درهماً واحداً<sup>(2)</sup>.

إنّ هذه الجارية تتموضع تقريباً في أعلى السلم الاجتماعي، لأنّها تعيش مدلّلة، وحظية عند السيدة زبيدة. ومن هنا فإنّ أخلاقها تغدّت بأخلاق نساء القصر وعاداتهنّ، وعلاقتهنّ الحذرة والمعقدة، والفوقية، وقد استمرت هذه الجارية في قصر الرشيد جميع الملذّات، وأسباب الحياة الرغيدة الفارحة. وهاهي مصادفات الليالي تقودها إلى أن تحبّ رجلاً أدنى منها طبقة، حبّاً جنسياً، بعد أن أبدى لها من الذلّ والخضوع والاستجداء ما يريق كل ماء وجهه يقول<sup>(3)</sup>: «ثمّ بكيت فقالت لي مالك تبكي (...). قلت لها: تصدّقي على مملوكك واسمحي له فيما يقول، ثمّ حدّثتها بما في خاطري».

(1) ألف ليلة وليلة، 1/140.

(2) م. ن، 1/140.

(3) م. ن، 1/141.

ويبدو أن هذه الجارية تعي أنها تستطيع أن تمتلك هذا التاجر، بعد أن أبدى اندفاعه الجنسي الأهوج صوب جسدها، لكنّها لن تمنحه هذا الجسد بسهولة كآية فتاة عاشقة تنتمي إلى طبقة غير طبقة السلطة، وتحبّ محبة خالصة، وتطمح في زوج محبّ، يضحّي لأجلها، لتهمه كلّ حياتها وأموالها<sup>(1)</sup>، بل ستطبّق عليه مفاهيم القصر الاستعماريّة والاستبدادية، الحاملة لها، وستدله قبل أن تمنحه جسدها، وتضعه في اختيار صعب قد يؤدي بحياته، إذ يطلب منه خادم هذه الجارية - الذي هو أحد سكّان القصر، والذي يُعدّ ممثلاً لفكر السلطة الاستبدادي - أن يقامر، ويضع روحه على حدّ السيف، فإذا نجح في التسلّل إلى فضاء القصر متخفياً، من دون أن يراه أيّ حارس من حراس القصر أو جواسيسه، فإنّه يكسب المقامرة، ويستطيع الزواج بالجارية، وإن اكتشف أمره ضرب عنقه. يقول له خادم الجارية<sup>(2)</sup>: «ونحن نريد في هذه الساعة أن ندخل بك الدار، فإن دخلت ولم يشعر بك أحد وصلت إلى تزويجك إيّاها وإن انكشف أمرك ضربت رقبتك، فماذا تقول؟ فقلت: نعم أروح معك وأصبر على الأمر الذي حدثني به». وعموماً يبقى هذا الشرط شرطاً تعجيزياً، لأنّ السلطة متيقّنة من أنّها محصّنة في جميع فضاءاتها، ومن المستحيل اختراق هذه الفضاءات، إلّا أنّ الراوي المتعاطف مع بطله التاجر، والذي يريد لحكايته أن تزداد تشويقاً وإثارة، يخرق فعل السلطة التحصيني، ويجعل بطله متجاوزاً لأسوار القصر وحراسه، دون أن ينكشف أمره.

وإذا كان هذا الشرط يدلّ على قدر كبير من إجحاف طبقة السلطة ولؤمها، ورغبتها في الانتقام من الطبقات الدونيّة التي تفكّر بالارتقاء إلى مكانتها الطبقيّة السلطوية، فإنّ الرجل في الليالي المستلب والخانع دائماً لرغبات السلطة ونزواتها، أملاً في أن تقبله، وتضمّه إلى حاشيتها، يرضى بهذا الشرط، ولو كان في ذلك حتفه، وإذ يجعل الراوي بطله يجتاز اختبار الموت، ويصل إلى مقصورة الجارية في قصر الرشيد، ويجعل السيدة زبيدة ترضى بهذا البطل التاجر بعلاً لحظيتها الجارية -

(1) وذلك كما تشير إليه حكاية "النصراني لملك الصين" الداخلة ضمن حكاية "الأحدب وملك الصين".

- لمزيد من الاطلاع ينظر: م. س، 1/136 - 137.

(2) ألف ليلة وليلة، 1/141.

لا يذكر الراوي اسماً لهذه الجارية - وتسمح له بالبقاء في القصر استعداداً لهذا الزواج<sup>(1)</sup>، فإن منطق السلطة لن يديم لهذا البطل لذاته بالاستمتاع طويلاً بموائد القصر، وبجسد هذه الجارية السلطوية، لأن نساء السلطة نزقات ومزاجيات، ولا يعرفن حباً أو وفاءً للرجال الأدنى منهنّ طبقياً، وهنّ غير مستعدات لأن يتسامحن مع أيّ خطأ قد يرتكبه الزوج العشيق، مهما كان هذا الخطأ بسيطاً وتافهاً. بل إن هذا المنطق لن يسمح للرجل بالاقتراب من الجارية، وهو على أبواب ليلته الأولى، لأنه أخطأ وأكل الزيرباجة<sup>(2)</sup> من دون أن يغسل يديه<sup>(3)</sup>. فعندما يقترب منها، ويعانقها، تشم رائحة يديه، فتنفجر عدوانيتها ضده لأنه لا يعرف كيف يتعامل مع آداب القصر، وأعرافه، ويغسل يديه جيداً قبل أن يعانق زوجته المستبدة. عندها تأخذ سوطاً وتبدأ بجلده جلدًا وحشياً. يصف الرجل حالته، بعد أن أكل الزيرباجة قائلاً<sup>(4)</sup>:

« ثم إنهم قدّموا سفرة طعام فما يدهش العقول، فوالله حين حضرت المائدة ما أمهلت نفسي حتى نزلت على الزيرباجة وأكلت منها ومسحت يدي ونسيت أن أغسلها، ومكثت جالساً إلى أن دخل الظلام وأوقدت الشموع وأقبلت المغنّيات بالدفوف، ولم يزالوا يجلبون العروسة وينقون بالذهب حتى طافت القصر كله، وبعد ذلك أقبلوا عليّ ونزعوا ما عليها من الملبوس، فلما خلوت بها في الفراش، وعانقتها وأنا لم أصدّق بوصالها شمت في يدي رائحة الزيرباجة، فلما شمت الرائحة صرخت فنزل لها الجوّاري من كلّ جانب، فارتجفت ولم أعلم ما الخبر، فقالت الجوّاري: ما لك يا أختنا، فقالت لهم:

(1) يقول الراوي: "ثم أمرتني [زبيدة] أن أقيم عندهم عشرة أيام، فأقمت هذه المدة عندهم (...) وبعد هذه المدة استأذنت السيدة زبيدة زوجها أمير المؤمنين في زواج جاريتها".

- م. ن، 142/1.

(2) الزيرباجة: نوع من الطعام يتألف من لحم الدجاج والطيور، ويضاف إليه التوابل والحمص واللوز المقشّر.

(3) ترد هذه الحكاية، وباختلافات جدّ طفيفة عند التنوخي، أبو عليّ المحسن بن عليّ: الفرج بعد الشدة،

السفر الثاني، من ص 250 إلى ص 369.

(4) ألف ليلة وليلة، 142/1 - 143.

أخرجوا عني هذا المجنون فأنا أحسب أنه عاقل، فقلت لها وما الذي ظهر لك من جنوبي؟ فقالت: يا مجنون لأي شيء أكلت من الزيرباجة. ولم تغسل يديك؟ فوالله لا أقبلك على عدم عقلك وسوء فعلك<sup>(1)</sup> (...) ثم تناولت من جانبها سوطاً ونزلت به على ظهري حتى غبت عن الوجود من كثرة الضرب ثم إنها قالت للجواري خذوه وامضوا به إلى متولّي المدينة ليقطع يده التي أكل بها الزيرباجة ولم يغسلها».

ويدهش الرجل من هذه الزوجة الجائرة التي تصمّم على قطع يده - مجرد أنه أكل ونسي أن يغسل يديه - قبل أن تمنحه نفسها، بوصفه صار زوجاً لها. وتشفع جواربها له، متوسلة إليها أن تعفو عنه، إلا أنها تصمّم على أن تنتقم منه لارتكابه هذا الخطأ البسيط. وبعد شفاعة الجواري تكتفي بقطع إهامي يديه ورجليه، لتظلّ في جسده علامة فارقة أبدية، كدليل على مخالفته آداب الطعام في القصر، وبالتالي قيم السلطة وأخلاقها، ولكي تلقنه درساً يتعظ من خلاله، ويروض نفسه لكي يظلّ عبداً وخادماً مطيعاً لها، طالما تنازلت عن طبقتها السلطوية، ورضيت به زوجاً، على الرغم من دونية طبقته، وسوء فعله. يقول<sup>(2)</sup>: «فلما سمعت ذلك قلت لا حول ولا قوّة إلا بالله. أتقطع يدي من أجل أكل الزيرباجة وعدم غسل يأيها. فدخلت عليها الجواري، وقالت لها يا أختنا لا تؤاخذه بفعله هذه المرة. فقالت والله لا بدّ أن أقطع شيئاً من أطرافه. ثم راحت وغابت عني عشرة أيام ولم أرها بعدها ثم أقبلت عليّ وقالت يا أسود الوجه أنا لا أصلح لك فكيف تأكل الزيرباجة ولا تغسل يدك، ثم صاحت على الجواري فكتفوني وقطعت إهامي يدي وإهامي رجلي».

(1) في نصّ التنوخي نقرأ ما يلي: "ثم خلوت بها، وانصرف الناس. فحين تقدّمت إليها وقبّلتها، رفستني فرمت بي عن المنصة، وقالت: أنكرت أن تفلح يا عامي، أو تصلح يا سفلة، وقامت لتخرج. فتعلّقت بها، وقبّلت يديها ورجليها، وقلت: عرفيني ذني، واعلمي بعده ما شئت. فقالت: وبلك، تأكل، ولا تغسل يدك؟ وأنت تريد أن تختلي بمثلي؟".

- الفرج بعد الشدة، 366/2.

(2) ألف ليلة وليلة، 143/1.

إن ما يثير الغرابة في سلوك هذه المرأة المستبدة، بنزعتها التدميرية الوحشية ضد أقرب المقربين إليها - زوجها - أنها أحسّت بالرّضي عندما شاهدت زوجها وقد بُترت بعض أطرافه، وعندما أقسم لها أنّه ما دام حيّاً لن يأكل الزيرباجة، إلّا ويغسل يديه بعدها «أربعين مرّة بالأشنان»<sup>(1)</sup> وأربعين مرّة بالسُّعد<sup>(2)</sup> وأربعين مرّة<sup>(3)</sup> بالصابون<sup>(4)</sup>. عندها عطفت عليه ومنحته خمسين ألف دينار، وطلبت منه أن يشتري داراً فسيحة، ثم نقلت جميع ما عندها في مقصورتها، بقصر الرشيد، من أموال وقماش وتحف إلى هذه الدار<sup>(5)</sup>. والمثير للغرابة أيضاً، كيف يرضى هذا الرجل أن يعيش مع هذه المرأة التي أهانتها، وأجرت بحقه، قاطعة أطراف أصابعه؟! وكيف يستطيع أن يحبّها، أو يكون مخلصاً لها، بعد أن قطعت بعض أطرافه؟

وإذا كان الراوي في بداية الحكاية قد أكّد أنّ هذه الجارية قد أحبتّ التاجر حبّاً عميقاً، وأنها عاشقة له، أكثر ممّا هو عاشق لها، وأنها تأتيه إلى دكانه بأحد أسواق بغداد، لا لحاجتها لشراء القماش، بل لأنّها تحبّه<sup>(6)</sup>، فإنّه لن يستطيع إقناع المتلقّي، بأنّ هذه المرأة تحبّ هذا التاجر، ولا سيّما بعد أن عاملته كأحطّ عبد من عبيدها، واحتقرته، وساطته، وقطعت أطرافه.

(1) لأشنان والإشنان: ما نغسل به الأيدي من الحمض، وهو أنواع ألطفها الأبيض والأصفر، وكلاهما مُنقّ.  
"يونانية".

- المنجد في اللغة، مادة: أشن، ص 12.

(2) السُّعد: نبات من فصيلة وحيدات الفلقة يشبه النجيليّات بساقه وأوراقه، منه نوع ينتج بصلاً صالحاً للأكل.

- م. ن، مادة: سعد، ص 334.

(3) في نص التنوخي: يكتفي الرجل بأن يقسم لزوجته أن يغسل يده أربعين مرّة، فيما إذا عاد وأكل الزيرباجة ثانية، دون أن يحدّد الراوي اسم المادة المستعملة في الغسل، عندها تعفو المرأة عنه دون أن تمسّه بأذى. يقول النص: "قلت: وعليّ، وعليّ، وحلفت بأيمان مغلظة، لا أكلت بعد هذا زيرباجة، إلّا وغسلت يدي أربعين مرّة. فأشفقت وتبسّمت. وصاحت: يا جوارى، فجاء مقدار عشر جوارى ووصائف فقالت: هاتم شيئاً للأكل. فقلّدت إلينا مائدة حسنة، وألوان فاخرة، من موائد الخلفاء، فأكلنا جميعاً، واستدعت شراباً، فشربنا، أنا وهي، وغتّى لنا بعض أولئك الوصائف".

- الفرّج بعد الشدّة، 367/2.

(4) ألف ليلة وليلة، 1/143.

(5) م. ن، 1/143.

(6) م. ن، 1/141.

إن علاقة الزواج بين الرجل التاجر وبين المرأة الحظيئة، في سلم السلطة، لا يمكن أن تكون متكافئة، لأنها تعني استلاب الطرف الأقل مرتبة وتقزيمه - طبقة التجار - من قبل الطرف الأعلى مرتبة - طبقة السلطة - وبالتالي تعني تكريس عبوديته ودونيته، مقابل سيادة الطرف الأعلى، الذي لا يرى في الطرف الآخر أية مميزات من شأنها أن ترفعه وتضعه في مرتبة ندية له. ومن هنا فإنه سيظل ينظر إليه بازدراء وتعجرف، ولا يراه إلاّ عديم العقل، وسيئ الفعل وأسود الوجه، بتعبير راوي الحكاية. فالعلاقة الجنسية في المجتمعات الطبقيّة الأموية والعباسية، وبين المتسلط والضعيف، تأخذ طابعاً اضطراريّاً ووفقاً لرؤية إيديولوجية تحدّد طبيعة العلاقة بين الحاكم والمحكوم، بين القوي والضعيف، بين من يكون قادراً على صنع القرار وفرض شروطه، وبين من يُجبر على أن يكون عبداً لهذه الشروط، وبقمع السلطة وجبروتها. ولذا فإنّ هذه العلاقة ليست إلاّ تفريراً جنسياً شهوانياً قبل أن تكون توقاً عاطفياً نبيلاً قوامه الحبّ الخالص، لأنّ «الحبّ الصحيح لا يمكن وجوده بين رئيس ومرؤوس، بين سيّد وعبد، وإنّما يوجد بين شخصين متساويين في المنزلة والكرامة، والمساواة الجنسية قاعدة المساواة الاجتماعية». على حدّ تعبير الباحثة أليكس كيتس شولمن<sup>(1)</sup>.

إنّ السلطة في بعض حكايات ألف ليلة وليلة، وفي بعض فئات المجتمع لأخرى التي تنضوي تحت مظلة السلطة، من قريب أو من بعيد، لا تتوانى في أن ترتكب الجرائم في طبقات شعوبها، سواء أكانت هذه الشعوب معارضة لها، أو مسالمة راضية بكل خططها وتوجهاتها. ومن أهمّ جرائم هذه السلطة جريمتا القتل، وبتّر الأطراف - أطراف اليدين والرجلين، أو أجزاء منها - أو الشفتين، أو قلع العينين، أو بتر الأعضاء التناسليّة الذكريّة عند العبيد الذين يخونون أسيادهم، ويعتدون على زوجاتهم وبناتهم اعتداءً جنسياً، أو عند الأحرار الذين يتعرّضون للغزو، ومن ثمّ السبي، ليباعوا كعبيد في أسواق الرقيق<sup>(2)</sup>. فالرجل التاجر في الحكاية السابقة رجل

(1) عن/غريب، روز: "المرأة المعاصرة والجنس"، مجلة قضايا عربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، العددان 12/11، السنة الثامنة، تشرين الثاني/نوفمبر، كانون الأول/ديسمبر 1981م، ص 34.

(2) لمزيد من الاطلاع، يُنظر جرائم بتر العضو الذكري في ألف ليلة وليلة: 180/1، 221، 225؛ 41/2، 43؛ 141/3. وجريمة قطع اليد في: 135/1، 149. وجريمة قطع الشفتين في: 177/1. وجريمة قلع العينين في: 169/1.

مسالم وعاشق، وليس معادياً لأية شريحة من شرائح السلطة، ومع ذلك لم تسلم أطرافه من البتر، هذا البتر الذي سيُشهرُّ به في أية مدينة أو منزل يحلُّ بهما، والذي سيجعله مثيراً لاستغراب الآخرين وتساؤلهم، وخائفاً مضطرباً، ومداناً في أعين الآخرين، مجرمة لم يرتكبها. يقول الراوي عن الرجل التاجر الذي بترت حظية السيدة زبيدة إهاميّ يديه ورجليه: «ثم تقدم وهو متكبره وجلس ومدّ يداً وهو مثل الخائف ووضع يده في الزيرباجة وصار يأكل وهو حزين ونحن نتعجب منه غاية العجب، ويده ترتعد فنصب إهام يده فإذا هو مقطوع وهو يأكل بأربعة أصابع»<sup>(1)</sup>. ويقول أحد الباحثين بصدد هذه الأطراف المبتورة: «إنّ جراح المجتمع الوسيط تتحوّل في النصّ [نصّ ألف ليلة وليلة] إلى أطراف مبتورة وسيقان مكسورة في سياق من السخرية التي تحتاح كلّ شيء»<sup>(2)</sup>.

إنّ القراءة الأولى لحكايات ألف ليلة وليلة تؤكد أنّ المرأة المتسلطة أو الزانية أو القوادة وراء معظم جرائم ألف ليلة وليلة. وأنّ هذه الجرائم التي كان ضحيتها الرجال بالدرجة الأولى كانت نتيجة لغيرة النساء وبطهرنّ ومكايدهنّ، ونتيجة لرغبة الرجال في السيطرة عليهنّ وامتلاكهنّ امتلاكاً جنسياً، أو للصراع بين الرجال للظفر بهنّ. وهنا يمكن القول: إنّ ثمة إيديولوجيا مسبقة معادية للمرأة، يؤمن بها الرواة، ويريدون بثّها ضمن مجموعة الرؤى الأخرى التي يقحمونها على الخطاب الحكائي في ألف ليلة وليلة. ومن ملامح هذه الرؤية، تلك الأوصاف السيئة التي تُطلق على بعض نساء الليالي، فمنهنّ الزواني اللواتي يذكهنّ الرواة صابئين لعناقم عليهنّ «لعن الله الزانيات»<sup>(3)</sup>. ومنهنّ الخائئات الناقصات عقلاً وديناً: «لعن الله النساء الخائئات الناقصات عقلاً وديناً»<sup>(4)</sup>.

ومن مظاهر الإيديولوجيا الرجولية المعادية للمرأة: أنّ الراوي الرجل يلجأ أحياناً إلى بثّ إيديولوجيته بأن يشكّل امرأة ما، ثم يجعلها تقتنع بأنّ بنات جنسها

(1) م. ن، 1/139.

(2) بدوي، د. محمد: "موت الأحذب وقيامته"، مجلّة فصول، المجلد الثالث عشر، العدد الثالث، خريف 1994م، ص 200.

(3) ألف ليلة وليلة، 1/40.

(4) م. ن، 2/293.

فاجرات، وعندما تقتنع المرأة تنطلق باثةً هذه الإيديولوجيا. وهاهي الملكة نور الهدى تقول لأختها منار السنا: «أتتكلمين يا عاهرة أمامي، وتعتذرين فيه عن الذي فعلتية من الكبائر (...) لأنك تفتخرين بالذي وقع منك من الفجور والفحش والكبائر»<sup>(1)</sup>.

### ج - بعض ملامح استبداد إحدى الملكات الأسطوريّات في الليالي

ومن النماذج الأنثويّة السلطوية المستبدّة في ألف ليلة وليلة، الملكة نور الهدى. فعندما تعلم هذه الملكة من إحدى عجائز واق الواق المهمّات والمقرّبات منها، أنّ إحدى نساء جزائر واق الواق تزوّجت شاباً من بغداد يُدعى حسن البصري، تشور مهتاجة على العجوز، راغبة في قتلها. يقول الراوي<sup>(2)</sup>:

« فلما سمعت الملكة كلامها [ أي كلام العجوز ] وفهمت قصّة حسن غضبت غضباً شديداً وأطرت برأسها إلى الأرض ساعة، ثم رفعت رأسها ونظرت إلى العجوز وقالت لها يا عجوز النحس هل بلغ من خبثك أنك تحمّلين الذكور وتأتين بهم معك إلى جزائر واق الواق؟ ثم تدخلين بهم عليّ ولا تخافي من سطوتي؟ وحقّ رأس الملك لولا مالك عليّ من التريبة لقتلتك أنت وإياه في هذه الساعة أقبح قتلة، حتى يعتبر المسافرون بك يا ملعونة لئلاّ يفعل أحد مثل ما فعلت من هذه الفعلة العظيمة التي لا يقدر عليها أحد، ولكن أخرجني وأحضريه في هذه الساعة حتى أنظره ».

وتخرج العجوز، وتحضر حسناً البصري الذي استنجد بها طالباً معونتها للوصول إلى زوجته، فتأخذه العجوز إلى مجلس نور الهدى، وفي المجلس يشرح لنور الهدى قصّة زواجه بزوجه، ويستعطفها لكي تساعد على الوصول إليها، عندها تقرّر نور الهدى أن تعرض عليه نساء جزيرتها، فإنّ عرف زوجته أخذها وإن لم يعرفها فإنّها ستقتله. تقول له<sup>(3)</sup>: «قد عزمت على أن أعرض عليك كل بنت في

(1) م. ن، 346/4.

(2) ألف ليلة وليلة، 329/4.

(3) م. ن، 331/4.

المدينة وفي بلاد جزيرتي، فإن عرفت زوجتك سلّمتها إليك وإن لم تعرفها قتلتك وصلبتك على باب دار العجوز». ولأنّ زوجته منار السنا كانت مقيمة في جزيرة أخرى من جزائر واق الواق، غير الجزيرة التي تحكمها نور الهدى، فإنّه لم يجدها بين نساء جزيرة نور الهدى. وعندما لم يجدها حقدت الملكة عليه، لأنّه اجترأ وتزوَّج بإحدى نساء الجزيرة المحظور عليهنّ الزواج بالغرباء من جهة، ولأنّه غامر واجترأ على دخول جزيرتها المحصّنة بوجوه جميع الغرباء من جهة أخرى، فقرّرت أن تقتله: «فغضبت وصرخت على من حولها، وقالت: خذوه واسحبوه على وجهه فوق الأرض، واضربوا عنقه لئلاّ يخاطر بنفسه أحد بعده، ويطلّع على حالنا ويجوز علينا في بلادنا، ويطأ أرضنا وجزائرنا فسحبوه على وجهه ورفعوا ذيل ثوبه (...). وأغمضوا عينيه ووقفوا بالسيوف على رأسه ينتظرون الإذن»<sup>(1)</sup>.

وتستمر الحكاية، وترجو العجوز الملكة نور الهدى، أن تكشف وجهها. لأنّ حسناً البصري رأى كلّ نساء الجزيرة سوى الملكة نور الهدى. تقول العجوز<sup>(2)</sup>: «وما بقي فينا من النساء واحدة لم يرها [كذا] إلاّ أنت فأريه وجهك؟ فتبسّمت الملكة وقالت من أين له أن يكون زوجي وخلف منّي أولاداً حتى أريه وجهي؟». وعندما تنزع الملكة قناعها، يسقط حسن البصري مغشياً عليه، عندها تلاطفه العجوز حتى يستيقظ. وما إن يستيقظ حتى يعلن قائلاً<sup>(3)</sup>: «إنّ هذه الملكة إمّا أن تكون زوجتي وإمّا هي أقرب الناس شبيهاً بزوجتي». فتعتقد نور الهدى أنّ المرأة التي يبحث عنها حسن البصري هي أختها منار السنا، وتعد العجوز بأنّها ستعمل على لقاءه بزوجته، وقد «أقسمت بجميع الأقسام أن تساعد على أخذها وعلى سفرها معه إلى بلاده، فوثقت العجوز

(1) ألف ليلة وليلة، 4/331.

- إلاّ أنّ العجوز القهرمانه تتقدّم إلى الملكة نور الهدى، وتقبّل الأرض بين يديها، وتتوسّل إليها أن تغفر عن حسن البصري وترحمه، بوصفه مسكيناً غريباً، وقد خاطر بنفسه وقاسى أموراً ما قاساها أحد قبله، ولذا من الوفاء والكرم أن تعتقه لأنّه "دخل بلادنا وأكل زادنا فوجب علينا إكرامه". على حدّ تعبير العجوز.

(2) م. ن، 4/332.

(3) م. ن، 4/332.

بكلامها، ولم تعلم بما أضمرته في نفسها. وقد أضمرت العاهرة في نفسها أنها إن لم تكن زوجته ولا أولادها يشبهونه تقتله»<sup>(1)</sup>.

من الملاحظ أنه أمام استبداد نساء السلطة وجبروتهن، يجترئ رواة ألف ليلة وليلة عليهن، ويصفوهن بالعواهر والخاطئات من دون وجل، وبخاصة إذا كانت هاته النسوة بعيدات عن الحقبة التاريخية التي يعرفها هؤلاء الرواة المسلمون، فالملكة نور الهدى بعيدة جداً، كونها تعيش في فضاء مكاني أقرب إلى التخيلي والأسطوري منه إلى الواقعي - جزائر واق الواق<sup>(2)</sup> - ومن هنا فقد اجترأ عليها راوي الحكاية، ووصفها بـ «الفاجرة العاهرة الظالمة الغاشمة»<sup>(3)</sup>، في حين أن راوياً آخر لم يستطع أن يصف زبيدة زوجة الرشيد بمثل هذه الأوصاف، ولم يستطع راو ثالث أن يصف جاريتها الحظيئة بأوصاف شتائية، على الرغم من وحشيتها وقطعها إهامي يدي ورجلي زوجها التاجر، كما أشير إلى ذلك سابقاً، لأن زبيدة وجاريتها عاشتا زمناً تاريخياً يعرفه الراوي جيداً، ويعرف علاقاته، ويعرف فضاءاته المكانية جيداً - فضاء مدينة بغداد - . ومن هنا فإن هذا الراوي لا يستطيع أن يجترئ على استخدام لغة واصفة فاحشة بحق هاته النسوة، لأنه يعي أن مثل هذه اللغة قد تثير حفيظة الوعي الجمعي الإسلامي ضده، هذا الوعي الذي يمكن أن يكون متعاطفاً مع نظام السلطة العباسية، ورافضاً أيضاً القدح في أخلاق النساء المعروفات، تأسيساً على النصّ القرآني الكريم: «إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ \* يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا

(1) م. ن، 335/4.

(2) يقول الباحث عبد الغني الملاح: "إن هذه اللفظة (واق الواق) لا تزال لحد الآن اسماً جغرافياً يقع في ساحل الجنوب الشرقي لأستراليا ويسمى (واغ واغ) أو يلفظ بالكاف الفارسية (واك واك). وقد ثبتت دائرة المعارف البريطانية في أطلسها بهذا اللفظ (Wagga Wagga) كما توجد في جزيرة سيليبس الأندونيسية هضبة اسمها (وا - وو Wa Wo) وهناك جزيرة صغيرة قرب جزيرة (غينيا الجديدة) تابعة إلى أندونيسيا أيضاً اسمها (ويك أو Eo Waig) فهذه الأسماء الجغرافية المعروفة والتي ثبتت أسماءها حسب ما يلفظها السكان المحليون تقودنا إلى الظن بل إلى الاعتقاد بأن البحار العربي وصل هذه الجزر النائية وسع أسماءها من أهلها (ويغ واغ) ونقلها إلى عربيته (واق واق)".

- رحلة في ألف ليلة وليلة، ص 51.

(3) ألف ليلة وليلة، 338/4.

كَأَنَّهُمْ يَعْمَلُونَ»<sup>(1)</sup>. وعلى سبيل المثال: على الرغم من تسلط السيدة دنيا البرمكية أخت الوزير جعفر البرمكي واستبدادها، وتعتكها، وسلوكها الوحشي مع زوجها محمد بن علي الجوهري، ورفسه برجليها من فوق السرير، وتصميمها على ضرب عنقه، لأنه خالفها وخرج من منزلها قاصداً قصر الخليفة الرشيد، ثم الاكتفاء، فيما بعد، بجلده جلدًا وحشياً ملأه جروحاً، بعد أن رجتها جواربها الكبار بالعبو عنه: «يا سيدتنا ليس هذا أوّل من أخطأ وهو لا يعرف خلقك وما فعل ذنباً يوجب القتل»<sup>(2)</sup>، على الرغم من كلّ ذلك، فإنّ راوي الحكاية لم يقل عنها كلمة سوء واحدة، بل وصف وجهها و«كأنه دائرة القمر»، وأنها مشعة بالحسن والجمال<sup>(3)</sup>.

إنّ السيدة دنيا البرمكية امرأة مسلمة، وهي بنت الوزير يحيى البرمكي، وأخت الوزير جعفر البرمكي، الذي كان الراوي يتعاطف معه في حكاية أخرى، ويراه سيّداً للأمرء وكهفياً للفقراء<sup>(4)</sup>، وكرماً يوجد بماله الخاص، لينقذ قاصديه ممن غلبهم الدين، وهزمتهم مصائب الحياة، كما تؤكد حكاية «سعيد بن سالم الباهلي مع البرامكة»<sup>(5)</sup>. ولأنّ الراوي كان يتعاطف مع البرامكة، وكان يتحدث عن امرأة مسلمة، ومرموقة تاريخياً، وتنتمي إلى البرامكة، فإنّه تغاضى عن استبدادها وجبروتها، وجلدها لزوجها محمد بن علي الجوهري، ولم يقل كلمة سوء واحدة فيها، في حين أنّه اجترأ على نساء سلطويات أخريات، ليس هنّ سند تاريخي، بوصفهنّ يعشنّ فضاءً زمانياً غير محدّد «في سالف الزمان»<sup>(6)</sup>، وفي مدن تخيّلية غير معروفة «جزائر الكافور التي تسكنها دنيا بنت الملك شهرمان»<sup>(7)</sup>. فبالإضافة إلى أنّ الراوي اجترأ على هاته النسوة اللاتي يقطنّ المدن التخيّلية، ونقل

(1) سورة النور، آية: 23 - 24.

(2) ألف ليلة وليلة، 439/2.

(3) م. ن، 435/2.

(4) م. ن، 90/1.

(5) م. ن، 173/3.

(6) ألف ليلة وليلة، 410/1.

(7) م. ن، 43/2.

بعض ملامحهنّ الاستبدادية، فإنّه وصفهنّ بالعهر، كما في حكاية «تاج الملوك ودنيا بنت الملك شهرمان»، وها هو الراوي في هذه الحكاية يضع الأميرة دنيا بنت الملك شهرمان في بؤرة الشرّ والاستبداد والاعتداء بالضرب على قهرمانتها، لأنّ هذه القهرمانة قامت بنقل رسالة عشق جريئة من الأمير تاج الملوك إلى سيّدتها دنيا. يقول الراوي<sup>(1)</sup>: «فصاحت [دنيا] على الجوّاري والخدم، وقالت: أمسكوا هذه العجوز الماكرة واضربوها بنعالكم، فنزلوا عليها ضرباً بالنعال حتى غشي عليها. فلما أفاقت قالت لها: والله يا عجوز السوء لولا خوفاً من الله تعالى لقتلتك. ثم قالت لهم: أعيّدوا الضرب. فضربوها حتى غشي عليها، ثم أمرتهم أن يجروها ويرموها خارج الباب، فسحبوها على وجهها ورموها قدّام الباب».

وبعد أن ينقل الراوي هذا الملمح الاستبدادي لهذه الأميرة، يدفع بطلته العجوز - وبعد أن ذاقت المهانة والضرب على يد سيّدتها الأميرة دنيا - لأن تجتريّ على هذه الأميرة، ولأن تؤكّد لبطله السلطوي العاشق أنّها ستساعده على الوصول إلى جسد سيّدتها. تقول له<sup>(2)</sup>: «طب نفساً وقرّ عيناً فإنّي لا أزال أسعى حتى أجمع بينك وبينها، وأوصلك إلى هذه العاهرة التي أحرقتني بالضرب».

ويبدو أنّه لا يمكن لشخص ألف ليلة وليلة التابعة للسلطة، والمقرّبة منها، أن تشعر بالأمان والطمأنينة في فضاءات هذه السلطة، - حتى ولو كانت هذه الشخصيات من أقرب المقرّبين إلى هذه الفضاءات - لأنّ رجال السلطة ونساءها مستبدّون وبطرون، ولا يراعون حرمة أحد من شعوبهم، وسريعو البطش بكلّ من يقف دون رغبتهم، أو من يعارضهم، أو من يسلك سلوكاً لا يعجبهم. ومن هنا نجد كثرة رجال السلطة في ألف ليلة وليلة ونساءها، الذين يسارعون إلى قتل وجلد وإهانة مواطنيهم لأسباب لا تستوجب أيّ نوع من أنواع العقوبات. فالسلطة لا ترضى إلاّ عن الذين يطيعونها الطاعة المطلقة، وينبطحون أمامها أذلاءً قانعين بكلّ

(1) م. ن، 61/2.

(2) م. ن، 61/2.

قراراتها وأفعالها، مهما كانت هذه الأفعال حمقاء وإجرامية. وقد «قالت الحكماء: من تعرّض للسلطان أرداه، ومن تطامن له تحطّاه. وشبهوه في ذلك بالريح العاصفة التي لا تضربُ بما لان لها من الشجر، ومال معها من الحشيش، وما استهدف لها من الدّوح العظام قصفته»<sup>(1)</sup>.

إنّ من يقرأ حكايات ألف ليلة وليلة جيّداً سيكتشف إلى أيّ مدى كانت حاشية السلطان، من الوزراء والقادة الكبار والجواري الحظايا وغير الحظايا والقهرمانات والعبيد والخدم، طائفة وذليلة، وتقبّل رجليه والأرض أمامه، وسيكتشف كم أهدر حكام الليالي، من أموال شعوبهم، على الشعراء المادحين لهم مدحاً تكسبياً، ويتساوى في ذلك الخليفة والملك والأمير. ولم تكن حاشية السلطان هي الطائفة الذليلة فحسب، بل ينضوي تحت سيف الطاعة كلّ أفراد المجموع الإنساني، في كلّ مدن ألف ليلة وليلة<sup>(2)</sup>.

وفي مدن ألف ليلة وليلة يتكرّس الاضطهاد والتعالي، بين طبقة السلطة وبين الطبقات الأدنى منها. فعلى سبيل المثال: عندما يتزوج فرد من طبقة دونية امرأة من طبقة السلطة، فإنّه لا يصل إلى مرتبة السلطة، بل يظلّ في مرتبته الدونية، ويظلّ مُحْتَقِراً في نظر هذه المرأة، إذ لا يستطيع الوصول إليها إلاّ بعد أن يستأذن حرّاسها، على الرغم من أنّها صارت زوجته، وهو لا يستطيع ممارسة دور الزوج إلاّ إذا شاءت هذه المرأة. فالأميرة نزهة الزمان في حكاية «الملك عمر النعمان وولديه شركان وضوء المكان»، وبعد أن يتزوجها أخوها الملك شركان، والي دمشق - لأنّها دخلت ملك يمينه وصارت جارية له بفعل الإهداء من دون أن يعلم أنّها أخته، وبعد أن يعلم فيما بعد أنّها أخته، يضطرّ اتّقاء للفضيحة أن يزوّجها لحاجبه - وبعد أن يتزوجها حاجب أخيها، يريد هذا الحاجب الزوج ذات مرّة الدخول إليها لينقل لها بعض الأخبار، فيضطرّ إلى أن يستأذن حرّاسها وخدمها الخاصّين الذين أحاطوها - وفقاً لبنية نظام الحجاب والحرس الذين لا يسمحون

(1) ابن عبد ربّه الأندلسي: العقد الفريد، 81/1.

(2) لمزيد من الاطلاع يُنظر ألف ليلة وليلة، 84/1، 413، 261/2، 339، 370، 433، 440، 329/4، 446. ومواضع أخرى كثيرة جداً.

لأحد بالدخول إلى أسيادهم إلا بعد أن يستأذنوا هؤلاء الأسياد - يقول الراوي<sup>(1)</sup>:  
«ثم نزل [أي زوجها] من بعيد هو ومماليكه وأمر الخدم أن يستأذنوا السيدة  
نزهة الزمان في أن يدخل عليها، فاستأذنها في شأن ذلك، فأذنت له فدخل  
عليها واجتمع بها».

---

(1) م. ن، 333/1.

ملاح بعض النساء السلطويات الزواني  
في ألف ليلة وليلة، وبعض ملاح  
الإيديولوجيا الرجولية المعادية لهنّ

ليست نساء السلطة في ألف ليلة وليلة مستبدّات طاغيات فحسب، بل يوجد فيهنّ الزواني اللواتي يخنّ أزواجهنّ كلّما سنحت لهنّ الفرصة بذلك، فهنّ يخططن لهذه الخيانة ويحتلن على أزواجهنّ ليذهبن إلى عشاقهنّ، وبخاصّة إذا كانت هاته النسوة مُتخيّلات، وغير معروفات في الواقع التاريخي، مع العلم أنّ هؤلاء الأزواج، كما يصوّرهم الرواة، أوفياء لهنّ، ومؤمنون تقاة في بعض الأحيان. ففي حكاية «الحشاش مع زوجة أحد الأكابر»، يصوّر الراوي زوجة أحد الرجال المهمّين في حقل السلطة، بصورة المرأة الزانية التي تنتقم من زوجها شرّ انتقام، لأنّها ضبطته يزني بإحدى جواربها، إذ أقسمت يمينا بأنّها ستنتقم منه، وتزني مع أقدر الناس وأحطّهم منزلة. تقول المرأة<sup>(1)</sup>: «أثقت أنّي كنت أنا وإياه قاعدين في الجنية داخل البيت، وإذا هو قد قام من جانبي وغاب عني ساعة طويلة، فاستبطأته، فقلت في نفسي لعله يكون في بيت الخلاء، فنهضت إلى بيت الخلاء، فلم أجده، فدخلت المطبخ فرأيت جارية فسألته عنه فأرتني إياه وهو راقد مع جارية من جوارب المطبخ، فعند ذلك حلفت يمينا مغلظة أنّي لا بدّ أن أزي مع أوسخ الناس

(1) ألف ليلة وليلة، 424/2 - 425.

وأقذرهم». عندها تخرج المرأة بصحبة خدمها وحرّاسها ليجوسوا خلال الشوارع والأزقة باحثين عن طلب المرأة وما إن يشاهدها الناس حتى يفرّوا مذعورين من بطشها. يقول الحشّاش<sup>(1)</sup>: «فوجدت الناس هارين، فقال واحد منهم: ادخل هذا الزقاق لئلاّ يقتلوك. فقلت: ما للناس هارين؟ فقال لي واحد من الخدم: هذا حريم لبعض الأكابر. وصار الخدم يُنحّون الناس من الطريق قدامها، ويضربون جميع الناس ولا يباليون بأحد».

ويمكن أن يتساءل متلقّي الحكاية: طالما أنّ المرأة السلطوية تخرج باحثة عن رجل وسخ لتزني به، انتقاماً من زوجها الزاني، فما ذنب هذا القطاع العريض من الناس الذي يتجول في الشوارع باحثاً عن لقمة عيشه، حتى يتعد مذعوراً عن طريق هذه المرأة المستبدّة، وحتى يُهان ويُضرب، من دون أن يرتكب أيّ ذنب؟. يبدو أنّ المستبدّين والطغاة في ألف ليلة وليلة، رجالاً ونساءً، كانوا يجدون لذة في تعذيب الناس وقهرهم، وكان يحسّون بالرضى بملأ نفوسهم، وهم يشاهدون الناس البسطاء يفرّون مذعورين أمامهم، ويبدو أنّ هذا الفرار كان يعزّز لديهم هذا الغرور الأحمق بعظمتهم ومكانتهم السلطوية. فالاستبداد يضعف الأخلاق الحسنة أو يفسدها أو يمحوها<sup>(2)</sup>. ومن هنا فإنّ المستبدّ الذي تضعف أخلاقه أو تفسد، لا يهتمّ إن أهين شعبه، أو قهر جرّاء أفعاله الاستبدادية. فالمرأة المستبدّة زوجة لأحد رجال السلطة المهمّين، وقد سمحت لخدمها بضرب جميع من يمشي في الشارع الذي تمشي فيه، وأمرت خدمها أن يهينوا الحشّاش، ويربطوه، ويأخذوه عنوة إلى منزلها: «وإذا بالطواشيّ جاء إليّ وقبض عليّ، فتهاربت الناس. وإذا بطواشيّ آخر أخذ حماري ومضى به. ثم جاء الطواشيّ وربطني بجبله وجرّني خلفه، وأنا لم أعرف ما الخبر، والناس من خلفنا يصيحون ويقولون: ما يجلّ من الله، هذا رجل حشّاش فقير الحال ما سبب ربطه بالحبال؟»<sup>(3)</sup>.

(1) م. ن، 421/2.

(2) الكواكي، عبد الرحمن: طبائع الاستبداد، ص 85.

(3) ألف ليلة وليلة، 421/2 - 422.

وقد يكون راوي الحكاية السابقة أضفى على سلوك المرأة نوعاً من الغرائبية والتخيّل، قاصداً بذلك إثبات إيديولوجيته المعادية لاستبداد نساء السلطة في ألف ليلة وليلة، لكن كاتب هذه الدراسة يدرس فعل السلطة، لا باعتباره فعلاً سحرياً وأسطورياً، بل باعتباره فعلاً يمكن أن يتحقّق في بنية الزمان والمكان، التاريخي والواقعي، لأنّ الإشارات التاريخية الكثيرة لممارسات السلطة من اضطهاد وتعسف وقهر لشعوبها في العصور، تثبت أنّ ما ورد في ألف ليلة وليلة من ممارسات سلطوية استبدادية يمكن أن يكون له خلفيّة تاريخية ذات علاقة بواقع معيش عاصره الراوي، بعلاقاته السياسية والاجتماعية، واستفاد منه في تشكيل حكايته. فـ «قصص ألف ليلة وليلة تنبع أحداثها من حاجات المجتمع وترسم وقائعها من خلال المتطلّبات التي حدّدتها الحاجات (...)» وهذا يعني أنّ نشأة القصص هذه مرتبطة بنشأة الشعب العربي، وموصولة بأحداثه التي عاصرها (...)» ويإنسانه الذي كان مدار هذه القصص وبطل تلك الحكايات والأمثال»<sup>(1)</sup>.

وحتى لا تحنّت المرأة السلطوية باليمين التي قطعها على نفسها، فإنّها قادت الحشّاش مربوطاً، مجروراً إلى قصرها، وأدخلته الحمام، وألبسته أحمل الملابس الفاخرة، وأمرت جواريتها أن يرشّنه بماء الورد<sup>(2)</sup> تمهيداً لتحقيق فعل الزنى، والانتقام من زوجها: «ثم بعد ذلك أشارت إلى بعض الجوّاري أن يفرشن لنا في مكان، وفرشن في المكان الذي أمرت به. ثم قامت وأخذت بيدي إلى ذلك المكان المفروش ونامت ونمت معها إلى الصباح، وكنت كلّما ضممتها إلى صدري أشمّ منها رائحة المسك والطيب، وما أعتقد إلاّ أنّي في الجنّة أو أنّي أحلم في المنام»<sup>(3)</sup>. فالمرأة السلطوية تزني بالحشّاش القذر تحديداً لزوجها وانتقاماً منه، لأنّها تعي أنّ وضعها السلطوي يحميها، وأنّها قادرة على أن تمارس هذا الفعل بكلّ جرأة، لأنّها واثقة من قدراتها على إخفاء الحشّاش في مخابئ القصر،

(1) القيسي، د. نوري حمّود: الأديب والالتزام، دار الحرّية للطباعة ببغداد، الطبعة الأولى، 1400هـ/1979م، ص 110.

(2) ألف ليلة وليلة، 2/422.

(3) م. ن، 2/423.

إذا ما داهمها زوجها، وهي واثقة من قدرة جواريتها المقرّبات على الاحتيال، والإسراع بنجدها ما إذا حضر زوجها بشكل مفاجئ: «فبينما أنا نائم عندها ليلة ثامن يوم وإذا بجارية دخلت وهي تجري وقالت لي: قم اطلع إلى هذه الطبقة فطلعت في تلك الطبقة»<sup>(1)</sup>.

ويبدو أنّ المرأة السلطوية - التي لا يذكر الراوي اسماً لها - اعتقدت أنّها لا تنتقم من زوجها، أو تستردّ كرامتها إذا رقدت مع الحشّاش ليلة واحدة، بل إنّها أسرفت في الانتقام منه، واستمرت النوم مع الحشّاش، ولثماني ليال متواصلة كما يشير الراوي. وإذا كان زوجها السلطوي قد سلك مسلكاً فاسداً، ومارس فعل الزنى فإنّها بزّته، وتمادت في طريق الفساد، ولم تكتف بذلك فحسب، بل أدلّته بسطوة جسدها الجميل، وجعلته يقبل الأرض بين يديها، عندها صفحت عنه، وسمحت له ثانية بامتلاك هذا الجسد. يقول الراوي<sup>(2)</sup>: «فتقدّم [الزوج] إلى الباب وترجّل ودخل القاعة، فرآها قاعدة على السرير، فقبل الأرض بين يديها ثم تقدّم وقبل يدها فلم تكلمه، فما برح يخضع لها حتى صالحها ونام عندها تلك الليلة».

لم يشأَ راوي الحكاية أن يجعل المرأة السلطوية والرجل زوجها، غارقين في الفساد على قدم المساواة، وذلك بأن يرتكبا فعل الزنى، ويناوما مع الشريك الزاني، وبعدهد الليالي نفسها التي تمّ بها هذا الفعل، بل جعل المرأة تفوق الرجل في هذا الفعل بسبع ليال، لأنّ هذا الراوي محكوم بإيديولوجيا رجوليّة تعتقد أنّ المرأة أكثر فساداً وفسقاً من الرجل، وأنّها أكثر جرأة، وإقداماً على ارتكاب المعاصي من الرجل، لأنّ شهوتها الجنسيّة تفوق شهوة الرجال<sup>(3)</sup>، وفق هذه الإيديولوجيا الرجوليّة، ولأنّ هذه الشهوة عند النساء متأجّجة، ولا تستطيع ضبطها، فإنّها تلجأ إلى إشباعها بطريقة شاذة مع الحيوانات الأليفة كالذّب والقرد، كما في حكايتي: «وردان الجزّار»، و«دأء غلبة الشهوة عند النساء»، كما أشير إلى ذلك سابقاً.

(1) م. ن، 424/2.

(2) م. ن، 424/2.

(3) م. ن، 238/2.

أو بطريقة سحاقية كما في حكاية «عمر النعمان وولديه شركان وضوء المكان»، إذ تبدو المرأة العجوز السلطوية، شواهي ذات الدواهي ولعة بسحاق جوارى ولدها الملك، فقد كانت تقيم «عند ولدها حردوب ملك الروم لأجل الجوارى الأبيكار، لأنها كانت تحبّ السحاق، وإن تأخر عنها تكون في انمحاق، وكلّ جارية أعجبتها تعلّمها الحكمة، وتسحق عليها الزعفران فيغشى عليها من فرط اللذة مدة من الزمان، فمن طاوعتها أحسنت إليها ورغبت ولدها فيها، ومن لا تطاوعها تتحايل على هلاكها (...) وكانت ترغّب من تساقها بالجواهر والتعليم»<sup>(1)</sup>.

ووفق الإيديولوجيا الرجولية المعادية للمرأة، تبدو المرأة - سواء أكانت سلطوية أم غير سلطوية - جريئة ومقدمة، وقادرة على ارتكاب المعاصي والفجور أكثر من الرجال، ومن هنا فإنّه لا عاصم يعصم هذه المرأة من ارتكاب الموبقات، إلاّ إيمانها وخوفها من الله سبحانه وتعالى، وإن انتفى هذا الإيمان، فإنّها ستفعل ما تريده على الرغم من كلّ سلطات الذكور، ومن كلّ الحواجز المحصنة التي يحاصرونها بها، ويسجنونها داخلها، وهذا ما تشير إليه الإيديولوجيا الرجولية في الحكاية الأولى من حكايات ألف ليلة وليلة: حكاية «الملك شهريار وأخيه شاه زمان»<sup>(2)</sup>.

ولقد عمد معظم رواة ألف ليلة وليلة، من خلال تصويرهم لمواقف نساء الليالي، وسلوكهنّ إلى تأكيد هذه الرؤية الإيديولوجية: «إنّ المرأة (...) إذا أرادت أمراً لم يغلبها شيء»<sup>(3)</sup>. ويبدو أنّ هذه الرؤية مستمدّة من الخلفيات المرجعية التاريخية التي اطلع عليها الرجال، ومن ثمّ آمنوا بها، وكرّسوها في مدّهم، وفي علاقاتهم الإنسانية مع نسائهم وأخواتهم وبناتهم ونساء عصرهم،

(1) ألف ليلة وليلة، 1/366.

(2) ففي هذه الحكاية احتالت المرأة الجميلة على الجني الذي خطفها ليلة عرسها، ومارست فعل الزنى - انتقاماً منه - مع خمسمائة وسبعين رجلاً، بالإضافة إلى شهريار وأخيه شاه زمان، على الرغم من أنّ هذا الجني سجنها داخل صندوق، وقفل عليها بسبعة أقفال.

- م. ن، 1/15.

(3) م. ن، 1/15.

والتي تؤكد دونية المرأة، وعدم الثقة بها، وتهالكها على ارتكاب المعاصي<sup>(1)</sup>. إن حياة الفسق التي ينغمس فيها مجتمع السلطة تجعل أفراد هذا المجتمع عاجزين عن ممارسة السيطرة الضرورية على ذواتهم التي تنحرف في ملاحقة العلاقات الجنسية غير الشرعية وطلبها، وإذ يبحث المرء في الزنى عن العلاقات الجنسية غير الزوجية التي هي أكثر ما تتنافى مع القانون، فإنه يكون قد دخل ضمن علاقات جنسية تُعدّ بحدّ ذاتها مخزية وناشئة عن الفسق<sup>(2)</sup>. ومن هنا، فإنّ زنى المرأة السلطوية بالحشّاش في حكاية «الحشّاش مع حريم أحد الأكابر»، كان نتيجة علاقات الفسق والفساد التي سادت في قصور ألف ليلة وليلة، والتي انغمس فيها كبار القوم من جهة، وهو في بنيته العميقة يشير إلى فساد متأصل في طوية هذه المرأة وسلوكها وقيمها التي تربّت عليها في مجتمع سلطوي ثريّ مستبدّ محاط بالأبّهة والخدم، لا يأبه بالمواضع الأخلاقية، ولا يهتمّ إن غرق أعيانه في حياة قوامها الانحلال والفساد، أو بثّ الرعب في نفوس مواطنيهم، وإجبارهم على تحقيق نزواتهم من جهة ثانية. ولو كان فعل الزنى مجرد انتقام من الزوج السلطوي فحسب، لا كتفت المرأة السلطوية بالمبيت مع الحشّاش مرّة واحدة بدلاً من ثماني ليال، ولا سيّما أنّ الزوج مارس فعل الزنى مع جارية المطبخ مرّة واحدة. أمّا المرأة فقد استمرت هذا الفعل مع الحشّاش، لأنّه لم يعد أقدر رجل في المدينة بعد أن

(1) ومّا جاء في هذه المرجعيّات التاريخية نفتطف ما يلي:

- "أخذ على النساء ما أخذ على الحيات، أن يُحتجزن في بيوتهنّ". و"المرأة عورة. إذا خرجت استشرّفها الشيطان، وأقرب ما تكون من الله كانت في بيتها".
- الجوزي، جمال الدين عبد الرحمن بن محمد: كتاب أحكام النساء، ص 67، 69.
- و"لم تنه المرأة عن شيء قط إلاّ فعلته". و"من اقتراب الساعة طاعة النساء".
- وقال أبو بكر الصديق: "ذلّ من أسند أمره إلى المرأة".
- الأبشيهي: المستطرف في كلّ فنّ مستطرف، 303/2 - 304.
- و"إنّ النساء متى يُنهين عن خلق فإنّه واقع لا بدّ مفعول".
- و"لا تأمن الأنتى حبتك بودها إنّ النساء وداذهنّ مقسّم اليوم عندك دلّها وحديثها وغداً لغيرك كفّها والمعصّم".
- ابن قيم الجوزية: أخبار النساء، ص 11.

(2) فوكو، ميشيل: الاتهام بالذات، ترجمة جورج أبي صالح، مراجعة مطاع صفدي، مركز الإنماء القومي، بيروت، الطبعة الأولى 1992م، ص 115.

أدخلته حمام قصرها، وأمرت جواربها بتنظيفه وتدليكه، وتضميحه بماء الورد، وإلباسه أجمل الملابس<sup>(1)</sup>.

## - 2 -

وليست هذه المرأة - زوجة أحد الأكابر - في حكاية «الحشاش مع حريم أحد الأكابر»، هي المرأة السلطوية الوحيدة في حكايات ألف ليلة وليلة، التي تمارس فعل الزنى مع الرجال القدرين، والأدنى منها طبقة اجتماعية، بل هناك نساء سلطويات - زوجات وبنات ملوك - أسوأ منها بكثير، ومنهن زوجة أحد الملوك الكبار التي تخون زوجها الملك يومياً على الرغم من حبه ووفائه الشديدين لها، وسلوكه العفيف مع نساء مجتمعه وجواري قصره، كما تشير حكاية «الشباب مع الملك والأسماء الملوّنة» الداخلة ضمن حكاية «الصيد والعفريت». فقد تزوّجت هذه المرأة - لا يذكر الراوي اسماً لها - ابن عمها صاحب الجزائر السود، وكانت تحبه محبة عظيمة، بحيث إذا غاب عنها لا تأكل ولا تشرب حتى تراه<sup>(2)</sup>، لكنّها صارت في ما بعد تكرهه وتقع في حبّ جديد - مثلها مثل معظم نساء ألف ليلة وليلة - وعندما يأتي كل مساء تضع بنجاً في قده شرابه، وترتدي أجمل ملابسها، وتخرج لملاقة عشيقها. يقول الراوي<sup>(3)</sup>: «وإذا بها تقول: نم ليلتك (...). والله كرهتك وكرهت صورتك وملّت نفسي من عشرتك، ثم قامت وليست أفخر ثيابها وتبخّرت وتقلّدت سيفاً وفتحت باب القصر».

وذات ليلة يتظاهر الملك بالنوم أمام جاريتين من جواربه اللتين تدلّكانه، ويكتشف من حديث الجاريتين خيانة زوجته له: «فسمعت التي عند رأسي تقول للتي عند رجلي يا مسعودة إنّ سيّدنا مسكين شبابه ويا خسارته مع

(1) ألف ليلة وليلة، 2/422.

(2) ألف ليلة وليلة، 1/40.

(3) م. ن، 1/40.

سيّدتنا الخبيثة الخاطئة. قالت الأخرى: (...). ولكنّ مثل سيّدنا وأخلاقه لا يصلح لهذه الزانية التي كلّ ليلة تبيت في غير فراشه. فقالت التي عند رأسي: إنّ سيّدنا مغفلٌ حيث لم يسأل عنها. فقالت الأخرى: ويملك وهل عند سيّدنا علم بحالها أو هي تفعل ذلك باختياره؟ بل هي تعمل له عملاً في قدح الشراب الذي يشربه كلّ ليلة قبل المنام، فتضع فيه البنج فينام ولا يشعر بما يجري ولا يعلم أين تذهب ولا ماذا تصنع»<sup>(1)</sup>.

وعندما يكتشف الملك سرّ نومه الثقيل، يمتنع في إحدى الليالي عن شراب كأسه المخدّر، ويراوغ زوجته، ثم يدلّق كأسه أرضاً، ويتظاهر بالنوم، فتقوم الزوجة كعادتها بارتداء أفخر ملابسها والخروج قاصدة عشيقها العبد الأسود، فينهض مسرعاً ويتبعها شاقاً أسواق المدينة، وعندما تصل زوجته إلى عشيقها تنكشف الحقيقة المؤلّة أمامه، فيغيب عن الوجود، ويصير الضياء في وجهه ظلاماً بمفردات رواة ألف ليلة وليلة. يقول الراوي<sup>(2)</sup>:

«وإذا بما قد دخلت على عبد أسود فقبلت الأرض بين يديه، فرفع ذلك العبد رأسه وقال لها: ويملك ما سبب قعودك إلى هذه الساعة؟ كان عندنا السود وشربوا الشراب وسار كلّ واحد بعشيقته وأنا ما رضيت أن أشرب! فقالت: يا سيّدي وحبيب قلبي أما تعلم أنّي متزوّجة بابن عمّي وأنا أكره النظر في صورته وأبغض نفسي في صحبته ولولا أنّي أخشى خاطرك لكنت قد جعلت المدينة خراباً يصيح فيها البوم والغراب. فقال العبد تكذّبين يا عاهرة وأنا أحلف وحقّ فتوة السود (...) إن بقيت تقعدني إلى هذا الوقت مثل هذا اليوم، لا أصحابك ولا أضع جسدي على جسديك يا خائنة، تغيين عليّ من أجل شهوتك يا منتنة يا أخسّ البيض.

(1) م. ن، 40/1.

(2) ألف ليلة وليلة، 41/1.

قال الشاب [زوجها الملك]: فلما سمعت كلامها وأنا أنظر بعيني ما جرى بينهما صارت الدنيا في وجهي ظلاماً وصارت بنت عمّي واقفة تبكي إليه وتتذلل بين يديه وتقول يا حبيبي وثمره فؤادي، يا حبيبي يا نور العين! وما زالت تبكي وتتضرّع له حتى رضي عليها ففرحت وقامت وخلعت ثيابها ولباسها، وقالت يا سيّدي هل عندك ما تأكله جاريتك، فقال لها: قومي لهذه القوّارة تجدي فيها ما تبغين، فقامت وأكلت وشربت وغسلت يديها وجاءت فرقدت مع العبد على قشّ القصب، وتعرّت ودخلت معه تحت الهدمة، فلما نظرت إلى هذه الفعال التي فعلتها بنت عمّي غبت عن الوجود».

آثرت أن أطيل الاقتباس حتى تتضح الإيديولوجيا الرجوليّة المعادية والمحتقرة لهذه النوعية من النساء السلطويات الفاسدات، وإلى أيّ مدى يمكن أن تكون نساء السلطة في الليالي - ووفق هذه الإيديولوجيا - مندفعات في فسادهنّ الأخلاقي ورغباتهنّ المسعورة المتهاككة على الجنس ومع أحط الرجال، مع ملاحظة أنّ هذه الإيديولوجيا الرجوليّة هذه لا تدين المرأة الأميرة العازبة، فيما إذا اندفعت متهاككة لتحقيق فعل الجنس مع الأمير أو الملك العازب، بل نجد أنّ الراوي يشجّع هذا التهاكك، ويهيئ له جميع الظروف والعوامل المساعدة لتحقيق هذا الفعل، فها هو يشجّع بطله تاج الملوك على امتلاك الأميرة العازبة دنيا بنت الملك شهرمان امتلاكاً جنسياً ويشتهي له أن ينام بين هديها لأنّه أهل لذلك، ويثبت هذا الاشتها على لسان العجوز مربّيتها، حين تصف لها بطله تاج الملوك قائلة<sup>(1)</sup>: «كأنّ رضوان فتح أبواب الجنان وسها فخرج منها [أي تاج الملوك] وأنا أشتهي في هذه الليلة أن يكون عندك وينام بين هودك فإنّه فتنة لمن يراه». ثم سرعان ما يقذف بهذا البطل إلى مقصورة الأميرة دنيا، ليحقق له حلمه بامتلاك هذه الأميرة الجميلة: «ثم إنّ تاج الملوك عدّ خمسة أبواب ودخل الباب السادس، فوجد السيدة دنيا واقفة في انتظاره. فلما رأته عرفته، فضمّته إلى صدرها وضمّتها إلى صدره (...) ثم اختلت هي وتاج الملوك. ولم يزالا في ضمّ وعناق، والتفت ساق على ساق إلى وقت السحر»<sup>(2)</sup>. ثم

(1) م. ن، 54/2.

(2) ألف ليلة وليلة، 68/2.

بعد ذلك ليجعله عاشقاً مليئاً بالهيام والوجد والغرام<sup>(1)</sup>، لا يطيق الصبر على جسد الأميرة دنيا.

تشير حكايات ألف ليلة وليلة، وفي بعض حالات الحب والعشق والجنس إلى أن إيديولوجيا الرواة الرجولية تؤكد أن المرأة الأميرة أكثر تهتكاً وفساداً ورغبة في الزنى من عاشقها الأمير أو الملك، الذي يرغب أن يكون فعل الجنس ذا صبغة شرعية أخلاقية، وذلك من خلال الزواج على سنة الله ونبهه. فالراوي في حكاية «تاج الملوك ودنيا بنت الملك شهرمان»، دفع بطله تاج الملوك إلى حضن الأميرة دنيا، ليلفّ الساق على الساق، وليشتغل في الهراش والضمّ والعناق لنصف سنة<sup>(2)</sup>، من دون أن يجعله يفتضّ هذه الأميرة<sup>(3)</sup>، لا لأنه يرى أنّ هذا الافتضاض فعل شائن قائم خارج حدود أخلاقيات الزواج المتعارف عليها، بل ليؤكد إيديولوجيته الرجولية التي ترى أن أخلاق المرأة - ومهما كانت رفيعة الشأن - سرعان ما تنهاوى عندما يحضر الرجل الجميل الممتلئ بالقدرات الجنسية والجمالية، فالأمير تاج الملوك يعلن للأميرة دنيا أنه زاد شوقاً وهياماً وغراماً بها، إلا أن غرامه هذا لم يبلغ غايته الكليّة، عندها تدعوه الأميرة لأن يتجاوز فعل الضمّ والعناق، وصولاً إلى الغاية الكليّة (فعل الجنس)، لكنّه يرفض أن يصل إلى هذه الغاية، إلا بعد أن تأخذ منحى شرعياً لا حرام فيه. يقول الراوي<sup>(4)</sup>:

«وأما ما كان من أمر تاج الملوك والسيدة دنيا فإنّهما أقاما على حالهما

(1) م. ن، 69/2.

(2) م. ن، 68/2.

(3) وبطبيعة الحال هذه حال نادرة، لأن أبطال الليالي - من النساء والرجال السلطويين - لا يطبقون صبراً على جسد العشيق أو الحبيب، بل يسارعون إلى إرواء ظمئهم الجنسي منذ اللقاء الأول. وربما ينطبق عليهم قول الأصمعي، عندما سألته إحدى الأعرابيات عن مفهوم الحضري للعشق: "قالت: وأنتم يا حضر كيف تعدّون العشق فيكم؟ قلت: يقعد بين رجلها ويجهد نفسه. فقالت: يا ابن أخي، ما هذا عاشقاً هذا طالب ولد".

- عن/ابن قيم الجوزية: أخبار النساء، ص 51.

(4) ألف ليلة وليلة، 459/2.

نصف سنة، وهما كلّ يوم يزدادان محبةً في بعضهما. وزاد على تاج الملوك العشق والهيام والوجد والغرام، حتى أفصح لها عن الضمير، وقال لها: اعلمي يا حبيبة القلب والفؤاد أنّي كلّما أقمت عندك ازددت هياماً ووجداً وغراماً، لأنّني ما بلغت المرام بالكليّة، فقالت له: وماذا تريد يا نور عيني؟ (...). إن شئت غير الضمّ والعناق والتفاف الساق على الساق، فافعل الذي يرضيك وليس لله فينا شريك، فقال: ليس مرادي هكذا (...). ثم قال: وأريد الآن أن أتوجّه إلى أبي ليرسل رسولاً إلى أبيك ويخطبك منه ونستريح».

إنّ العودة إلى الحكاية السابقة: حكاية «الشاب مع الملك والأسماك الملوّنة»، تكشف بعض ملامح الإيديولوجيا الرجوليّة المعادية للمرأة السلطوية الزانية، وذلك من خلال التباين الحادّ بين أخلاقها وأخلاق زوجها الملك الشاب:

الزوج الملك	الزوجة الملكة
- شاب بأخلاق حسنة لا يصلح لهذه الزانية.	- سيّدة خبيثة خاطئة زانية.
- يثق بها وينام ولا يشعر بما يجري ولا يعلم أين تذهب، وماذا تصنع.	- تضع له البنج كلّ ليلة في كأس شرابه.
- يقلق على غيابها وتأخرها عن منزلها، ويخاف عليها من شدّة محبّته لها.	- تقول له: كرهتك وكرهت صورتك وملّت نفسي من عشرتك.
- يحبّها زوجها محبةً عميقة، لكنّها تحتقره وتكرهه <sup>(1)</sup> .	- تحبّ عبداً أسود بشعاً محبةً عميقة، لكنّ العبد يحتقرها.

ومن ملامح هذه الإيديولوجيا الرجوليّة المعادية لهذه المرأة السلطوية الزانية، اندفاعها الشديد نحو العبد وتعلّقها به، وتركيز الراوي على مدى احتقار العبد لهذه المرأة العاشقة له، مقابل خضوعها له، واستجدائها لعطفه ومحبّته. والمقارنة الآتية توضّح ذلك:

العبد	المرأة السلطوية (الملكة)
<p>- رفع ذلك العبد رأسه وقال لها: وبيك ما سبب قعودك إلى هذه الساعة. - فقال العبد تكذابين يا عاهرة.</p>	<p>- دخلت على عبد أسود فقبلت الأرض بين يديه. - فقالت يا سيدي وحبیب قلبي أما تعلم أني متزوجة بابن عمي وأنا أكره النظر في صورته، وأبغض نفسي في صحبته.</p>
<p>- قال العبد: إن بقيت إلى هذا الوقت مثل هذا اليوم، لا أصحابك ولا أضع جسدي على جسديك يا خائنة، تغيبين عليّ من أجل شهوتك يا مننتة يا أخسّ البيض. - حتى رضي عليها. - فقال لها: قومي لهذه القوارة تجدي فيها ما تبغين. - رضي عليها(1).</p>	<p>- تبكي إليه وتتذلل بين يديه وتقول له يا حبيبي وثمرة فؤادي، يا حبيبي يا نور العين. - ما زالت تبكي وتتضرّع. - قالت: يا سيدي هل عندك ما تأكل جارتك؟ - خلعت ثيابها ولباسها، ورقدت مع العبد على قشّ القصب.</p>

إن هذه المرأة السلطوية قد قلبت الأدوار في طبيعة العلاقة بين الذكر والأنثى، فإذا كان من المتعارف عليه، أن الذكر هو الذي يطلب الأنثى ويطاردها، في حين أن الأنثى تمتنع عنه، أو تعامله بغنج ودلال حتى يزداد وجداً بها، فإن الإيديولوجيا الرجولية الرامية إلى احتقار المرأة، واعتبارها شراً على المجتمع الرجولي، قد قلبت الدور، وجعلتها المتهاكمة على إشباع شهواتها، مقابل الرجل المزدري لها. وزيادة في احتقارها، وتشويه قيمها، والطعن بأخلاقها، فقد جعلتها تكره الملك الجميل والسوي والقريب - ابن عمها - وتسفح ماء وجهها للعبد القبيح البعيد، الذي ينصب نفسه سيّداً عليها، وتترك مائدة الملك العامرة وفراشه الوثير، لترضى باليسير من الطعام، ولترقد على قشّ القصب، وهذه الملكة تقلب أدوار السيادة والعبودية، وتتنازل عن دورها كملكة، وترضى بدور الحارية، وذلك لصالح العبد الذي يصبح سيّداً لها، موبخاً وأمراً: «يا عاهرة... يا خائنة... قومي لهذه القوارة»، مقابل أن يطفئ سعارها الجنسي.

ويبدو أن رواة ألف ليلة وليلة يريدون أن يؤكّدوا ملتقي الحكايات، أن الغريزة الجنسيّة لدى النساء تشكّل قوّة شيطانيّة وحشيّة، وهذه القوّة يجب أن تُحبس وتُقمع<sup>(1)</sup> حتى لا تشكّل خطراً يهدّد المجتمع القائم على مبادئ النظام الأبويّ، وحتى لا تمثّل تحدياً واضحاً للنظام الذكوريّ «الذي يقضي بانتقال اسم الرجل وملكيّته ومكانته وسلطته من جيل إلى الجيل الذي يليه»<sup>(2)</sup>، ولذا يجب قمع المرأة سواء أكانت سلطوية أم من الطبقات الأخرى، حتى لا تعارض هذا النظام الرجوليّ الذي لا يريد له الرواة الرجال أن يتنازل عن مكانته وامتيازاته لصالح نساء فاجرات تقودهنّ شهواتهنّ المتأجّجة إلى تقويض بنيانه، وإفساد قيمه.

### - 3 -

إنّ الرغبة الجنسيّة عند نساء السلطة في ألف ليلة وليلة تصبح قوّة تدميريّة تفتك بكلّ من يقف ضدّ إشباعها بالتواصل الجنسيّ، فساء السلطة لا يرحمن من يُحبط رغباتهنّ الجنسيّة، أو من لا يشبعها، حتى ولو كان من أقرب المقرّبين إليهنّ. وهذا ما تشير إليه حكاية: «الملك قمر الزمان والملكة بدور»، إذ يتزوّج الملك قمر الزمان امرأتين جميلتين، وهما: الملكة بدور والملكة حياة النفوس، فيرزقه الله بولدين منهما، وهما: الأمير الأجد من زوجته بدور، والأمير الأسعد من زوجته حياة النفوس. ويكبر الولدان حتى يصيرا في غاية الكمال ونهاية الحسن والجمال، ويفتنن بهما النساء والرجال، بمفردات راوي الحكاية<sup>(3)</sup>، وتُفتنن بهما زوجتا الملك. إذ «إنّ محبّة الأسعد الذي هو ابن حياة النفوس وقعت في قلب الملكة بدور زوجة أبيه، وإنّ محبّة الأجد الذي هو ابن الملكة بدور وقعت في قلب الملكة حياة النفوس زوجة أبيه، فصارت كلّ واحدة من الضرّتين تلاعب ابن ضرّتها وتقبّله وتضمّه إلى

(1) العطار، د. سمر؛ فيشر، د. جيراهارد: "فوضى الجنس، التحرّر، الخضوع: عمليّة التحضّر وتأسيس نموذج لدور الأنثى في القصّة الإطاريّة لألف ليلة وليلة"، ترجمة أنيسة أبو النصر، مجلّة فصول، المجلد الثاني عشر، العدد الرابع، شتاء 1994م، ص 134.

(2) م. ن، ص 135.

(3) ألف ليلة وليلة، 2/291.

صدرها (...) وتمكّن العشق من قلب المرأتين وافتنتنا بالولدين فصارت كلّ واحدة منهما إذا دخل عليها ابن ضرّتها تضمّه إلى صدرها وتودّ أنّه لا يفارقها»<sup>(1)</sup>. ولا تستطيع هاتان المرأتان الصبر على هذا العشق الذي ملأ عليهما حياتهما، فتمتنعان عن الشراب والطعام وتهجران لذيد المنام، وتكتب كلّ منهما رسالة عشق إلى ابن ضرّتها، تبدي له ولهها، وتتضرّع إليه أن يرحمها ممّا تقاسيه من اللّهُف والشغف والبكاء والأنين والكآبة والاحتراق، طالبة الوصال الجنسي<sup>(2)</sup>، ثم ترسلانها إلى عشيقيهما الأميرين الأجد والأسعد مع خادم وخادمة لهما. يقول الراوي<sup>(3)</sup>: «فتناول الملك الأجد المندبل من الخادم وفتحها، فرأى الورقة ففتحها وقرأها. فلمّا فهم معناها علم أنّ امرأة أبيه في عينها الخيانة، وقد خانت أباه قمر الزمان في نفسها، فغضب غضباً شديداً وذمّ النساء على فعلهنّ (...) ثمّ إنّ جرّد سيفه وقال للخادم ويلك يا عبد السوء أتحمّل المراسلة المشتملة على الخيانة من زوجة سيّدك؟ والله إنّّه لا خير فيك يا أسود اللون والصحيفة، يا قبيح المنظر والطبيعة السخيفة. ثمّ ضرب بالسيف في عنقه فعزل رأسه عن جثته».

ويفعل الأمير الأسعد مثلما فعل أخوه الأمير الأجد من قبله، ويرمي عنق العجوز التي نقلت رسالة العشق من زوجة أبيه الملكة بدور<sup>(4)</sup>. عندها تُحبّط المرأتان في عشقهما، ويصيبهما المرض والضعف الشديد، وينقلب عشقهما إلى حقد وكرهية شديدة لهذين الأميرين، وتقرّران الانتقام منهما، وذلك بتدبير مكيدة تطيح بهما. وعندما يعود الملك قمر الزمان (أبوهما) بجيشه من الصيد ويشاهد زوجته مريضتين، يسألهما عن حالهما، عندها تقومان بتنفيذ المكيدة لهما. يقول الراوي<sup>(5)</sup>: «فلما رآهما الملك على تلك الحالة قال لهما: مالكما؟ فقامتا إليه وقبّلتا

(1) م. ن، 291/2.

(2) لمزيد من الاطلاع يُنظر: مضمون الرسالتين، وما تتضمنانه من مشاعر جنسيّة هائجة، وتوق شديد للتواصل الجنسي مع الأميرين الشابين.

- م. ن، 292/2 - 293.

(3) م. ن، 293/2.

(4) ألف ليلة وليلة، 295/2.

(5) م. ن، 295/2 - 296.

يديه وعكستا عليه المسألة وقالت له: اعلم أيها الملك أنّ ولدك اللذين قد تربّيا في نعمتك قد خاناك في زوجتيك، وأركباك العار. فلمّا سمع قمر الزمان من نساءه هذا الكلام صار الضياء في وجهه ظلماً واغتناظ غيظاً شديداً حتى طار عقله من شدّة الغيظ».

إنّ الملكتين بدور وحياء النفوس مستعدّتان لأن تقودا ولديهما الوحيدين إلى حافة الموت، وتعيشان طوال حياتهما محرومتين من عاطفة الأمومة الكريمة، لأنّ هذين الولدين أذلاهما في كبح جموح شهوتهما الجنسيّة، وهما غير مستعدّتين أن تعيشا ذليلتين في ظلّهما كحاكمين مع أبيهما، وبعد موته. ويعلّل الراوي سبب اندفاعهما لقتل ولديهما - ووفق إيديولوجيته الخاصة - لأنّهما خشيتا أن يصيرا تحت ذلّ هذين الأميرين، بعد أن فضحتا نفسيهما معهما<sup>(1)</sup>، ويمكن القول: إنّ عدم إرواء الدافع الجنسيّ عند الملكتين هو الذي أشعل فيهما نزعتهما العدوانيّة، وحقدهما على الأميرين، ورغبتهما العميقة بقتلهما، لأنّ ثمة عنصراً شيطانياً من العداة يظهر في حالة الكبت، وهذا العنصر من شأنه أن يجعل من النزعة الجنسيّة شيئاً مميتاً هدّاماً<sup>(2)</sup> إذا لم تجد طريقها إلى الإشباع.

ولا ينسى راوي الحكاية أن يثبت إيديولوجيته المعادية للملكتين الشهوائيتين؛ فعندما يغادر زوجها الملك قمر الزمان، سرعان ما تبدأ علائم الخيانة لتظهر في سلوكهما، عندها يدفع بطله الرجل الأمير الأجدد، لأنّ يذمّ النساء، ويؤكد أنّهنّ خائنات وناقصات في دينهنّ وعقولهنّ، ثم يسحب هذه الإيديولوجيا على العجوز الخادمة، لأنّها من العجائز الماكرات<sup>(3)</sup>، ولا ينسى أن يثبت إيديولوجيته التي تشيد بأخلاق أبطاله الذكور. فالأميران الأجدد والأسعد يُظهران وفاءً لوالديهما ولوالدهما قمر الزمان، ويقرّران أن يحافظا على سرّهما خوفاً على حياتهما المهدّدة، فيما إذا ظهر سرّهما للملك قمر الزمان: «ثمّ توأصيا بكتمان هذا الأمر لئلاّ يسمع به أبوهما

(1) م. ن، 296/2.

(2) جاسترو، د. جوزيف: دراسة وتقديم لكتاب: فرويد، سيجموند: الجنس وأثره في السلوك الإنساني، ترجمة فؤاد ناصر، منشورات حمد، بيروت، الطبعة الثانية 1967م، ص 31.

(3) ألف ليلة وليلة، 293/2.

الملك قمر الزمان فيقتل المرأتين»<sup>(1)</sup>. في حين أنّ هاتين المرأتين تبديان مكرراً ولؤماً وتصميماً على تحريض أبيهما لقتلهما، اعتقاداً منهما بأنهما ستبقيان ذليلتين أمام الأميرين ولديهما، طالما هما مقيمان على رأس السلطة<sup>(2)</sup>.

ولم ينسَ الراوي في هذه الحكاية: حكاية «الملك قمر الزمان والملكة بدور»، أن يعمّم إيديولوجيته الرجوليّة المعادية للمرأة - تأسيساً على حالة خاصّة للملكتين خائنتين - التي اكتسبها من أخلاقيات ومفاهيم وأديبات عصره، إذ جعل بطليه الأبعد والأسعد يقولان عن النساء بعامّة، بعد أن دبرت لهما زوجتا أبيهما تلك المكيدة:

إنّ النساء شياطين خلّقن لنا      أعوذ بالله من كيد الشياطين  
فهنّ أصل البليّات التي ظهرت      بين البريّة في الدنيا وفي الدين<sup>(3)</sup>

وليست نساء السلطة في ألف ليلة وليلة هنّ المستبدّات والزواني الوحيدات، بل يتساوى في ذلك معظم نساء ألف ليلة وليلة، لكنّ الراوة اهتمّوا بالتركيز بالدرجة الأولى، على فساد النساء في طبقتين من طبقات مجتمع ألف ليلة وليلة، وهما طبقتا السلطة والتجار. ويبدو أنّ ظاهرة الثراء الفاحش التي انغمست بها هاتان الطبقتان، قد ساهمت في فساد نسائهما وفجورهنّ، وجرأتهنّ على ارتكاب المعاصي، فمن المعروف أنّ الأثرياء في المجتمعات المدنيّة ونظراً «لكثرة ما يعانون من فنون الملاذ وعوائد الترف والإقبال على الدنيا والعكوف على شهواتهم منها، قد

(1) م. ن، 295/2.

(2) ويتوالى السرد الحكائي، ويأمر الملك قمر الزمان حازنداره أن يخرج بولديه إلى خارج المدينة، ويذبحهما هنالك. لكنّ الراوي الذي اعتاد دائماً أن يسعف بطله بالنجدة عندما تحيق به الأخطار، وبجيك حيلة لينجيّه، سرعان ما يُخرّج بطليه الأبعد والأسعد من مصيبتهم دون علم والدتهما، ثم فيما بعد يجعل الملك قمر الزمان يكتشف أنّ ولديه بريّان، وأنّ زوجتهما هما الخاطبتان المتآمرتان. ومع ذلك يُلاحظ أنّ هذا الملك لم ينتقم من هاتين المرأتين، ولم يوبّخهما بكلمة واحدة - فهو أمام سلطتهما الطاغية يجد نفسه عاجزاً عن القصاص منهما، لأجل ولديه المظلومين - بل استسلم للأحزان، واكتفى بجرهما، واعتزل الناس.

- م. ن، 303/2 - 304.

(3) م. ن، 304/2.

تلوّثت أنفسهم بكثير من مدمومات الخلق والشرّ، وبعدت عليهم طرق الخير ومسالكه بقدر ما حصل لهم من ذلك. حتى لقد ذهبت عنهم مذاهب الحشمة في أحوالهم؛ فنجد الكثير منهم يُقدِّعون في أقوال الفحشاء في مجالسهم وبين كبارائهم وأهل محارمهم، لا يصدِّهم عنه وازع الحشمة، لما أخذتهم به عوائد السوء في التظاهر بالفواحش قولاً وعملاً»<sup>(1)</sup>.

إنّ الملكة بدور بنت الملك الغيور كانت تحبّ عشيقها قمر الزمان، قبل زواجها به، محبةً شديدة، ثم ما لبثت أن فكّرت بخيانتة عندما صار زوجها لها، لأنّها وجدت أن ابن ضرّتها حياة النفوس - الأمير الأسعد - أكثر شباباً وبهاءً منه. ومن شدّة محبّتها للعشيق قمر الزمان - وعندما يُتاح لها ذات مرّة، وقبل أن تتزوَّجه، أن ترقد بجواره، وتتأمّل مفاتنه وجسده المتفجّر بالقدرات الجنسيّة - فإنّ خلايا دماغها تتماجد شهوةً وعشقاً له. يقول الراوي<sup>(2)</sup>: «ثم فتحت جيب قميصه ومالت عليه وقبّلت رقبته (...) ورأته بغير سروال فمدّت يدها من تحت ذيل قميصه وجسّت سيقانه، فزلقت يدها من نعومة جسمه، فانصدع قلبها وارتجف فؤادها (...) وقبّلت في ثغره وقبّلت كفيه، ولم تترك فيه موضعاً إلاّ قبّلته، وبعد ذلك أخذته في حضنها وعانقته، ووضعت إحدى يديها تحت رقبته والأخرى تحت إبطه، ونامت بجانبه». وعندما استيقظت وما وجدته بجوارها، ظنّت أنّ قهرمانتها ووالدها الملك قد تأمرا عليها، وحرماها من هذا العشيق، النموذج الطاغى جمالياً، الذي ظلّت تبحث عنه طيلة حياتها رافضة جميع عظماء مملكة أبيها والممالك المجاورة حتى لا تتنازل عن سلطتها لأيّ رجل كان<sup>(3)</sup>. فهذا هو هذا النموذج الجمالي المثير والمشتهى يحضر مُزيحاً جميع الرجال الآخرين، محققاً للأميرة جميع آمالها في إشباع اندفاعها الجنسيّ المحموم والمكبوت، وهاهي تستيقظ ولا

(1) ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون، 474/2.

(2) ألف ليلة وليلة، 237/2 - 238.

(3) يقول راوي الحكاية عن سبب رفضها للزواج: "فلما اشتهر حسنهما وشاع في البلاد، أرسل سائر الملوك إلى أبيها يخطبونها منه، فراودها في أمر الزواج فكرهت ذلك. وقالت لأبيها: يا والدي ليس لي غرض في الزواج أبداً، فأني سيدة ومليكة أحكم على الناس ولا أريد رجلاً يحكم علي".

تجده، عند ذلك تيقنت أنها حُرمت منه. فما كان منها إلا أن أصيبت بنوبة هستيريا أفقدتها عقلها. يقول الراوي<sup>(1)</sup>: «وطار عقلها على رأسها، وصارت تلتفت يميناً وشمالاً، ثم شقت ثوبها إلى ذيلها، فلما رأى أبوها تلك الحال أمر الجوارى والخدم أن يمسكوها، فقبضوا عليها وقيدوها وجعلوا في رقبتها سلسلة من حديد وربطوها في الشباك الذي في القصر».

إنّ الاندفاع الجنسيّ غير المشبّع، يسبب لصاحبه، سواء أكان امرأة أم رجلاً، حالة تشنّج دائم، تعترضها نوبات شديدة تقترب كثيراً من الصرع، على حدّ تعبير ميشيل فوكو<sup>(2)</sup>، وتتزامن هذه النوبات بتوتر مفرط للأعضاء الجنسيّة، أو ما يسمّى بالنعاط، إذ تميل النساء المصابات بهذا المرض إلى الفعل الجنسيّ باندفاع قوي جدّاً، وتضمحلّ عندهنّ فكرة الحياء كلّها، على حدّ تعبير سورانس<sup>(3)</sup>.

وتأسيساً على رأي ميشيل فوكو يمكن فهم حال الملكة بدور وهي تشقّ ثوبها، وتفقد قدرتها على الاتزان العقلي، ويمكن فهم حالها بعد أن عادت إلى وعيها، وهدأت نوبتها المستيرية الشديدة، فبعد أن شاهدت عشيقها قمر الزمان في قصر والدها، «قامت من وقتها وصلبت رجلها في الحائط، واتكأت بقوتها على الغلّ الحديد، فقطعته من رقبتها، وقطعت السلاسل، وخرجت من خلف الستارة، ورمت روحها على قمر الزمان وقبلته في فمه (...) وعانقته من شدة ما بها من الغرام. وقالت له: يا سيدي هل هذا يقظة أو منام، وقد منّ الله علينا بجمع شملنا؟ ثم حمدت الله وشكرته على جمع شملها بعد اليأس (...) ودخل قمر الزمان على الملكة بدور وفرح أبوها بعافيتها وزواجها وحمد الله (...) ونام قمر الزمان عندها تلك الليلة وبلغ أربه منها، وتمتعت هي بحسنه وجماله، وتعانقا إلى الصباح»<sup>(4)</sup>.

(1) م. ن، 250/2.

(2) فوكو، ميشيل: الانغماس بالذات، ص 79.

(3) عن/م. ن، ص 79.

(4) ألف ليلة وليلة، 264/2 - 265.

إنّ تمتع الملكة بدور بحسن عشيقها قمر الزمان وجماله، وإرواء دافعها الجنسي ساهما تماماً في شفائها من نوبات الصرع والغضب التي كانت قد أصابتها<sup>(1)</sup>. وهنا يمكن القول: إنّ المجامعة تخفّف الغضب العنيف، ولهذا السبب لا يوجد دواءً مثلها نافع للغاية ضدّ الاكتئاب وكره المجتمع، فالفعل الجنسيّ يهيئ النفس للطمأنينة، وهو يعيد الإنسان الكئيب والغاضب إلى حالة أكثر اتزاناً، كما يرى غاليان<sup>(2)</sup>.

وتشير سيرة الملكة بدور زوجة قمر الزمان، بالإضافة إلى مكايدها ونزعتها صوب الخيانة الجنسيّة، إلى أنّها كانت مستبدّة، وقد نشأت نشأة استبدادية في مجتمع استبدادي، وفي كنف أبيها الملك الغيور المستبدّ الجائر والظالم والقاهر الغشوم<sup>(3)</sup>، الذي قتل أربعين منجماً وحكيماً من منجمي بلاده وحكمائها لأنهم عجزوا عن شفاء ابنته بدور من نوبات مرضها العدواني<sup>(4)</sup>، ومن شدّة استبدادها فقد قتلت قهرمانتها بالسيف، من دون أن ترتكب هذه القهرمانة أيّ ذنب<sup>(5)</sup>. ويبدو أنّ عشيقها قمر الزمان، بعد أن تزوّجها، لم يستطع الحدّ من نزعاتها الاستبدادية وترويض وحش جوعها الجنسيّ الكاسر؛ ما دفعها لأن تتعلّق بولده الأمير الأسعد ابن الملكة حياة النفوس، ولم يستطع أن يخضعها لسلطته، وذلك لاستبدادها ورفضها منذ شبابه المبكر أن تتخلّى عن منزلتها السلطوية.

(1) صرّح لي أحد الأصدقاء في مدينة الرباط المغربية أنّ زوجته تُصاب بحالة من الاكتئاب، والنفور الشديد من الناس، والغضب والعدوانيّة ضدّ كلّ من يحيط بها، في حال غيابه عن منزله لمدّة طويلة، وتضطرّ هذه الزوجة للذهاب إلى الطبيب النفسي، وتعاطي العقاقير الطيّبة المهدّئة، وعندما يعود إلى منزله، ويتواصل معها جنسيّاً تُشفى من معظم حالاتها السوداويّة والعدوانيّة.

(2) عن/فوكو، ميشيل: الانهماج بالذات، ص 82.

- وهذا الصدد ترى الأدبيّات الفقهيّة أنّه إذا دام احتقان المنيّ في جسم الإنسان، أحدثت أمراضاً رديئة منها: الوسواس والجنون والصّرغ، وغير ذلك. وأنّه إذا ما تمّ تفرّغه، فإنّه يشفي كثيراً من هذه الأمراض. وإذا طال احتباسه فسد واستحال إلى كميّة سُمّيّة تسبّب أمراضاً رديئة. وتزعم هذه الأدبيّات: عن ابن عبّاس أنّ رسول الله (ص) قال: "لم نرَ للمتحمّين مثل النكاح".

- يُنظر: ابن قيم الجوزيّة، شمس الدين محمد بن أبي بكر الزرعي: الطبّ النبوي، مراجعة عبد الغني عبد الخالق، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ت، ص 194 - 195.

(3) ألف ليلة وليلة، 2/227.

(4) م. ن، 2/250.

(5) م. ن، 2/249.

## - 4 -

إنّ للنساء الجميلات في ألف ليلة وليلة، سواء أكنّ من طبقة السلطة أم من بقية الطبقات الاجتماعية الأخرى، سطوة شديدة على الرجال، باختلاف طبقاتهم ومراكزهم السياسية والاجتماعية. ومن الغريب أنّ الرجال الملوك والأثرياء في ألف ليلة وليلة - ومهما كان عدد زوجاتهم وجواريتهم كثيراً - يطمحون دائماً إلى امتلاك المزيد من هاته النسوة الجميلات امتلاكاً جنسياً، ويبدلون كلّ ما بوسعهم لامتلاكهنّ، ويفتعلون الحروب، ويتطاحنون، ويبددون أنفسهم لأجل هاته النسوة. فعلى سبيل المثال: على الرغم من كثرة نساء النبيّ سليمان بن داود، فإنّه كان يطمح إلى امتلاك آية امرأة جميلة ومغايرة لغيرها من النساء، عندما يسمع بخبرها من أعوانه عفاريت الجان، فعندما يصف له العفريت داهش بن الأعمش ابنة أحد الملوك - وهو من أولاد إبليس - بحاسنها ومفاتها، حيث «كانت أحسن أهل زمانها ذات حسن وجمال وبهاء وكمال»<sup>(1)</sup>، فإنّه سرعان ما يبدي رغبته في زواجها، ويرسل إلى أبيها الملك قائلاً<sup>(2)</sup>: «زوّجني ابنتك واكسر صنمك (...) وإن أنت أبيت أتيت بجنود لا طاقة لك بها، فاستعدّ للسؤال جواباً والبس للموت جلباباً، فسوف أسير لك بجنود تملأ الفضاء». لكنّ والد الفتاة الجميلة يرفض طلبه، عندئذ يستنفر النبيّ مملكته وأعوانه من الإنس والجان والشياطين، ويأمر وزيره الدمرياط ملك الجان، ووزيره آصف بن برخيا بأن يزحفا بجنودهما إلى هذا الملك، ويهدما مدينته فوق رأسه. ويذهبون ويهدمون المدينة، ويتزوّج النبيّ سليمان هذه المرأة الجميلة - لا يذكر الراوي اسماً لها - اغتصاباً وقهراً.

إذا كان الراوي يسوّغ للنبيّ سليمان بن داود هدمه للمدينة، ووفق إيديولوجيا دينية تهدف إلى تحقيق رغبته في تأديب هذا الملك - ابن إبليس - وإجباره على الإيمان برسالته النبوية، فإنّ متلقّي الحكاية سيقنع أنّ الهدف الرئيس من هذا الهدم هوّ المرأة الجميلة الموجودة في هذه المدينة. ويذكر الراوي أنّه أرسل الرسالة التالية إلى

(1) ألف ليلة وليلة، 33/4.

(2) م. ن، 33/4.

والد الفتاة الجميلة: «أنا قد أتيت فاررد عن نفسك ما نزل، وإلا فادخل تحت طاعتي وأقرّ برسالتي واكسر صنمك واعبد الواحد وزوجني ابنتك بالحلل، وقل أنت ومن معك أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن سليمان نبي الله، فإن قلت كان لك الأمان والسلامة، وإن أبيت فلا يمنعك تحصنك مني في هذه الجزيرة، فإن الله تبارك وتعالى أمر الريح بطاعتي، فأمرها أن تحملني إليك بالبساط وأجعلك عبرة لغيرك»<sup>(1)</sup>.

ويمكن أن يتساءل المتلقي الحكاية: لماذا لم يرجع النبي سليمان بن داود الملك الضالّ ابن ابليس إلى طريق الإيمان والحق، إلا بعد أن سمع أن له ابنة جميلة؟ وهل غزوته مدينة الملك كانت تهدف إلى عودة هذا الملك الضالّ إلى الإيمان أم هي غزوة هدفها اختطاف المرأة الجميلة والزواج بها رغماً عنها، مع العلم أن هذه المرأة رافضة له عن قناعة تامّة، بناء على قناعة أبيها الذي يكرهه. وقد يتساءل هذا المتلقي: هل يجوز للنبي سليمان أن يتزوج هذه المرأة قهراً، لأنها اختارت طريق الشرك ورفضت طلبه؟ هذا إذا كان من المتعارف عليه أن الزواج عند كل الأمم والأقوام، وعبر تاريخ الحضارات المتعاقبة والمتزامنة، لا يكون إلا برضى الطرفين. وكيف يجوز له وهو العارف بأصول الزواج وأعرافه الاجتماعية والإنسانية، أن يجبر امرأة جميلة لا تحبه على الرضوخ له والزواج به كراهيةً وغصباً، وبخاصة إذا كانت قصوره مليئة بالجواري والنساء الجميلات، ويستطيع الزواج بمن يشاء من نساء مملكته الكثيرات المؤمنات برسالته؟ وكيف يمكن فهم سرّ سطوته وإصراره على اختطاف امرأة تبغضه، ثم تدمير مدينتها، وقتل أبيها. وسي قومها<sup>(2)</sup>؟

إنّ المتلقي يجد نفسه أمام احتمالين: إمّا أن يكون النصّ الحكائي نصّاً تخيّلياً غرائبياً نسجته مخيلة راوٍ مبدع آثر أن يقدم نصّاً قادراً على إدهاش المتلقي، وشده إلى الاستمتاع بهذا النصّ، والتحليق به إلى فضاءاته السحرية البعيدة. وهنا تبدو إجابته على تساؤلاته السابقة مريحة مقنعة، فمادام فضاء الحكاية هو فضاء التخيل الغرائبي الإبداعي، فليس هناك ما يمنع الراوي من أن يقول ما يشاء، ويؤسّر ما يشاء حول حياة النبي سليمان بن داود، وطموحه لامتلاك النساء. وإمّا أن يكون

(1) ألف ليلة وليلة، 35/4.

(2) م. س، 37/4.

النصّ الحكائي قريباً من الواقع، أو مؤسساً على مجموعة من المصادر التاريخية التي تحدّثت عنه. وهنا سيعود هذا المتلقّي ويتساءل ثانية، بالإضافة إلى أسئلته السابقة: ما السرّ الخفيّ الكامن وراء اندفاعه للزواج بالمرأة غضباً؟ وهل أخلاقه أخلاق الأنبياء أم أخلاق الملوك؟. وقد يظنّ هذا المتلقّي عاجزاً عن إيجاد إجابات دقيقة عن أسئلته الكثيرة التي توقعه في مزيد من الحيرة والشكّ والإبهام.

ويبدو أنّ النبيّ سليمان بن داود كان ولعاً بامتلاك النساء وحشرهنّ في قصوره، فقد كان له ألف بيت فيها ثلثمائة صريحة، وسبعمائة سُريّة، كما يروي الطبري<sup>(1)</sup>.

وليس غريباً على راوي الحكاية أن يجعله يهدم مدينة، ويقتل ملكها، ويتزوَّج ابنته غضباً، هذا إذا عرفنا أنّ معظم ملوك ألف ليلة وليلة وأمرائها وخلفائها، من الملك شهريار مروراً بعمر النعمان حتى هارون الرشيد وغيرهم كثير، يتزوَّجون المرأة التي يريدونها شاءت أم أبت.

ونظراً لأنّ نساء ألف ليلة وليلة فانتات ومثيرات جنسيّاً، فإنّ هؤلاء الحكّام كانوا يتظامنون أمام هاته النسوة، ولذا يمكن لأية امرأة بجمال صوتها، ومفاتيح جسدها، أن تكون ذات سطوة في قصرها وعلى جواربها وعلى زوجها، كدنيا البرمكية، وزوجة أحد الرجال السلطويين في حكاية: «الحشاش مع حريم أحد الأكابر»، وجواري السيدة زبيدة. فالرواة الذين عاصروا طغاة أزمّنهم لا يستطيعون أن يتركوا أبطاهم من الملوك والأمراء في حال سعار جنسيّ، على الرّغم من جيروت النساء المعشوقات وسطوتهنّ؛ فما على النساء في نهاية المطاف إلاّ الاستسلام لرغبات رجال السلطة، وإطفاء سعارهم الجنسيّ<sup>(2)</sup>. وقد كان كثير من النساء يجد لذة في هذا الاستسلام، لأنّه يحقّق لهنّ إشباعاً جنسيّاً<sup>(3)</sup>، وطموحاً للوصول إلى أعلى المراتب السياسية، وهذا الاستسلام في بنيته العميقة ليس هزيمة، بل إنّّه يقود إلى المجد والسلطة، فبعد أن تستسلم المرأة لرغبات الرجل السلطوي تمارس بدورها سلطة جنسيّة عليه، وتمارس على جواربها وعبيدها سلطة فعليّة.

(1) تاريخ الأمم والملوك - تاريخ الطبري، 487/1.

(2) ألف ليلة وليلة، 68/2.

(3) م. ن، 186/1 - 187.

## - 5 -

على الرغم من سلطة النساء في ألف ليلة وليلة، وبطشهن واستبدادهن، فإن الرواة - بعد أن يبرزوا ملامح استبدادهن، ويثبوا إيديولوجيتهم المعادية لهن - يحطون من مكانتهن، فهن دائماً في وضعية تقبيل اليد لرجال السلطة، على الرغم من مكانتهن الاجتماعية العليا. فالسيدة شمسة بنت الملك شهلان عشيقة الأمير جانشاه في حكاية «حاسب كريم الدين وملكة الحيات»، هي وجميع أخواتها الأميرات يقبلن يد الأمير العاشق جانشاه عندما يصل إلى قصر والدهن الملك<sup>(1)</sup>. في حين أن هؤلاء الرواة يعدون الرجل السلطوي سيّداً دائماً - في معظم حكاياتهم - ويعدّون المرأة بمنزلة الجارية الدونيّة. فمعظم النساء، مهما علا شأنهن، يبقين جوارى لأزواجهن ولعشقاهن ولآبائهن، وحتى الأميرات بنات الملوك يصبحن جوارى عندما يتزوجن أو يعشقن، لأن الرواة يجبرونهن على التنازل عن مكانتهن السلطوية كأميرات. فابنة ملك صنعاء الأرستقراطية البهيّة التي تحاكي البدر الزاهر<sup>(2)</sup> تصبح جارية عند الراوي، عندما يعشقها ابن أحد ملوك ألف ليلة وليلة، فهذه الأميرة «الجارية فرحت عندما سمعت من ابن الملك هذا الكلام»<sup>(3)</sup>.

وتشير حكاية «حسن الصائغ البصري» إلى أن الأميرة منار السنّا زوجة حسن الصائغ البصري من أهمّ أميرات ألف ليلة وليلة، وأن والدها من أثرى ملوك زمانه، وأشدّهم سطوة، ويملك أقاليم وبلاداً شاسعة<sup>(4)</sup>، ومع ذلك فإن الراوي لا يراها إلاّ جارية<sup>(5)</sup> أمام زوجها، على الرغم من أن زوجها من طبقة اجتماعية دونيّة - طبقة الصاغة -. وحتى يحطّ الراوي من منزلة الأميرة منار السنّا، هذه المرأة التي كانت أميرة ثم صارت جارية بعد زواجها من حسن البصري، فإنّه يتجاهل

(1) ألف ليلة وليلة، 373/3.

(2) م. ن، 91/3.

(3) م. ن، 100/3.

(4) م. ن، 277/4.

(5) يسمي الراوي الأميرة منار السنّا بالجارية، في غير موضع من الحكاية.

- م. ن، 289/4 - 290.

اسمها منذ بداية خيوط سرد الحكاية، ولا يفصح عن هذا الاسم إلا بعد أن تكون الحكاية قد شارفت من نهايتها<sup>(1)</sup>.

وهنا يمكن القول: إن البنية الثقافية لرواة الليالي، بمفاهيمها ومعتقداتها، هي انعكاس للبنية الثقافية العامّة والتجميعية لحضارة عصرهم والعصور التي سبقتهم، هذه البنية التي تعتقد جازمةً أنّ النساء لسن إلاّ جوارى، على الرغم من علوّ مكانتهنّ الاجتماعية والسياسية، ولسن في نهاية المطاف إلاّ ملكاً للرجال، و« ما خلقت النساء إلاّ للرجال»<sup>(2)</sup>. وأتّيه مطلوب منهنّ أن يطعن الرجال طاعة مطلقة<sup>(3)</sup>، وأن لا يعادرن منازلهنّ إلاّ بأمر أزواجهنّ، لأنّ الخروج على طاعة هؤلاء

(1) تبتدئ حكاية "حسن الصانع البصري"، والتي تبدو فيها الأميرة منار السنّا أهمّ شخصية مركزية، من الصفحة 245 في المجلد الرابع إلى الصفحة 369 في المجلد نفسه، لكنّ راوي الحكاية الذي يظنّ منهمكاً في ارتحال السرد، وجاعلاً منار السنّا محوراً له، لا يشير بأيّة إشارة إلى اسمها الحقيقي، إلاّ بعد مرور اثنتين وتسعين صفحة من الحكاية، وبهذا فإنّ الإشارة الأولى إلى اسمها تقع في الصفحة 337، إذ يقول الراوي: "و السابعة منار السنّا وهي الصغيرة فيهنّ [في أحوالها السبع] وهي زوجة حسن". هذا ومن الملاحظ، ومنذ الحكاية الأولى من حكايات ألف ليلة وليلة "حكاية الملك شهريار وأخيه شاه زمان"، أنّ الراوي يحتقر أهمّ امرأتين سلطويتين في ألف ليلة وليلة، وهما زوجتا الملكين شهريار وشاه زمان، ويتجاهل اسميهما تماماً في كلّ الحكاية، فيأتي ذكر هاتين المرأتين مجرداً من اسميهما. ولا يخفى على القارئ الكريم أنّ احتقار الراوي للمرأتين يبدو شديداً. لأنّهما مارستا فعل الزنى مع عبيدين أسودين، وبخاصة إذا عرفنا إلى أيّ مدى كان الرواة يحتقرون العبيد السود في الليالي كلّما مرّ ذكرهم.

- ألف ليلة وليلة، 13/1 - 14.

(2) م. ن، 281/4.

(3) م. ن، 354/4.

- ومن الملاحظ أنّ الأدبيات الفقهيّة الإسلامية تمتلئ بالأحاديث النبويّة الشريفة التي تحضّ المرأة على طاعة زوجها، ولا تخرج عن أمره، ولا من بيته إلاّ بإذنه. ومن هذه الأحاديث:

- عن تميم الداري، عن النبي (ص)، قال: "حقّ الزوج على زوجته أن تطيع أمره وأن تبرّ قسمه ولا تمحر فراشه ولا تخرج إلاّ بإذنه ولا تُدخل عليه من يكره".

- وعن ابن عبّاس قال: سألت امرأة رسول الله (ص): "وما حقّ الرجل على امرأته؟ قال لا تخرج من بيتها إلاّ بإذنه فإن فعلت لعنتها ملائكة الرحمة وملائكة الغضب حتى تتوب وترجع".

- الجوزي، جمال الدين عبد الرحمن بن محمد: كتاب أحكام النساء، ص 138.

- وعن أبي هريرة قال: "سُئل رسول الله صلى الله عليه وسلّم: أيّ النساء خير؟ قال: التي تسره إذا نظر، وتطبعه إذا أمر، ولا تخالقه فيما يكره في نفسها وماله".

- ابن قيم الجوزية: الطبّ النبوي، ص 196.

الأزواج يعني ارتكاباً للاثام، ودخول أبواب المعاصي والهلاك. وهذه الرؤى الإيديولوجية المبثوثة في حكايات ألف ليلة وليلة تشير إلى بنية الرواة المعرفية التي يكمن وراءها عقل استبدادي معاد لاستبداد النساء وجبروتهن، ويرى أن أولى مهمّات المرأة في الحياة أن تكون وعاءاً للإنجاب واللذّة وخادمة للرجل، ترضخ لأوامره، ولا تفكرّ أبداً بالانفلات من حظيرة سطوته، وإلاّ فإنّ المصائب الهالكة ستتحقق بها. وها هو أحد الرواة يكشف عن رؤيته الاستبدادية، بحمولاتها المعرفية التي تدعو المرأة إلى حمل لواء طاعة الرجل، ومهما كانت رفيعة القدر، ويجعل بطلته منار السنن تعزّز ذلك. وهاهي تعتذر لزوجها حسن البصري عن خروجها من منزله ببغداد من دون أمره، مؤكّدة له أنّ كل ما حلّ بها من مصائب كان نتيجة لخروجها على طاعته: «هيّهات يا روعي هيّهات أن يخلّصني أحد، ممّا أنا فيه إلاّ الله تعالى، ففز بنفسك وارحل ولا ترم روحك في الهلاك فما حلّ بي هذا إلاّ لكوني عصيتك وخالفت أمرك، وخرجت من غير إذنك، فبالله عليك يا حسن لا تؤاخذني بذنبي واعلم أنّ المرأة ما تعرف قيمة الرجل حتى تفارقه وأنا أذنبت وأخطأت، ولكن أستغفر الله العظيم ممّا وقع مني وإن جمع الله شملنا لا أعصي لك أمراً بعد ذلك أبداً»<sup>(1)</sup>.

إنّ رؤية الرواة الإيديولوجية المأخوذة بوهم الرجولة والسيادة والتفوق، ساهمت إلى حدّ بعيد في تشكيل نساء ألف ليلة وليلة المستبدات اللواتي يشكّلن خطراً على مجتمع الرجال ومجتمع النساء في آن. ومن هنا فإنّه وجب على الرجال - وفق إيديولوجيا هؤلاء الرواة - في المدن الإسلامية وغير الإسلامية، حتى يمنعوا مدّ شرور النساء وبطشهن، وحتى يعمّ الأمان والطمأنينة، أن يكبحوا جموح النساء، وأن يقلّصوا أدوارهنّ في الحياة السياسية والاجتماعية، ووجب على النساء أن تعمل على دوام مرضاتهن وسعادتهن، ولذاّنذهن في المأكّل والمشرب والجسد، وخدمة أولادهن، وتربيتهم التربية التي يرونها مناسبة.

(1) ألف ليلة وليلة، 4/354.



## سلطة الحكاية وسلطة القتل

### في ألف ليلة وليلة

إنّ للحكاية تأثيراً سحرياً عذباً على المتلقي، إذ تجعله مشدوداً إلى أحداثها، منفعلاً بها، متعاطفاً مع أبطالها، أو مدهوشاً بمواقف هؤلاء الأبطال وحركاتهم، ومن هنا فإنّ متلقي الحكاية يجد نفسه، بشكل من الأشكال، مشاركاً لأبطال هذه الحكاية في أحلامهم وطموحاتهم وتجاربهم الإنسانية، لأنهم يحققون له - على مستوى الحلم والتخيّل - ما عجز عن تحقيقه في واقعه اليأس أو المحبّط. يضاف إلى ذلك شعور هذا المتلقي بأن الحكاية المروية له ستسهم في ثراء خبرته المعرفية، إذ تضيف إلى هذه الخبرة خلاصة خبرات الآخرين وتجاربهم التي يبيّنها الراوي من خلال سرده الحكائي، فراوي الحكاية «يعرف أنّ ما يحكيه يتعدّى القص إلى الإثارة وتحريك مكنون المعارف الموسوعية لدى المستمع، بحيث يمزج المستمع ما يسمعه برصيده من المعرفة من ناحية، ويكون قادراً على الربط واستدعاء الدلالات وترجمة الإشارات اللغوية من خلال تنشيط حسّه الإبداعي من ناحية أخرى»<sup>(1)</sup>.

وقد كان للحكاية - سواء أكانت مروية شفاهياً أم مدوّنة، وعبر تاريخها الطويل - تأثير كبير على الأمم والشعوب، ومنها بطبيعة الحال الشعب العربي في بواديه وحواضره. ولعلّ من أهمّ الحكايات التي كان لها القدرة الكبيرة على شدّ المستمعين إلى فرادة سحريتها وغرائبيتها حكايات ألف ليلة وليلة. وقد لاحظ الكولونيل كبر Colonel Capper، وهو في طريقه إلى الهند ماراً بمصر عبر الصحراء،

(1) إبراهيم، د. نبيلة: "لغة القصّ في التراث العربي القديم"، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، المجلد الثاني، العدد الثاني، يناير، فبراير، مارس، 1982م، ص 14 - 15.

مدى تأثير سلطة حكايات ألف ليلة وليلة على عرب الصحراء وشغفهم بها. يقول<sup>(1)</sup>: «لقد تيسّر لي أكثر من مرة أن أرى العرب في الصحراء متحلّقين حول النيران، يستمعون إلى تلك القصص [قصص ألف ليلة وليلة] بانتباه وسعادة تنسيهم التعب والنصب الذي كان يستغرقهم منذ لحظات».

في ألف ليلة وليلة ثمة تقديس للحكاية، لأنّها تعمل على إنقاذ الشخص من القتل، فالشخص الذين يتعرضون للبطش، سواء كان هذا البطش من قبل السلطة السياسية، أو من شخص أقوى منهم، يقدون أنفسهم بقصّ حكاية عجيبة، و«التاجر أو الأمير اللذان يهددهما الموت على يدّ جنّيّ يستردّان حياتهما عندما يسردان حكاية»<sup>(2)</sup>، وتكون هذه الحكاية فعّالة وقادرة على إلغاء قرار القتل كلّما كانت غرائبية وسحرية وبعيدة في التخيل، وجديدة بالنسبة للمروي له، لأنّها تضيف إلى معارفه معارف جديدة. إنّها بتعبير آخر تزيد مخزونه المعرفي ثراءً وتتمّي حسّه الإنساني الأخلاقي الذي ينتصر في النهاية على اندفاعه العدواني الشرير. يُضاف إلى ذلك قدرة الحكاية السحرية على تأجيج رغبة المروي له - سواء أكان سلطوياً أم غير سلطوي - لكي يظلّ متابعاً الراوي إلى ذروة الأحداث، إلى أن تُفكّ حيكتهما السردية في نهاية المطاف، وتحقّق للمروي له حالة من الانسجام الداخلي بينه وبين ذاته، والانسجام الخارجي بينه وبين مدينته وشعبه، بحيث تنفرج أزمته الحادّة مع من سبب له هذه الأزمة، وعندما تنفرج فإنّه يعفو عن الراوي. وتبدو «كثيرة هي الشخصيات التي تروي حكاية بغية العيش أو النجاة في الليالي»<sup>(3)</sup>.

ومنذ بداية حكايات ألف ليلة وليلة وعت الراوية شهرزاد أهمية الحكاية بالنسبة للمتلقّي شهریار، وكانت قادرة على تشكيل مزيد من الحكايات

(1) عن/بينولت، ديفيد: "مدخل إلى ألف ليلة وليلة"، ترجمة حسنة عبد السميع، مجلة فصول، المجلد الثاني عشر، العدد الرابع، شتاء 1994م، 37.

(2) Miquel, Andre: Les Dames de Bagdad "conte des mille et une nuits", Éditions Desjonquères, Paris, 1991, p. 129.

(3) Kilito, Abadel Fattah: L'oeil et L'aiguille, "essais sur "les mille et une nuits"", Éditions La Découverte, Paris, 1992, p. 43.

الغرائبية والسحرية والواقعية التاريخية بفضل قراءتها «الكتب والتواريخ وسير الملوك المتقدمين وأخبار الأمم الماضين»<sup>(1)</sup>. وعندما فرّت نساء المملكة هاربة من شهریار - الذي اعتاد أن يفتصّ كل يوم عذراء من نساء مملكته ثم يقتلها<sup>(2)</sup>، بعد أن اكتشف خيانة زوجته له مع عبده مسعود - قرّرت شهرزاد أن تفدي نفسها ومدينتها بفعل تأثير الحكاية، وقالت لأبيها: «بالله يا أبت زوجني هذا الملك، فإمّا أن أعيش وإمّا أن أكون فداءً لبنات المدينة وسبباً لخلاصهنّ من بين يديه»<sup>(3)</sup>.

«أحكّ حكاية وإلاّ قتلتك»: مبدأ جوهرى في سلسلة ألف ليلة وليلة، مبدأ القصّ باعتباره فنة مطلقة»<sup>(4)</sup>. ومن خلال هذا المبدأ الجوهري يمكننا أن نفهم كيف تتشكّل الحكاية، وكيف يرتحل السرد حاملاً الأبطال من مدينة إلى أخرى. ومن خلال المساحة السردية التي تتحرك فيها الأحداث الحكائية، يُفتنّ شهریار بعذوبة القصّ، وسحرية الفضاءات المكانيّة التي يصل إليها الأبطال. تحكي شهرزاد الحكاية. تتقدّم الجوّاري الجميلات فاردات خرائط أجسادهنّ، فيندفع الرجال مسعورين صوب هاته الجوّاري، ثم تبعدهم شهرزاد بارتحالهم مع السرد المرتحل، في حكاية جديدة، إلى فضاءات جديدة، ثم تتداخل الأحداث، ثم يدرك شهرزاد الصباح فتسكت عن الكلام المباح<sup>(5)</sup>. عندها تستسلم لذراعي شهریار: «ثم إنهم باتوا تلك الليلة متعانقين»<sup>(6)</sup>.

وعندما تنام شهرزاد متعانقة مع شهریار، فإنها تكون مطمئنة إلى أنّه لن يقتلها إلاّ بعد أن تنتهي خيوط الحكاية، وأنّه سيصبر عليها حتى يعرف مصير

(1) ألف ليلة وليلة، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، دون تاريخ، 15/1.

(2) يقول الراوي: "ولم يزل على ذلك مدة ثلاث سنوات فضجّت الناس وهربت ببناتها ولم يبق في تلك المدينة بنت تتحمّل الوطاء".

- م. س، 15/1.

(3) ألف ليلة وليلة، 16/1.

(4) الخطيبى، د. عبد الكبير: في الكتابة والتجربة، ترجمة د. محمد براءة، دار العودة، بيروت، الطبعة الأولى 1980م، ص 111.

(5) ألف ليلة وليلة، 26/1.

(6) م. س، 30/1.

أبطال الحكاية الذين يتعاطف معهم، والذين يلتقون معه بشكل أو بآخر، حيث يبدون مطعونين مثله بخيانة زوجاتهم لهم، فيما إذا سافروا خارج مدنها للحرب أو الصيد أو التجارة، عندها يؤجّل شهريار الملك قتلها حتى تنتهي حكايتها، وما إن تنتهي الحكاية حتى تعود شهرزاد ثانية لتحريض شهريار على فعل السماع والتوق إلى حوادث غرائبية جديدة، إذ تعده - إن أبقاها حيّة - أنها ستحكي له حكاية جديدة أكثر غرابة وجمالاً من الحكاية السابقة: «قالت دنيازاد: ما أحسن حديثك يا أختاه وما أطيبه، وما أحلاه وما أعذبه. قالت شهرزاد: وأين هذا من حكاية علي شار. فقال الملك في نفسه: والله لا أقتلها حتى أسمع بقية حديثها، ثم قال لها: وما هي حكاية علي شار؟»<sup>(1)</sup>

إنّ شهريار لا يستطيع أن يقتل شهرزاد طالما أنّها تروي حكايات عذبة جديدة، لأنّه منذ الحكاية الأولى بات مفتوناً بالسرد الغرائبي والسحري، وبات أسيراً لحوادثه التي ستكتمل في الليلة القادمة، أو في عدّة ليالٍ أخرى. ولقد كانت شهرزاد راوية بارعة قادرة على أن تجعل شهريار أسيراً لهذه الحوادث غير المكتملة، لأنّ الحدث يظلّ قابلاً لأن يفتح على حكايات فرعية مثيرة متفرّعة عن الحكاية الأصليّة، موصولة بها، ومقطوعة عنها في آن. فسلسلة الانقطاعات في الحكاية الواحدة تسمح بولادة حكايات جديدة، وعندما تروي شهرزاد، فإنّها لا تكمل ما ترويّه، بل تقطعه مستحضرة شخصيات جديدة، ثم فيما بعد تعود إلى الحدث الأصلي، ثم تقطعه ثانية، ثم تنتهي الليلة، وتبقى الأحداث في الحكاية الأصليّة والفرعية غير مكتملة، ويبقى مصير الأبطال في الحكايتين مجهولاً. ومن هنا فإنّ شهريار يظلّ في حالة توقٍ لملاحقة السرد، ولمعرفة مصير هؤلاء الأبطال في الفضاءات المكانيّة الجديدة التي يرتحلون إليها. وعندما تنتهي الحكاية الأصليّة والحكايات المتفرّعة عنها تعود شهرزاد مشكّلة حكاية جديدة تماثل الحكاية السابقة من حيث غرابتها، بل تفوقها أحياناً، فهي لا تستطيع أن تتوقّف عن القصّ المقطوع الموصول في آن، لأنّها تعلم إن هي توقفت فإنّ مصيرها سيكون القتل. وشهريار لا يستطيع أن يقتلها لأنّه يعلم أنّ قتلها

سيفقده لذه الاستماع والاكتشاف والدهشة، وهو يجد نفسه أسيراً لفتنة السرد، بنسائه الجميلات المثيرات، ومدنه «الواقعية بقطيعيها العربي والفارسي، والأسطورية»<sup>(1)</sup>، والمدن التي تعتبر «وسطاً ما بين الحقيقة والأسطورة»<sup>(2)</sup>، وحوادثه التي تنتشله من هموم السياسة والحكم، وتقذف به بعيداً صوب عوالم التخيل السحرية، وذاكرة الحضارات التي سبقتها، أو تزامنت مع حضارة مملكته. فـ «القصة تساوي الحياة وغياب القصة يساوي الموت. وإذا لم تجد شهرزاد قصصاً لترويبها، فإنها ستُعدم»<sup>(3)</sup>.

إن معظم شخوص ألف ليلة وليلة، ومنذ الحكاية الأولى التي تحكيها شهرزاد لشهريار، يلجؤون إلى إنقاذ أنفسهم، وإنقاذ من يحبونهم إذا وقع عليهم الظلم، وإذا ألمت بهم المصائب، وحدقت بهم المخاطر التي تصل حد الموت. وهذا ما تشير إليه الحكاية الأولى التي تحكيها شهرزاد لشهريار، حكاية «التاجر والجنّي والشيوخ الثلاثة»، فقبل أن يفتضّ شهريار شهرزاد تمهيداً لقتلها في ليلتها الأولى، كعادته مع نساء مملكته، تسارع أختها دنيازاد لتطلب منها أن تحكي حكاية، وهذا ما كانتا قد اتفقتا عليه قبل قدومهنّ إلى قصر الملك شهريار: «بالله عليك يا أختاه حدّثينا حديثاً نقطع به سهر ليلتنا، فقالت: حبّاً وكرامة إن أذن لي الملك»<sup>(4)</sup>. عندها تبدأ شهرزاد بسرد حكاية «التاجر والجنّي والشيوخ الثلاثة». ففي هذه الحكاية يجلس أحد التجار المسافرين بقصد التجارة تحت إحدى الأشجار، ويبدأ بتناول طعامه: «وحطّ يده في خرجه وأكل كسرة كانت معه وقمرة، فلما فرغ من أكل التمرة رمى النواة فإذا بعفريت طويل القامة ويده سيف دنا من ذلك التاجر وقال له: قم حتى أقتلك (...)، [فقد] جاءت النواة في صدر ولدي فقضي عليه لساعته. ثم جذبته وبطحه على الأرض،

Miquel, Andre: Un conte des mille et une nuits "Ajib et Gharib", Flammarion, (1) Paris, 1979, p. 167.

Ibid, p. 170. (2)

(3) تودورف، تريفيتان: مفهوم الأدب، ترجمة د. منذر عياشي، دار الذاكرة، حمص، الطبعة الأولى، 1991م، ص 144.

(4) ألف ليلة وليلة، 16/1.

فبكى التاجر»<sup>(1)</sup>. إلا أن الراوي رأى أن يُنقذ بطله التاجر من القتل، وذلك بفعل تأثير ثلاث حكايات سحرية يرويها ثلاثة أبطال آخرين مساعدين لهذا البطل التاجر أمام العفريت. إذ يستحضر ثلاثة شيوخ إلى المكان الذي ينوي فيه العفريت قتل التاجر، ويعرض كل منهم على هذا العفريت أن يحكي له حكاية جرت معه، وتمسّه شخصياً. يقول الراوي<sup>(2)</sup>:

«فانتبه منهم الشيخ الأول وقبّل يد العفريت وقال: يا ملك ملوك الجنان، إذ حكيت لك حكايتي مع هذه الغزالة أتهب لي ثلث دم هذا التاجر؟ قال نعم». ويحكي الشيخ الأول حكايته، فيهب العفريت ثلث دم التاجر<sup>(3)</sup>، ويحكي الشيخ الثاني حكايته مع الكلبتين المرافقتين له، فيهب له العفريت ثلث دم التاجر<sup>(4)</sup>. أمّا الشيخ الثالث صاحب البغلة فيتقدّم إلى العفريت قائلاً<sup>(5)</sup>: «أنا أحكي حكاية أعجب من حكاية الاثنين وتهب لي باقي دمه وجنابته. فقال الجنيّ: نعم».

وما إن تنتهي الحكايات الثلاث التي رواها الشيوخ، حتى يكون الجنيّ قد افتتن بهذه الحكايات السحرية، وتأثر بإيديولوجيا العفو التي بثها الراوي في حكاية الشيخ الثاني: «يا محسنًا لمن أساء كفى المسيء فعله»<sup>(6)</sup>، وانتشى طرباً وقرّر أن يهب باقي دم التاجر للشيخ الثالث: «فلما فرغ من حديثه [أي الشيخ الثالث] اهتزّ الجنيّ من الطرب ووهب له باقي دمه»<sup>(7)</sup>.

ولم يعف الجنيّ عن التاجر الذي قتل ابنه بفضل هذه الحكايات الثلاث التي رواها الشيوخ الثلاثة فحسب، بل جعلته هذه الحكايات، تحت تأثير سطوتها، يهتّر طرباً. فمهمّة الحكاية أن تحقّق درجة عالية من المتعة للمتلقّي، وتخرجه من حالة يأسه وحزنه، وتهدّب طباعه الوحشيّة، وتدفعه لأن يكون كريماً متسامحاً مع الذين

(1) ألف ليلة وليلة، 16/1.

(2) م. س، 18/1.

(3) م. س، 20/1.

(4) م. س، 22/1.

(5) م. س، 22/1.

(6) م. س، 22/1.

(7) م. س، 22/1.

أخطؤوا بحقه. ومن هنا فإن العفريت المليء بالقهر والحزن على ولده، والمشحون بالغضب وشر الانتقام من التاجر الذي قتل هذا الولد<sup>(1)</sup>، يصبح بعد أن سمع الحكايات السحرية المثيرة مليئاً بالرحمة، ومأخوذاً بحالة من الصفاء والفرح والاهتزاز نشوة، وقد نسي أحزانه على ولده، فما كان منه إلا أن عفا عن قاتل ولده.

إن شهرزاد وهي تروي لشهريار حكاية «التاجر والجنّي والشيوخ الثلاثة» تطمح إلى انتزاع محالب الوحش عند شهريار، وتهذيب طباعه وأنسنتها، والانتقال به من حالته الهمجية والدموية إلى حالة حضارية تدفعه لأن يعفو عنها وعن نساء مدينتها، وكأنها تقول له: إذا كان هذا الجنّي الباطش المليء بالشرّ وشهوة الانتقام ممن قتل ولده خطأً، قد رُقّ وامتلاً نشوة وطرباً، وعفا عن هذا القاتل بعد أن سمع هذه الحكايات العجيبة، فلماذا لا تتحلّى عن بطشك ودمويتك، وتنتقل من حالتك الهمجية إلى حالة إنسانية، تصبح فيها منتشياً طرباً أمام هذه الحكايات السحرية التي أرويتها لك، وتعفو عني مثلما عفا ذلك العفريت عن ذلك التاجر، مع العلم أنني لم أرتكب أيّ ذنب يستوجب القتل؟

وقد نجحت شهرزاد فيما بعد في ترويض الوحش الشهرياريّ، ونزع مخالبه، تحت تأثير سلطة حكاياتها الغرائبية المثيرة، لأنها عمدت إلى أن «تقاوم الرجل [شهريار] بسلاح اللغة، فحوّلته إلى (مستمع) وهي (مبدعة) وأدخلته في لعبة المجاز وشبكته في نصّ مفتوح، نصّ تقوم الحكبة فيه على الانتشار والتداخل والتبدّل والتنوّع. وتاه الرجل في هذا السحر الجديد»<sup>(2)</sup>.

وتشير إحدى حكايات ألف ليلة وليلة إلى أنّ الخليفة هارون الرشيد كان يقف مفتوناً ومنتشياً تحت تأثير الحكايات التي تُروى له، وكان إذا ما سمع حكاية

(1) يقول الراوي: "فانكشف الغبار وإذا بذلك الجنّي ويديه مسلول وعيونه ترمي الشرر، فأتاهم وجذب ذلك التاجر من بينهم وقال له: قم أقتلك مثلما قتلت ولدي وحشاشة كبدي".

- ألف ليلة وليلة، 17/1.

(2) الغدّامي، د. عبد الله محمد: المرأة واللغة، المركز الثقافي العربي، بيروت/الدار البيضاء، الطبعة الأولى 1996م، ص 58.

جميلة يسارع في العفو عن الشخص المغضوب عليه غضباً يصل حتى القتل. ففي حكاية: «الوزير نور الدين مع أخيه شمس الدين» يكون أحد عبيد الوزير جعفر البرمكي هو السبب الرئيس في قتل زوجة أحد التجار، بعد أن ادعى افتراءً أنها عشيقته، وأنها أعطته تفاحة حمراء كعربون محبة - وهي تلك التفاحة التي اشتتها الزوجة بعد شفائها من مرض شديد ألم بها، فما كان من زوجها إلا أن سافر خصيصاً إلى البصرة لإحضار هذه التفاحة محبةً بزوجه - وعندما يشاهد الزوج التاجر التفاحة الحمراء بيد العبد يسأله عن مصدرها فيجيبه العبد قائلاً<sup>(1)</sup>: «أخذتها من حبيتي وأنا كنت غائباً وجئت فوجدتها ضعيفة وعندها ثلاث تفاحات، فقالت إن زوجي الديوث سافر من شأها إلى البصرة فاشترتها بثلاثة دنانير، فأخذت منها هذه»، فشك التاجر بأن زوجته قد خانته مع هذا العبد، فأسرع وأخذ سكيناً، ونحرها وقطع رأسها وأعضاءها<sup>(2)</sup>.

ويتوالى السرد الحكائي ليكشف حقيقة العبد، وأن المرأة قُتلت، وهي بريئة، بسبب افتراء العبد عليها. ويُدان العبد ويُسجن تمهيداً لمحاكمته، ثم قتله فيما بعد، لكن سيده الوزير جعفر البرمكي يغري الرشيد بحكاية أشد غرابة من حكاية التاجر مع زوجته المقتولة، وهي حكاية «الوزير نور الدين مع أخيه شمس الدين». يقول الراوي<sup>(3)</sup>: «فقال الخليفة: وأي حكاية أعجب من هذه الحكاية، فقال جعفر: يا أمير المؤمنين لا أحدتلك إلا بشرط أن تعتق عبدي من القتل، فقال: قد وهبت لك دمه». وتحت تأثير سلطة الحكاية وسحرها يعفو الرشيد عن عبد جعفر البرمكي، الذي كان السبب في قتل زوجة التاجر البريئة، ويعفو عن الزوج القاتل، ويجعله من ندمائه<sup>(4)</sup>.

وفي موضع آخر يبدو تأثير سلطة الحكاية على أحد الملوك (ملك الصين) تأثيراً قوياً، إذ يستمتع هذا الملك بمجموعة من الحكايات التاريخية والغريبة التي

(1) ألف ليلة وليلة، 1/91 - 92.

(2) ألف ليلة وليلة، 1/92.

(3) م. س، 1/93.

(4) م. س، 1/124.

يحكيها له مجموعة من الشّخوص المتّهمين بأنّهم كانوا السّبب الرّئيس في موت مهرّجه الأحذب - الذي كان من خاصّة مقرّبيه ومهرّجيه - . ففي حكاية «الأحذب وملك الصّين»، يتقدّم مجموعة من الأشخاص مكوّنة من رجل نصراني ومباشر على مطبخ السّلطان (المشرف على الطّبّاحين) ويهوديّ وحيّاط، ويحكون لملك الصّين حكاياتهم أملاً في أن يعفو عنهم، ويمتنع عن شنقهم لأنّهم مدانون بجرّمة قتل مهرّجه الغامضة، فيحكي الرجل الأوّل النّصراني حكايته العجيبة للملك، لكنّ الملك لا يرى فيها جديداً مثيراً، فيقول لهم: «لا بدّ من شنقكم جميعاً»<sup>(1)</sup>. ويتقدّم الرجل الثّاني المباشر بين يدي الملك ويحكي حكاية جديدة، ويظنّ أنّها أشدّ غرابة من حكاية الأحذب مع هؤلاء الرجال المتّهمين بقتله، لكنّ الملك يقول له<sup>(2)</sup>: «ما هذا بأعذب من حديث الأحذب، بل حديث الأحذب أعذب من ذلك ولا بدّ من شنقكم جميعاً». ويأتي دور اليهوديّ ويحكي لملك الصّين حكايته - أملاً في أن تكون ذات تأثير سحري عليه، بحيث تجعله يعفو عنهم - إلاّ أنّ الملك لا يراها بأعجب من حكاية الأحذب، ويصمّم على شنقهم جميعاً<sup>(3)</sup>، لكنّه يعطيهم فرصة رابعة حتى ينقذوا أنفسهم، وذلك بأن يحكي الحّيّاط له حكاية أكثر تشويقاً وإثارة من الحكايات الثّلاث. يقول الملك<sup>(4)</sup> للحّيّاط: «يا حّيّاط إن حدثتني بشيء أعجب من حديث الأحذب وهبت لكم أرواحكم».

وإذا كان الملك قد قال للنصرانيّ والمباشر واليهوديّ إنّهم لم يعجب بحكاياتهم، فليس لأنّ هذه الحكايات غير مثيرة أو غير عجيبة، أو غير قادرة على إمتاع الملك، بل لأنّه يريد أن يستمتع بالمزيد من الحكايات السحرية قبل أن يعفو عنهم، فهو سيعفو عنهم في الثّهيّة، لكنّه قبل أن يعفو عنهم يريد أن يُخرج كلّ ما في مخزونهم الحكائيّ من حكايات سحرية غرائبية ومثيرة، فما كان منه إلاّ أن طلب من الحّيّاط أن يحكي له حكاية جديدة أكثر غرابة وإثارة من الحكايات السابقة. ولأنّ الحّيّاط

(1) م. س، 1/138.

(2) م. س، 1/138.

(3) م. س، 1/150.

(4) م. س، 1/150.

كان يعرف أنه كلما كان قادراً على إدهاش الملك، وزيادة تشويقهم إلى سماع الحكايات، وبالتالي تحفيز رغباته للدخول في عوالم سحرية ومثيرة، كان قادراً على انتزاع العفو منه، له ولزملائه. ومن هنا فقد عمد إلى توسيع الفضاء السردّي لحكايته، وجعله قادراً على احتواء ثماني حكايات في حكاية واحدة. إذ يحكي الخياط لملك الصين الحكاية التي سمعها من الشاب البغداديّ الجميل وما جرى له مع عشيقته بنت قاضي بغداد، ومع إحدى المزيّنين الفضوليين في مدينة بغداد<sup>(1)</sup>. ثم يروي الخياط لملك الصين ما رواه المزيّن البغداديّ الفضوليّ لهذا الخياط، وهو عبارة عن سبع حكايات عجيبة تخصّه هو وأخوته الستّة، وهذه الحكايات السبع<sup>(2)</sup> هي نفسها التي سبق لهذا المزيّن ورواها أمام الخليفة العباسي المنتصر بالله بن المتوكّل ( 247 - 248هـ/ 861 - 862م).

وهكذا تتعدّد الأصوات السردّية في الحكاية الواحدة، لتتشابك وتتضافر مجتمعة على إنقاذ الشخوص المحكوم عليهم بالموت. ففي هذه الحكاية، حكاية «الأحذب وملك الصين»، تقوم الأصوات الآتية بعملية السرد الحكائي: صوت شهرزاد - صوت الرجل النصرانيّ - صوت المباشر - صوت اليهوديّ - صوت الخياط - صوت الشاب البغداديّ الجميل - صوت المزيّن البغداديّ الفضولي - صوت إخوته الستّة. وهذه الأصوات تقوم بسرد الحكاية على الشكل الآتي:

1. شهرزاد تسرد للملك شهريار.
2. النصرانيّ يسرد لملك الصين.
3. المباشر يسرد لملك الصين.
4. اليهوديّ يسرد لملك الصين.
5. الخياط يسرد لملك الصين.
6. الشاب البغداديّ الجميل يسرد للخياط ما جرى له مع مزيّن بغداد.

(1) ألف ليلة وليلة، 1/150.

(2) الحكاية الأولى ص 139. الحكاية الثانية ص 160. الحكاية الثالثة ص 163. الحكاية الرابعة ص 165. الحكاية الخامسة ص 168. الحكاية السادسة ص 170. الحكاية السابعة ص 177. وكل هذه الحكايات في المجلد الأول.

7. إخوة مزين بغداد يسردون لأخيهم المزين حكاياتهم الست.
8. مزين بغداد يسرد للخليفة العباسي المنتصر بالله حكايات إخوته الستة.
9. مزين بغداد يسرد للخياط ما جرى له مع الخليفة العباسي المنتصر بالله، ويسرد حكايات إخوته.

10. مزين بغداد يسرد - للمرة الثالثة - لملك الصين حكايته مع الشاب البغدادي الجميل، وحكايته مع الخليفة العباسي المنتصر بالله، وحكايات إخوته الغرائبية التي حدثت في فضاءات مكانية متعددة جداً.

إن حكايات ألف ليلة وليلة تتوالد لتعمل على تخليص الشخص من بطش مقصلة السلطة، انطلاقاً «من العجيب إلى الأعجب إلى الأكثر عجباً». وواضح من هذا الترابط أن الأول وليد الثاني. فكلما انتهت حكاية كبرى وتناست حكايات فرعية عديدة ضمنها، كانت النهاية بتعجب الشخصيات المروي لهم في الحكاية، والمروي له خارجها (...) شهر يار»<sup>(1)</sup>.

وعندما يقتنع ملك الصين بأن حكاية الخياط وما تضمنته من سبع حكايات فرعية هي الأكثر عجباً من الحكايات السابقة: حكايات النصراني والمباشر واليهودي، فإنه يعفو عنهم شرط أن يحضروا له المزين، ليعيد ويروي له حكايته وحكايات إخوته: «فلما سمع ملك الصين هذه القصة أمر بعض حجابيه أن يمضوا مع الخياط ويحضروا المزين. وقال لهم: لا بدّ من حضوره لأسمع كلامه ويكون ذلك سبباً في خلاصكم جميعاً وندفن هذا الأحذب ونواريه التراب فإنه ميت من أمس ثم نعمل له ضريحاً لأنه كان سبباً في اطلاعنا على هذه الأخبار العجيبة».

ونظراً لأن حكاية الخياط هي الأكثر غرابة ودهشة وتأثيراً على الملك، فإنه رفض أن يعفو عن الرواة الأربعة: النصراني والمباشر واليهودي والخياط، إلا بعد أن يحضروا له مزين بغداد، ليعيد سرد حكايته وحكايات إخوته للمرة الثانية أمامه. وبهذا تكون حكايات المزين وإخوته - وعددها سبع حكايات - قد سُردت مرتين أمام الملك، واحدة بصوت الخياط، وأخرى بصوت المزين، وسُردت مرة سابقة

(1) يقطين، سعيد: الرواية والتراث السرد، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، آب/أغسطس، 1992، ص 35.

أمام الخليفة العباسي المنتصر بالله بصوت المزّين. وبهذا يكون ملك الصين قد عفا عن الرواة تحت تأثير سلطة حكاياتهم العجائبية التي تبلغ إحدى عشرة حكاية<sup>(1)</sup>. وإذا كانت شهرزاد قد استطاعت أن تؤخّر الإعدام الذي يهدّدها، وذلك بسردها للحكايات الخرافية أمام شهريار<sup>(2)</sup>، فإنّ كثيراً من أبطال ألف ليلة وليلة استطاعوا أن يؤخّروا حكم الإعدام المفروض عليهم بفعل السرد العجائبي، ثم فيما بعد استطاعوا إلغاءه، عندما أصبح المروي له مدهوشاً بفعل سلطة الحكاية الجذّابة والمثيرة.

وحتى يحقّق الراوي للمروي له أعلى درجات المتعة والسعادة، وبالتالي الدخول به إلى عالم سحري غرائبي، عليه أن يعمل دائماً على استحضر النهايات المكّلة بالسعادة والمتجاوزة لحدود التخيل أحياناً، أي بتعبير آخر عليه أن ينهي حكايته بحدث عجائبي مُفرح لا يستطيع المروي له أن يتكهّن بحدوثه. فملك الصين في نهاية الحكاية تصالح مع الرواة الذين سردوا له، وعفا عنهم، واستكان إلى حقيقة موت مهرّجه الأحذب، وقرّر أن يبني له ضريحاً تخليداً لذكراه لأنّه أسعده في حياته ومماته، في حياته بفعل التهريج وجلب المسرّات له، وفي مماته لأنّه كان السبب في حضور هؤلاء الرواة المتميّزين بحكاياتهم العجيبة إلى مجلسه. لكنّ شهرزاد، التي كرّست معارفها ومخزونها الحكائي لسعادة الرجل السلطوي شهريار، لم تشأ أن تنهي الحكاية بالنهاية التي يتوقّعها شهريار، بل شكّلتها تشكيلاً يفوق تخيّلاته، إذ قذفت به إلى الحالة السحرية الأشدّ عجباً وسروراً، وذلك بأن جعلت المزّين يفاجئ ملك الصين والرواة الآخرين بمفاجأة يستحيل عليهم أن يتوقّعوا حدوثها، وهي: إنّ هذا المهرّج الأحذب الذي يظنّونه ميّتاً من أمس - على حدّ تعبير الراوي - ليس ميّتاً بل هو حيّ:

(1) واحدة بصوت النصراني، وثانية بصوت المباشر، وثالثة بصوت اليهودي. أمّا الخياط فقد سرد ثمان حكايات: حكايته، وحكاية المزّين، وحكايات إخوته الستة. مع ملاحظة أنّ حكايات المزّين وإخوته، وعددها سبع حكايات، قد سردت مرتين أمام ملك الصين.

(2) توماشفسكي، بوريس: "نظرية الأغراض" في: "نظرية المنهج الشكلي - نصوص الشكلايين الروس"، ترجمة إبراهيم الخطيب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت/الشركة المغربية للناسرين المتحدّين، الرباط، الطبعة العربية الأولى 1982، ص 183.

« فقال [المزّين] يا ملك وحقّ نعمتك إنّ هذا الأحذب فيه الرّوح، ثم إنّ المزّين أخرج من وسطه مكحلة فيها دهن ودهن رقبة الأحذب حتى عرقت، ثم أخرج كلابتين من حديد ونزل بهما في حلقة فالتقطتا قطعة السمك بعظمها، فلما أخرجها رآها الناس بعيونهم، ثم نهض الأحذب واقفاً على قدميه وعطس عطسة واستفاق من نفسه، وملس يديه على وجهه وقال لا إله إلا الله، محمد رسول الله. فتعجب الحاضرون لما رأوه وعابنوه فضحك ملك الصين حتى غشي عليه، وكذلك الحاضرون، وقال السلطان: والله إنّ هذه القصة عجيبة ما رأيت أغرب منها، ثم إنّ السلطان قال: يا مسلمين يا جماعة العسكر هل رأيتم في عمركم أحداً يموت ثم يحيا بعد ذلك؟ ولولا أنّ الله رزقه بهذا المزّين لكان اليوم من أهل الآخرة فإنّه كان سبباً لحياته، فقالوا: والله إنّ هذا من العجب العجاب»<sup>(1)</sup>.

ولا تنتهي الحكاية بالنهاية السعيدة لملك الصين وحده فحسب، بل ستحلّ السعادة على جميع الأصوات الساردة، فالحكاية فضاء عذب للراوي والمرويّ له في آن. لقد عفا ملك الصين عن الرواة، وزاد في إكرامهم، وجعلهم من خاصّة مقرّبيه. لقد كافأهم الحكاية العجائبية بأكثر ممّا كانوا يطمحون إليه، ويتوقّعون. كانوا يطمحون إلى النجاة من حبل المشنقة، وهاهم ينعمون بعطف الملك وهداياه، وأمّواله. يقول الراوي<sup>(2)</sup>: «ثم إنّ ملك الصين (...) خلع على اليهوديّ والنصرانيّ والمباشر، وخلع على كل واحد خلعة سنّية، وجعل للخياط خياطة ورّتب له الرواتب (...) وخلع على الأحذب خلعة أيضاً ورّتب له الرواتب وجعله نديمه، وأنعم على المزّين وخلع عليه خلعة سنّية ورّتب له الرواتب وجعل له جامكيّة<sup>(3)</sup>

(1) ألف ليلة وليلة، 1/182.

(2) ألف ليلة وليلة، 1/182.

(3) الجامكيّة: مرتب خدام الدولة من العسكرية (تركية).

- معلوف، لويس: المنحد في اللغة، منشورات إسماعيليان، طهران/دار المشرق، بيروت، الطبعة الحادية والعشرون، كانون الثاني (يناير) 1973م، مادة: جحك، ص 102.

وجعله مزين المملكة ونديمه، ولم يزالوا في ألد عيش وأهنئه إلى أن أتاهم هادم اللذات ومفرق الجماعات».

إن الوحدة السرديّة السابقة تؤكد أن هبات الملك لرواة الحكايات تتناسب مع أهمية حكاياتهم، وقدرة هذه الحكايات على التأثير على الملك، نظراً لما يحمله السرد الحكائي من أحداث خرافية وعجائبية. فالحكاية العجيبة الواحدة التي رواها كل من اليهودي والنصراني والمباشر كان لها خلعة سنّية واحدة. أمّا الحكايات الأعجب التي رواها الخياط فقد كان لها مكافأة أكبر، وهي أن الخياط صار نديماً للملك. أمّا مكافأة المزين فقد كانت أكبر من مكافآت اليهودي والنصراني والمباشر والخياط، لأنه هو الراوي الحقيقي للحكايات التي سبق ورواها الخياط لملك الصين، هذا من جهة، ومن جهة أخرى لأنه أبدى معرفة متطورة ذات علاقة بالخبرات الطبيّة، كان من شأنها أن تنقذ الأحذب من غيبوبته، وتدهش ملك الصين وجميع الحاضرين بمجلسه، ومن شدة دهشة ملك الصين ممّا فعله المزين للأحذب ضحك حتى غشي عليه، وأعتبر أن ما شاهده أشدّ عجباً من أية حكاية سمع بها طيلة حياته: «والله إن هذه القصّة عجيبة ما رأيت أغرب منها». ومن هنا فقد كانت مكافأة المزين هي المكافأة الكبرى من بين مكافآت الرواة الآخرين، وهي عبارة عن خمس مكافآت من أهمّ المكافآت التي يكافئ السلطان بها رعاياه<sup>(1)</sup>؛ فالملك في ألف ليلة وليلة «ينفق ماله بلا رويّة، ويغمر بالهدايا أولئك الذين يأتون إليه من بقاع الأرض ليرووا له قصّة جديدة»<sup>(2)</sup>. مع ملاحظة أن الحكايات التي رواها الخياط لملك الصين، والتي رواها المزين للخياط، كانت هي السبب الرئيس في إخراج المزين من السجن، لأنّ ملك الصين عندما سمع الحكايات من الخياط، سارع وأمر حجّابه أن يذهبوا إلى السجن، ويُخرجوا المزين منه<sup>(3)</sup>.

(1) وهذه المكافآت هي: 1 - خلع عليه خلعة سنّية. 2 - صرف له الرواتب. 3 - جعل له جامكية. 4 - جعله مزين المملكة. 5 - جعله من ندمائه الخاصين.

(2) Kilito, Abadel Fattah: L'oeil et L'aiguille, p. 30.

(3) ألف ليلة وليلة، 181/1.

وإذا كانت شهرزاد امرأة ليست كبقية النساء، لأنها جاءت إلى شهریار، وهي مصممة على إيقافه عند حدّه، وقد استجمعت في شخصيتها كل قدرات بني جنسها<sup>(1)</sup>، واستنفرت كثيراً من المخزون الحكائي والمعرفي لعصرها والعصور التي سبقتها، لتؤجّل به فعل قتلها، فإن كثيراً من أبطالها الرواة على درجة عالية من الخبرات المعرفية بالتاريخ والخرافات والسحر والأدب والموسيقى والعلوم المختلفة. وقد كانت هذه الخبرات كقيلة بالغاء أحكام إعدامهم، التي سنتها سلطات ظالمة باطشة لا تستطيع العيش إلاّ وسط برك من دماء شعوبها. وقد يكون من أهمّ مزايا هذه السلطات أنّها تعشق الحكايات، وتؤسّر في فضائها التخيليّ العذب المغربي، الفضاء الذي لا يستطيع المروي لهم، من طبقات السلطة، أن يقاوموا إغراءاته المتجدّدة النامية في المدن والأسواق والقصور والحمامات ومقصورات الجوّاري. وبالتالي لا يستطيعون إلاّ أن يقبلوا شروط الرواة التي يمكن تلخيصها بـ: إن نحن حكينا لكم يا سادة القصور ويا حكام الأمة حكاية عجيبه وغريبة، لم يسبق لكم أن سمعتم بها قطّ، هل تتكرمون بالعمو عنا، وتهبوننا دماءنا؟

إنّ الحكاية العجيبة في ألف ليلة وليلة، بالإضافة إلى قدرتها على تأجيل فعل الموت أو منعه، فإنّها تحمل خطاباً فكرياً بمحولات إيديولوجية ومعرفية، إنّها تدعو إلى الحكمة والمعرفة، وردّ الظالم عن ظلمه. وعندما يسردها الراوي فإنّه يقترح على المروي له أن يكون متأملاً في أهدافها ومقاصدها، ويدعوه بشكل ضمنيّ إلى أن يقتدي بالعنصر الجمالي والخير فيها، وأن يستفيد من هذا العنصر ليكون له عبرة وموعظة يضعهما نصب عينيه وهو يتعامل مع أفراد شعبه، ويطلق أحكامه فيهم، لأنّ القسم الأكبر من رواة ألف ليلة وليلة هم من أفراد الطبقة الشعبيّة. وعلى الرّغم من أنّ الرواة المحكوم عليهم بالموت يهدفون - بالدرجة الأولى من حكاياتهم العجيبة - إلى دفع الموت عنهم، إلاّ أنّهم وهم يروون يثّون مجموعة من القيم الإيديولوجية التي يؤمنون بها، لتكون مساعدة لهم على تقديم الموعظة والعبرة التي يأملون منها أن تؤثّر في المرويّ له، وبالتالي تدفعه لأن يقتدي بها، ويسارع في العفو

(1) النصير، ياسمين: المساحة المختفية - قراءات في الحكاية الشعبيّة، المركز الثقافي العربي، بيروت/الدار البيضاء، الطبعة الأولى 1995م، ص 140.

عنهم. وهنا يمكن القول: إنَّ الخصائص الجمالية لمختلف أشكال الأدب القصصي الشعبي تتسم «بعلاقتها المباشرة بالإيديولوجية الشعبيّة، وبـ «آمال وتطلّعات» الشعب»<sup>(1)</sup>.

إنَّ الحكاية العجيبة التي يرويها المحكوم عليه بالموت، والتي ستساعده في النجاة، هي عبارة عن حديث سحري مشوّق، ويحمل عبراً ومواعظ. يقول أحد الأبطال لأحد الملوك: «يا أيّها الملك إنّ جري لي حديث عجيب وأمر غريب، لو كُتِبَ بالإبر على أفاق البصر لكان عبرة لمن اعتبر»<sup>(2)</sup>.

وإذا كانت الحكاية العجيبة في ألف ليلة وليلة قادرة على إنقاذ الرواة الشعبيين من الموت، فإنّها أيضاً قادرة على إنقاذ الملوك من بطش ملوك آخرين، وقادرة على إعادتهم إلى مكانتهم الطبقيّة الحقيقيّة في سلّم المجد والسيادة بعد أن هزمتهم المصائب والمكائد، وقذفت بهم إلى التشرّد والاعتراب القسري والفقر الشديد. ففي حكاية «الملك قمر الزمان والملكة بدور» يصل الأمير الأجد إلى مدينة يسميها الراوي بـ «مدينة الجوس»<sup>(3)</sup>، بعد أن حاكت له أمّه وزوجة أبيه مؤامرة كادت تفكّه، وهناك يتحوّل في المدينة مستطلعاً حركة الحياة فيها، وبمصادفات ألف ليلة وليلة الغرائبية يشاهد امرأة من نساءها «ذات حسن وجمال وقدّ واعتدال ليس لها في الحسن مثال، فلما رآته رفعت القناع عن وجهها وغمزته بجوابها وعيونها، وغازلتها باللحظات وقد لعبت به أيدي الصّبايات»<sup>(4)</sup>. ومثله مثل كلّ ملوك وأمراء وأبطال ألف ليلة لم يستطع مقاومة إغراء سلطتها الأنثويّة، «فمشى قدّامها ومشّت خلفه. ولم يزل ماشياً بها من زقاق إلى زقاق ومن موضع إلى موضع»<sup>(5)</sup>. ولما كان لا يملك منزلاً في هذه المدينة، فقد جلس أمام باب كبير مغلق، وجلست المرأة الجميلة معه طالبة منه أن يفتح الباب. عند ذلك ادّعى أنّه ترك المفتاح مع خادمه،

(1) ميلتينسكي، إي.م: "الأدب القصصي الشعبي"، في: "موسوعة نظرية الأدب - إضاءة تاريخية على قضايا الشكل"، دار الشؤون الثقافية العامة/وزارة الثقافة، بغداد، الطبعة الثانية 1986م، القسم الأول، ص 101.

(2) ألف ليلة وليلة، 317/2.

(3) م. س، 310/2.

(4) م. س، 311/2.

(5) م. س، 311/2.

فما كان من الصبيّة إلا أن قامت وضربت قفل الباب بحجر فقسمته نصفين. ويدخلان المنزل، ويأتي صاحب المنزل (بهادر) الذي كان مملوكاً سخياً، صاحب جود وإحسان، وهو من أكابر رجال مدينته. وعلى انفراد يعتذر الأجد لبهادر ويحكي له قصّته من أولها إلى آخرها، عندها يعطف بهادر عليه، ويصفح عنه، ويطلب منه أن يظلّ في موقع السيّد، ويتصرّف تصرّف السيّد في داره، ومع عبده<sup>(1)</sup>.

إنّ حكاية الأمير الأجد العجيبة تسهم في التأثير على المالك الحقيقيّ للدّار (بهادر)، وتجعله يصفح عن الأجد، ويرضى بتمثيل دور المملوك الخادم لسيّده، حتى تقتنع الصبيّة بصحّة ما ادّعاها لها الأمير الأجد. وفي المنزل يقيمون حفلاً عربيدياً ماجناً قوامه اللّعب والانشراح، والطعام والشراب حتى الثمالة. ومثل شخوص ألف ليلة وليلة، وهم يشربون، تشمل المرأة، وتتمكّن الخمر منهن. ومثلها مثل معظم نساء ألف ليلة وليلة، يتعكّر مزاجها من الصفاء والانشراح والمحبة إلى السوداوية والحقد، فتأخذ السيف، وتطلب من الأمير الأجد أن يقتل المملوك بهادر، وإلا فإنّها ستقتله بدلاً منه. وبالخيلة ينجو الأجد، ويأخذ السيف ويقتلها، وينقذ المملوك بهادر<sup>(2)</sup>.

ويبدو أنّ وضع المرأة في بؤرة الشرّ والحقد والرغبة في القتل، كما تشير إليه الحكاية، يمكن أن يُفهم في النّهاية أنّه نوع من الإيديولوجيا الرجوليّة المعادية للمرأة، من حيث كونها متهمّة وشريّة، وغير قادرة على أن تكون متّزنة إذا ما شربت الخمر، ومن شدّة شرّها فإنّها مجرمة، لا يصفو لها فضاء طقس الشمال العربيّ إلاّ بقتل المملوك الذي لم يبد إلاّ الطاعة لها وللأجد: «فقال الأجد: وأي شيء خطر لك حتى أقتل مملوكي؟ قالت: لا يكمل الحظّ إلاّ بقتله»<sup>(3)</sup>.

ويتوالى السرد الحكائي لثّدان الأجد بجريمة القتل أمام ملك مدينة الجوس، ومن ثمّ لتهبه حكايته، التي يرويها كاملة لملك مدينة الجوس، دمه، وتضعه في أعلى سلّم

(1) لمزيد من التفاصيل ينظر: ألف ليلة وليلة، 312/2 - 313 - 314.

(2) م. س، 315/2.

(3) م. س، 315/2.

المجد والسيادة، حيث تقذفه من التشرّد والاعتراب إلى فضاء طبقة السلطة السياسية، الطبقة التي كان ينتمي إليها قبل تشرّده. إذ إنّ ملك المدينة عندما يسمع حكايته العجيبة، لا يستطيع أن يخفي إعجابه الشديد بهذه الحكاية، وببطلها الأمير الذي كان وفيّاً مع زوجة أبيه الملكة حياة النفوس التي أوغرت عليه صدر والده الملك قمر الزمان، فسعى في قتله<sup>(1)</sup>، وكان رافضاً الانقياد وراء رغبة المرأة الهوجاء التي تريد قتل المملوك بهادر، حتى يكتمل حظّها بقتله، فما كان من الملك عندما سمع هذه الحكاية إلّا أن عفا عن الأمير الأجد، ورجاه أن يكون وزيره، وأغدق عليه بكرم أسطوري. يقول الراوي<sup>(2)</sup>: «ثم حكى [الأجد] للملك حديثه وأخبره بما جرى له ولأخيه من المبتدأ إلى المنتهى، فتعجّب الملك من ذلك غاية العجب، وقال: إنّي قد علمت أنّك معذور، ولكن يا فتى هل لك أن تكون عندي وزيراً. فقال له: سمعاً وطاعة. فخلع عليه الملك وعلى بهادر خلعاً سنّية، وأعطاه داراً حسنة وخداماً وحشماً، وأنعم عليه بجميع ما يحتاج إليه، ورثب له الرواتب والجرايات».

يرى تزيفتان تودوروف<sup>(3)</sup> أنّه «إذا كانت كل الشخصيات [في ألف ليلة وليلة] لا تتوقّف عن روي القصص، فذلك لأنّ هذا الفعل تلقى التكريس الأعلى: فروى يساوي عاش. والمثل الأكثر بداهة، هو مثل شهرزاد نفسها، والتي تعيش مادامت تستطيع أن تتابع الروي». إلّا أنّه من الملاحظ أنّ هذا الرأي لا ينطبق على كل شخصيات ألف ليلة وليلة، وحكاياتها لأنّ الفعل روى يفقد قدرته على أن يساوي عاش في بعض الحكايات، بل يصبح هذا الفعل مساوياً للفعل قُتل أو مات، لأنّ الحكاية، في بعض الأحيان، تفقد سلطتها المؤثّرة على المروي له، وبالتالي لا تسهم في دفعه لأن يعفو عن الأشخاص المدانين بجرم، وبخاصّة إذا كان هذا الجرم فظيماً يستحقّ مرتكبه عقوبة الإعدام، ويمسّ بشكل شخصي المروي له، أو أحد أفراد عائلته. ففي حكاية «عمر النعمان وولديه شركان وضوء المكان»، يخطف حمّاد الفزازي البدويّ وقاطع الطرق الأميرة نزهة الزمان بنت الملك عمر النعمان

(1) ألف ليلة وليلة، 292/2 - 293.

(2) م. س، 317/2.

(3) مفهوم الأدب، ص 144.

من بيت المقدس، ويحملها إلى دمشق، وفي طريقه يهينها، ويسخر منها، ويضربها ضرباً وجيعاً، وما إن يصل مدينة دمشق حتى يبيعهها إلى أحد تجار الرقيق بمائة ألف درهم، وبمصادفات ألف ليلة وليلة، يحضر هذا البدويّ إلى بغداد، وفي قصر الأسرة الحاكمة (أسرة الملك عمر النعمان)، وبحضور الأميرة نزهة الزمان، يروي لهم كيف أنّه خطف بنتاً من بيت المقدس قبل اثنتين وعشرين سنة<sup>(1)</sup>، وباعها في دمشق، دون أن يعرف أنّ المرويّ لها، الأميرة الماثلة أمامه، هي نفس البنت التي خطفها سابقاً. وما إن ينهي حكايته حتى تتأكد نزهة الزمان أنّها أمام خاطفها الذي أذلّها سابقاً. فتسارع إلى قتله: «ثم قالت لهم: الآن حلّ قتله. ثم جذبت السيف وقامت إلى البدويّ لقتله، وإذا هو صاح وقال: يا ملوك الزمان لا تدعوها تقتلني حتى أحكي لكم ما جرى لي من العجائب. فقال ابن أخيها كان ما كان: يا عمّي دعيه يحكي لنا حكاية وبعد ذلك افعلي ما تريدان فرجعت عنه، فقال: يا ملوك الزمان إن حكيت لكم حكاية عجيبة هل تعفون عني؟ قالوا: نعم»<sup>(2)</sup>.

ويحكي لهم البدوي حمّاد الفزاري حكايته العجيبة، وما جرى له مع رجل كريم اسمه عباد بن تميم بن ثعلبة، وكيف أكرمه عباد بن تميم، وآواه وأطعمه وصادقه، لكنّه استغلّ صداقته، واحتال عليه، وخانه، وقتله، وأراد اغتصاب أخته الجميلة<sup>(3)</sup>. وعندما انتهى من حكايته اعتقد أنّها قادرة على التأثير عليهم، وانتزاع العفو منهم. وقال<sup>(4)</sup>: «وهذه الحكاية أعجب من حكايتي الأولى مع البنت الخادمة التي خطفتها من بيت المقدس». لكنّ النتيجة كانت عكس ما توقع هذا البدويّ، فالحكاية لم تعجب المروي لها، بل حرّكت أشجانها، وتراءت لها صورة البدويّ الجلف الذي أوجعها ضرباً وشتماً وسخر منها، وهنا زاد تصميمها على قتله، لأنّها تأكّدت من أنّها أمام خاطف وظالم، بل أمام مجرم سفّاح، وأنّه يجب أن يُقتل تأسيساً على النصّ القرآنيّ: «وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ

(1) ألف ليلة وليلة، 2/121.

(2) ألف ليلة وليلة، 2/121.

(3) لمزيد من الاطلاع على تفاصيل هذه الحكاية يُنظر: ألف ليلة وليلة، 2/من ص 122 إلى ص 128.

(4) م. س، 2/128.

وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ...»<sup>(1)</sup>. فما كان منها إلا أن «تبدل النور في عينيها بالظلام، وقامت وجرّدت السيف وضربت به البدويّ حمّاد (...) فأطلعته من علاقته»<sup>(2)</sup>.

وفي نفس الحكاية السابقة حكاية «عمر النعمان وولديه»، يرتكب العبد غضبان، أحد عبيد الملك عمر النعمان، جريمة شنعاء، إذ يراود سيّدته الملكة أبريزة - زوجة عمر النعمان - عن نفسها، وعندما ترفضه مُحْتَقَرَةً، يجرّد حسامه ويقتلها. يقول الراوي<sup>(3)</sup>: «وحين رآها الغضبان نزلت على الأرض وقف الشيطان في وجهه فشهّر حسامه في وجهها، وقال: يا سيّدتي ارحميني بوصلك فلمّا سمعت مقالته التفتت إليه وقالت له ما بقي إلاّ العبيد السّود بعدما كنت لا أرضى بالملوك الصناديد؟ (...)، [و] بكت بكاءً شديداً وقالت: ويلك يا غضبان وهل بلغ من قدرك أن تخاطبني بهذا الخطاب يا ولد الزنى وتربية الخنى؟ فغضب منها غضباً شديداً وتقدّم إليها وضربها بالسيف فقتلها، وساق جوادها قدّامه بعد أن أخذ المال وفرّ بنفسه هارباً في الجبال».

ويفرّ العبد غضبان بأموال سيّدته أبريزة بعد أن قتلها. ويتوالى السرد الحكائي، ويقع العبد غضبان بين يدي ولدها رومزان، بعد أن صار ملكاً، ويحكى غضبان للملك رومزان حكايته العجيبة مع سيّدته الملكة أبريزة التي قتلها، دون أن يعرف أنّه يحكي هذه الحكاية لولدها. وما إن يسمع رومزان هذه الحكاية حتى يسارع في قتل العبد غضبان انتقاماً لوالدته المغدورة. يقول الراوي<sup>(4)</sup>: «وأخبرهم بما وقع له مع الملكة أبريزة بنت الملك حردوب ملك الروم، وكيف قتلها وهرب، فلم يتمّ العبد كلامه حتى رمى الملك رومزان رقبته بالحسام، وقال: الحمد لله الذي أحياي وأخذت ثأر أمي بيدي. وأخبرهم أنّ دايته مرجانة حكّت له على هذا العبد الذي اسمه غضبان».

(1) سورة المائدة، آية 45.

(2) ألف ليلة وليلة، 128/2.

(3) م. م، 1/277 - 278.

(4) ألف ليلة وليلة، 128/2.

ولأنّ حكاية العبد غضبان أكّدت جرائمه الكثيرة: التهديد بالاعتصاب، قتل الملكة أبريزة، سرقة أموالها، فقد فقدت سلطة تأثيرها السحري العذب على المروي له، وأتت بنتيجة سلبية، إذ شحنت المروي له الملك رومزان ابن الملكة أبريزة بالحقد والرغبة بالانتقام من الراوي قاتل والدته، فما كان منه إلاّ أن أسرع بالانتقام من العبد غضبان وقتله. على أن قتل هذا العبد في هذه الحكاية لا يعني أنّها تفقد سحريتها وتأثيرها على مستمعين آخرين، لأنّ هذه الحكاية جزء يتفرّع من حكاية عجائبية كبرى هي حكاية «الملك عمر النعمان وولديه شركان وضوء المكان»، ويتداخل معها في آن، وهي تستمدّ منها بعض مقوماتها العجائبية. ولذا فإنّ ما ينطبق على الكلّ الحكائي ينطبق في آن على عناصره الجزئية الأخرى. وحسب تصوّر كلود بريمون **Claude Bremond**، فإنّ كلّ حكاية تتكوّن من تداخل أو تشابك قصص صغيرة مؤلّفة من «عناصر يتحدّث وجودها، وكل قصص العالم وحكاياته تتكوّن حسب هذا التصرّوّر - انطلاقاً من تركيبات مختلفة لعشرات الحكايات الصغرى ذات الهيكل الثابت، علماً بأنّ هذه التركيبات المختلفة تمثّل عدداً صغيراً من مجموع الحالات والوضعيات الأساسية في الحياة»<sup>(1)</sup>.

إنّ قتل العبد غضبان في حكاية «عمر النعمان وولديه شركان وضوء المكان» يأتي منسجماً مع مجموع المقولات الإيديولوجية التي يعتنقها الراوي والمروي له في آن. فالقتل في المفهوم الإسلامي محرّم، وعقوبته أن يُعاقب القاتل بالقتل، وهذه رؤية إيديولوجية إسلامية يؤمن بها كلّ رواة ألف ليلة وليلة، على اختلاف طوائفهم الدينيّة، يضاف إلى ذلك أن قتل العبد غضبان يبدو ضرورياً جداً في المبنى الحكائي العام لألف ليلة وليلة، لأنّ هذا العبد اجترأ وقتل سيّدته الملكة التي تقف في أعلى سلّم السلطة، بوصفها زوجة لملك عظيم الشأن هو الملك عمر النعمان، وأمّاً لملك عظيم آخر هو الملك «رومزان». ولأنّ ألف ليلة وليلة هي حكايات تكرّس التباينات الطبقيّة الحادّة في المجتمعات الإنسانية، وتحرم الشخصوس من الطبقات الدنيا - طبقة العبيد - من امتيازات الطبقة العليا - طبقة الملوك -

(1) عن/تودورف، تريفيتان: "مقولات الحكاية الأدبيّة"، ترجمة عبد العزيز شبيل، مجلة العرب والفكر العالمي، مركز الإنماء القومي، بيروت/باريس، العدد العاشر، ربيع 1990، ص 105.

كان من المستحيل أن يجعل الراوي العبد غضبان قادراً على الوصول إلى جسد الملكة أبريزة<sup>(1)</sup>، وكان من المستحيل أن يتركه حرّاً دون أن يقتله، لأنّ أهمّ مرويّ له في ألف ليلة وليلة - شهر يار - كان في أعماقه يكره العبيد ويحتقرهم ويعتبرهم غدرّة ومكرّة، وبخاصّة عندما اكتشف أنّ زوجته تطعنه في رجولته وتخونه مع عبده مسعود، وأنّ عشرين عبداً من عبيده يستبيحون عشرين جارية من جواريه<sup>(2)</sup>. ومن هنا فإنّ له لن يرضى من الراوية شهرزاد أن تترك العبد غضبان حرّاً طليقاً دون عقاب، فهي مجبرة على قتله لئلا تفقد الحكاية العجائبية قدرتها على التأثير على شهر يار، وبالتالي تفقد قدرتها على أن تجعله يؤجّل فعل قتلها.

لقد وعت شهرزاد جنون شهر يار ونزقه وسرعة بطشه، ومن خلال وعيها كانت حذرة في اختيار حكاياتها، وحريصة على أن تهيئها نهاية تزيل التوتر عنه، وتجعله مسترخياً مطمئناً؛ «فشفاء الروح التي تعاني من الزمن والكآبة يحتاج إلى استرخاء وعناية متواترة. وشهرزاد بدورها لم تكن تفعل سوى ذلك ببساطة نادرة!.. خبيرة هي في فن التحليل (...) حيث تقوم بعملية الاستحواذ من خلال حكاياتها، لتنجز نوعاً من المعالجة العقلية بواسطة الجرعات (...) التي توقظ الحلم

(1) نلاحظ في ألف ليلة وليلة أنّ الرواة قلّما يسمحون للعبيد بالوصول إلى أجساد سيّداتهم، زوجات الملوك والسلاطين أو بناتهم، وإن وصلوا إلى هاته السيدات فإن مصيرهم القتل، أو قطع أحليلهم، في حين أنّ كل الرواة يجعلون أبطالهم السلطويين يصلون إلى أجساد جواريتهم وإمائهم، بوصفهنّ ملك اليمين، وإنطلاقاً من إيديولوجيا رجوليّة تؤكد: أنّ النساء ما خلقن إلاّ للرجال. فابن الملك أو ابن الوزير، لا يتوان - متى فارت شهواته الجنسية - في اغتصاب أية جارية من جوارى قصر أبيه، كما فعل علي نور الدين ابن الوزير الفضل بن خاقان حين اغتصب جارية أبيه أنيس الجليس، مع ملاحظة أنّ الجارية المغتصبة تبارك فعل اغتصابها، وتمنّاه، لأنّه جاء من رجل أعلى منها طبقيّاً، ويتميّز بمواصفات جمالية جذابة. يقول راوي حكاية "علي نور الدين وأنيس الجليس": "فسمعت الجارية أنيس الجليس كلام علي نور الدين ابن الوزير وهي من داخل المقصورة. فقالت في نفسها: "ما شأن هذا الصبي الذي قال لي الوزير عنه: إنّ ما خلا بصبيّة في الحارة إلاّ واقعها. والله إنّني أشتيهي أن أنظره...". وبعد أن يغتصبها، تسألها والدته: ماذا جرى لها؟ فتقول الجارية: "يا سيديّ أنا قاعدة وإذا بصبيّ جميل الصورة دخل عليّ وقال أنت التي اشتراها أبي لي، فقلت نعم، والله يا سيديّ اعتقدت أنّ كلامه صحيح، فعند ذلك أتى إليّ وعانقني، فقالت هل فعل بك شيء [كذا] غير ذلك؟ قالت نعم وأخذ منّي ثلاث قبلات، فقالت ما تتركك من غير افتضاض".

ألف ليلة وليلة، 1/186 - 187.

(2) م. س، 14/1.

والرغبة لتشيع الراحة كلها»، وفق رأي غاستون باشلار<sup>(1)</sup>. فالانتقام من العبد غضبان، وقتله في الحكاية، من شأنه أن يجعل شهر يار مطمئناً لانتقامه من عبده مسعود، ومطمئناً إلى أن نظام السلطة الطبقيّة في مملكته، وفي كل ممالك ألف ليلة وليلة، قادر على تأكيد سطوته المطلقة، وحماية أملاكه وأملاك من هم في طبقتهم - من النساء والأموال - من الطبقات الدونيّة، وتحديدًا من طبقة العبيد الخونة<sup>(2)</sup>، الذين يجب عليهم أن يعيشوا أذلاءً وخانعين ومرعوبين إن هم فكروا بالاعتداء الجنسيّ على سيّداتهم السلطويّات اللواتي يجب أن يبقى امتلاكهنّ محصوراً بطبقة السّلطة العليا. ومن هنا لا يمكن لشهرزاد إلا أن تضحّي بالعبد غضبان - بعد أن حاول تجاوز طبقتهم، واختراق أسوار طبقة السلطة، وحلم بجسد امرأة تُعتبر من أكثر نساء ألف ليلة وليلة جمالاً ومكانة - وأن تدفعه لأن يروي حكاية تثير نقمة المروي له، حتى يروي هذا الأخير ظمأه بالانتقام من قاتل والدته، وبالتالي يحلّ القصص العادل، ويلقى المجرم العقوبة التي يستحقّها. ولا نستغرب لو أن المغدورة كانت من طبقة الجوّاري، أو من طبقة دونيّة أخرى، لكان مجرى الحدث في الحكاية قد أخذ منحى آخر، ولربّما كانت حكاية العبد غضبان قادرة على التأثير على المروي له، وإقناعه بالعمو عنه.

إنّ لسلطة القصة تأثيراً سحرياً وفعالاً على الملوك والأمراء وأفراد الطبقات الأخرى، في ألف ليلة وليلة، باعتبار القصة «مختلف أشكالها، ماثلة في كل الأزمنة والأمكنة والمجتمعات. إنّها تبدأ مع تاريخ البشريّة بالذات، لا شعب مطلقاً دون قصص. الطبقات والفئات كلّها لها أقاصيصها. وفي الغالب يتذوّق الناس هذه

(1) عن/بوحديبة، د. عبد الرزاق: الإسلام والجنس، ترجمة هالة العوري، مكتبة مدبولي، القاهرة، الطبعة الأولى، 1987م، ص 194.

- وأخذ عن بوحديبة عن/ Bachelard, G: La dialectique de la durée, p.10.

(2) تشير حكايات ألف ليلة وليلة إلى أنّ تمّة إيديولوجيا معادية للعبيد، إذ تصوّرهم الراوة بصور قبيحة، فهم ذئاب مفترسة لا أمان ولا وفاء لهم، يغتصبون النساء، ويزيّنون لهن درب الخطيئة، بالإضافة إلى أنّهم خونة ومحتالون وكاذبون.

- لمزيد من الاطلاع يُنظر: ألف ليلة وليلة، 1/219 إلى ص 225؛ 2/115؛ 3/85 - 86. فالعبد الأسود نموذج شبقي يخشى منه، السادة والحكام والتجار على حريمتهم.  
- ياسين، بو علي: خير الزاد من حكايات شهرزاد، ص 47.

القصص، حتى ولو كانوا من ثقافات مختلفة ومتعارضة (...). القصة عالمية تتجاوز التاريخ والثقافات. إنها كما الحياة في كل مكان»<sup>(1)</sup>.

وفي حكايات ألف ليلة وليلة، يسعى رجال السلطة الولعين بالحكايات إلى البحث عن هذه الحكايات في حضارات ومجتمعات أخرى، وينفقون الأموال الكثيرة لأجل الحصول عليها، فإذا عجز رواة مدتهم عن روي الجديد من الحكايات، فإنهم يرسلون إلى المدن الأخرى من يبحث لهم عن حكايات جديدة، ترضي فيهم توقعهم الشديد لمعرفة الغرائبي والسحري في حياة الشعوب الأخرى وعاداتها. وهذا ما تشير إليه حكاية «التاجر حسن مع الملك محمد بن سبائك»، فالملك محمد بن سبائك، أحد ملوك العجم وحاكم بلاد خرسان، رجل مغرم بسماع الحكايات العجيبة، مثله مثل شهريار، ومثل الخليفة هارون الرشيد، فقد كان «يحبّ المناديات والروايات والأشعار والأخبار والحكايات وأسمار وسير المتقدمين، وكان كلّ من يحفظ حكاية غريبة ويحكها له ينعم عليه، وقيل إنه كان إذا أتاه رجل غريب بسم غريب وتكلم بين يديه واستحسنه وأعجبه كلامه يخلع عليه خلعة سنّية، ويعطيه عطايا ألف دينار، ويركبه فرساً مسرجاً ملجماً ويكسوه من فوق إلى أسفل ويعطيه عطايا عظيمة»<sup>(2)</sup>.

وفي إحدى الليالي يشتدّ به شوقه إلى سماع الغرائبي والمدهش من الحكايات، فيستدعي تاجراً من تجار المدينة يسمّى التاجر «حسن»، ويقول له<sup>(3)</sup>: «إنّي أريد منك أن تحكي لي حكاية مليحة وحديثاً غريباً بحيث لم أكن سمعت مثله قط، فإن أعجبتني حديثك أعطيتك بلاداً كبيرة بقلاعها وأجعلها زيادة على إقطاعك وأجعل مملكتي كلّها بين يديك، وأجعلك كبير وزرائي تجلس عن يميني وتحكم في رعيتي، وإن لم تأت بما قلت لك أخذت جميع ما في يديك وطردتك من بلادي». وهنا يجد التاجر حسن نفسه مجبراً على سرد حكاية أغرب من تلك الحكايات التي سمعها

(1) بارت، رولان: "مدخل إلى التحليل البنيوي للقصص"، ترجمة نخلة فريفر، مجلة العرب والفكر العالمي، العدد الخامس، شتاء 1989 م، ص 17.

(2) ألف ليلة وليلة، 4/178.

(3) ألف ليلة وليلة، 4/179.

الملك، وإن لم يسرد فستُعْتَصَبُ أمواله، ويُشَرَّدُ مطروداً؛ على أن ما يسرده التاجر ليس من المؤكّد أن يثير الدهشة والغرابة لدى المتلقّي، أو المسرود له، لأنّ الملك هو الذي يحدّد بعد سماعه للحكاية، إذا كانت هذه الحكاية قادرة على إثارة دهشته وإعجابه أم غير قادرة، وبالتالي فإنّ السارد يظلّ في حالة رعب من سلطة الملك، فسلطة نفيه واغتصاب أمواله فوق رأسه، وهو بحاجة لإلغاء هذه السلطة بسلطة أشدّ تأثيراً منها، ولا تكون هذه السلطة إلاّ بالمقدرة على تشكيل حكاية عجيبة. وهنا يمكن القول: إنّ سرد الحكاية تحت حدّ السيف، والتشرّد القسريّ، واغتصاب الأموال، يكشف عن مدى استبداد حكّام ألف ليلة وليلة، وقهرهم لشعوبهم، واغتصابهم لممتلكاتهم دون وجه حقّ، ويكشف عن مجمل الأوضاع الإنسانية المهمّشة والمستلبّة لكلّ الطبقات الأخرى بما فيها طبقة التجار، التي كانت تعيش وضعاً اجتماعياً واقتصادياً متميّزاً يفوق أوضاع الطبقات الاجتماعية الأخرى، وبدرجات كبيرة.

إنّ التاجر حسن مجبرٌ على سرد حكاية عجيبة حتى يؤجّل فعل طرده، واغتصاب أمواله. ويلاحظ أنّ جميع رواة حكايات ألف ليلة وليلة - بتعدّد مدنهم وجزرهم من سمرقند العجم، أوّل مدينة يبتدئ فيها فعل السرد، إلى بغداد إلى أبعد جزر وصل إليها أبطال الليالي: واق الواق وجوهر تكي، وباختلاف درجات مراتبهم عند الملك أو الخليفة - هم مسلوبو الإرادة والكرامة، لأنّهم عبيد للملك أو الخليفة أو من يمثلهما من جهة، وعبيد لبنية الحكاية السردية وأحداثها من جهة أخرى، وقلّما نجد راوياً واحداً في الليالي إلاّ مستلباً وفاقداً لطمأننته أمام السلطة السياسية التي يروي لها. فشهرزاد هي الراوية المركزيّة الأولى، وما الرواة الآخرون إلاّ أصوات فرعية تتفرّع عن هذا المركز، وتتحدّد معرفتهم ورؤيتهم تأسيساً على رؤية هذا المركز، وامتداد هذه الرؤية إلى حقل معرفي مكرّس لخدمة السلطة وطاعتها والولاء لها مطلقاً، هذه السلطة التي تجبر الفقهاء والقضاة وعلماء الأمة على تأسيس قوانين الطاعة، وعدم محاسبة السّلطان أو الخليفة على ممارساته التعسّفية ضدّ أفراد شعبه، بل إنّ هذه القوانين تبارك كلّ ما يصدر عن السّلطان من شرور وطغيان، وهي بدورها تؤسّس لشرعية السلطة، وحقّها الإلهي في استلام

مقاليد الحكم بطريقة وراثية، بالتالي حقها في اغتصاب خيرات الشعب بأراضيه وأمواله ونسائه<sup>(1)</sup>.

ومن هنا فقد رفض بعض أئمة و فقهاء الدولة الإسلامية الاقتراب من السلطة وقبول هباتها، وظلّ آخرون تابعين لها، ولا يُستغرب أن تكون حاجة هؤلاء الفقهاء إلى المال هي التي دفعتهم لأن يظلّوا تحت لواء هذه التبعية. فعلى سبيل المثال: لجأت السلطة العباسية «إبان قوتها إلى إعطاء مرتبات للمتكلّمين والمحدثين البارزين لتستطيع الضغط عليهم، لهذا رفض الإمام أحمد [ابن حنبل] قبول الهبات من الخلفاء ومنذ البداية. وصاحب ذلك بروز اتجاه يدعو إلى الابتعاد عن السلطان سواء أكان عادلاً أو ظالماً ربطاً بين السلطان والملك والدنيا، وكلّها مضرّ بدين المرء في نظر زهاد البصرة في القرن الثاني الهجري»<sup>(2)</sup>.

إنّ التاجر حسن في الحكاية السابقة: **حكاية «التاجر حسن مع الملك محمد بن سبائك»**، خاف من أن ما تختزنه ذاكرته من حكايات عجيبة، قد لا يُعجب المروري له الملك محمد بن سبائك، ولذا فقد طلب من الملك أن يمهل سنة كاملة، حتى يبحث له عن أغرب الحكايات التي تنقذه من الطرد واغتصاب الأموال: «فقال التاجر حسن: سمعاً وطاعة لمولانا الملك، لكن يطلب منك المملوك أن تصبر عليه سنة ثم أحدثك بحديث ما سمعت مثله في عمرك ولا سمع غيرك بمثله ولا بأحسن منه قطّ، فقال الملك: قد أعطيتك مهلة سنة كاملة»<sup>(3)</sup>. ونظراً لاستبداد الملك محمد بن سبائك، وتوقه الشديد لسماع الحكايات العجيبة، فقد فرض على التاجر حسن، ما يمكن أن نطلق عليه بالتسميات المعاصرة (الإقامة الجبرية) في بيته بخراسان، حتى يُحضر الحكاية العجيبة التي طلبها، إذ «قال له: الزم بيتك ولا تتركب ولا ترح ولا تجيء مدة سنة كاملة، حتى تحضر بما طلبته منك؟ فإن جئت

(1) لمزيد من الاطلاع على تسخير السياسي للقضائي والفقهي، وتطويره لخدمة أغراضه، وتحقيق رغباته، وجسره على التلاعب وتحريفها لصالحه، يُنظر: حكاية "هارون الرشيد مع وزيره جعفر والجارية الجميلة والقاضي أبي يوسف" في المجلد الثاني، ص 445 - 446.

(2) السيد، د.رضوان: الأمة والجماعة والسلطة - دراسات في الفكر السياسي العربي الإسلامي، منشورات دار اقرأ، بيروت، الطبعة الأولى 1984م، ص 273.

(3) ألف ليلة ليلة، 179/4.

بذلك فلك الإناعام الخاص وابشر بما وعدتك به، وإن لم تجيء بذلك فلا أنت منّا ولا نحن منك»<sup>(1)</sup>.

ويبدو أنّ التاجر حسن سبق له وأن سمع أنّ هنالك حكاية أكثر غرابة من كل مخزونه الحكائي، ومن كل مخزون أدباء خراسان وشعرائها وفقهائها من الحكايات، وهي حكاية «سيف الملوك وبديعة الجمال»، واعتقد أنّ هذه الحكاية هي الوحيدة القادرة على إنقاذه من سطوة هذا الملك، فما كان منه إلا أن أغرى خمسة ممالك من خيرة ممالিকে المشهود لهم بالعقل والأدب، وأعطى كلّ واحد منهم خمسة آلاف دينار، وطلب منهم أن يرتحلوا باحثين عن حكاية «سيف الملوك وبديعة الجمال»، وأن يعطوا من يرويهما لهم ما شاء من الذهب والفضّة، و:

«قال لهم: أريد أن يسافر كلّ واحد منكم إلى إقليم وأن تستقصوا عن العلماء والأدباء والفضلاء وأصحاب الحكايات الغربية والأخبار العجيبة، وابحثوا لي عن قصة سيف الملوك وانتوني بها وإذا وجدتموها عند أحد فرغّبوه في ثمنها، ومهما طلب من الذهب والفضّة فأعطوه إيّاه ولو طلب منكم ألف دينار، فأعطوه المتيسّر ووعده بالباقي وانتوني بها، ومن وقع منكم بهذه القصة وأتاني بها فإنّي أعطيه الخلعة السنّية والنعم الوفيّة ولا يكون عندي أعزّ منه. ثم إن التاجر حسن قال لواحد منهم: رح أنت إلى بلاد السند والهند وأعمالها وأقاليمها وقال للآخر: رح أنت إلى بلاد العجم والصين وأقاليمها، وقال للآخر: رح أنت إلى بلاد الغرب وأقطارها وأقاليمها، ثم إن التاجر اختار لهم يوماً سعيداً وقال لهم سافروا في اليوم، واجتهدوا في تحصيل حاجتي ولا تتهاونوا ولو كان فيها بذل الأرواح»<sup>(2)</sup>.

يرسل التاجر حسن ممالিকে إلى أقاليم الأرض للبحث عن الحكاية العجيبة. ولا يهّمه إن ضاع ممالিকে وجاعوا وتشرّدوا في طول الأرض وعرضها، أو قُتلوا من

(1) م. س، 4/179 - 180.

(2) ألف ليلة وليلة، 4/180.

قطّاع الطرق الذين تمتلئ بهم مدن ألف ليلة وليلة، وهو مضطرّ للتضحية بهؤلاء المماليك الخالصاء، أملاً في إحضار الحكاية العجيبة التي تنقذه من بطش السلطة السياسية، هذه السلطة التي لا ترى في مواطنيها إلا أداة طيعة، وأنّ كلّ ما على الأرض من بشر وحيوانات وخيرات وآداب وحكايات عجيبة، هو من نصيبها، باعتبارها وارثة له، فالملك أو الخليفة في ألف ليلة وليلة عندما يغضب على مواطنيه، فإنّنه يضع يده على أموالهم وممتلكاتهم وجواريهم وعبيدهم<sup>(1)</sup>. وللسلطة أساليب كثيرة تساعدها على الانتقام ممن تغضب عليه، فهي «تعتمد على عدّة تنظيمات للقمع والعقاب، أكثر دقّة وإتقاناً ممّا عساه يوجد لدى غيرها من المجتمعات وهو ما يمكّنها من فرض طاعة أوامرها على المحكومين، ومن أمثلتها التنظيم البوليسي والتنظيم القضائي والتنظيم العقابي»<sup>(2)</sup>. إلا أنّ السلطان في ألف ليلة وليلة، إذا كان متحضراً، وعلى قدر من العلم والمعرفة، فإنّنه كان يأخذ ما يريده من جوارى مواطنيه ووزرائه المثيرات جمالياً بطريقة التّرجيب، ودفع المال بسخاء<sup>(3)</sup>، أو بالتّلاعب بقوانين الزواج والطلاق، وذلك بإغراء فقهاء وقضاة دولته بتحريف وتطويع هذه القوانين لصالحه<sup>(4)</sup>.

ويعود أربعة مماليك من مماليك التاجر حسن، دون أن يحصلوا على حكاية «سيف الملوك وبديعة الجمال»، أمّا المملوك الخامس فإنّنه يلتقي في دمشق بشيخ فاضل يروي الحكايات لجمع غفير من الناس، ويرجوه أن يعطيه حكاية «سيف الملوك وبديعة الجمال»، بعد أن يغريه بالمال. ويوافق الشيخ الدمشقي مقابل مائة وعشرة دنانير من الذهب<sup>(5)</sup>. ويعود المملوك إلى خراسان حاملاً الحكاية، ويأخذها التاجر حسن إلى قصر الملك محمد بن سبائك، بعد أن يكون قد كتبها بخطّ يده وشرحها، ثم يرويها للملك فيُسّر الملك بها سروراً عظيماً. وتحت تأثير سلطتها

(1) ألف ليلة وليلة، 1/235.

(2) الجرف، د. طعيمة: نظرية الدولة والأسس العامة للتنظيم السياسي، منشورات مكتبة القاهرة الحديثة، القاهرة الطبعة الأولى، د. ت، ص 65.

(3) ألف ليلة وليلة، 3/81.

(4) م. س، 2/446.

(5) م. س، 4/183.

العجائبية يلغي قرار طرده واغتصاب أمواله، ويكافئه الملك مكافأة تقذف به إلى أعلى المراتب السلطوية: «فلما سمعها الملك وكل من كان حاضراً تعجبوا جميعاً واستحسنوها (...) ونشروا عليه الذهب والفضة والجواهر، ثم أمر الملك للتاجر حسن بخلعة سنّية من أفخر ملبوسه وأعطاه مدينة كبيرة بقلاعها وضياعها وجعله من أكابر وزرائه وأجلسه عن يمينه، ثم أمر الكتاب أن يكتبوا هذه القصة بالذهب ويجعلوها في خزائنه الخاصة، وصار الملك كلما ضاق صدره يحضر التاجر حسن فيقرأها له»<sup>(1)</sup>.

وقد يتساءل متلقي الحكاية: بأيّ حقّ يقتطع الملك محمد بن سبائك مدينة بسكاتها وضياعها وقلاعها، ويهبها للتاجر حسن؟. إذا عرفنا أنّ ليالي ألف ليلة وليلة تؤكد أنّ الملك أو الخليفة هو المالك الحقيقي لكلّ خيرات البلاد، وهو الأمر النهائي، وهو الصوت الذي لا يعلو فوقه أيّ صوت آخر، وهو الذي يحاسب الناس على كل أفعالهم، ولا يستطيع أحد منهم أن يحاسبه، أو يقول له: لا، وهو الذي يأتيه الخراج من كلّ المدن التابعة لبلاده، وهو الدكتاتور المستبدّ الذي يفرض ما يريد، بالسوط أو بالسيف، وهو الذي بيده كلّ مقاليد السلطتين التنفيذية والتشريعية، يشرّع القوانين التي تهدف - بالدرجة الأولى - إلى خدمته وأفراد أسرته، ثم يجرفها متى يشاء لتناسب أهواءه وميوله ومصالحه، وإذا عرفنا أنّ السلطان يتمتّع بكل هذا بدا طبيعياً أنّ نفهم لماذا وهب الملك محمد بن سبائك مدينة من مدن خراسان للتاجر حسن. فالبلاد بلاده، والمدن كلّها ملك له، وسكاتها كلّهم عبيد له، وهو حرّ أنّ يهب أيّ مدينة من مدن بلاده، بكلّ سكاتها وخيراتها، إلى أيّ شخص يراه مستحقاً لهذه الهبة.

هات حكاية وإلاّ طردتك يا تاجر حسن واغتصبت أموالك: هو نفس مبدأ الحكيم العامّ الذي تنتظم به حكايات ألف ليلة وليلة: هات يا شهرزاد حكاية مثيرة وعجائبية، وامنعي عني أرق الليالي وبددي حزني ووحشتي، واجعليني أنسى ما دار بين زوجتي وعبيدي مسعود من خيانة، وقدمي لي جوارى العالم وأجساد أميراته على طبق من القصّ العجائبي، بدلاً من تلك الخائنة زوجتي، ثم امنحيني جسديك الجميل كلّما

لاح الصباح وإلا قتلتك. وتنحو شهرزاد بفعل تأثير سلسلة من الحكايات العجائبية المقطوعة الموصولة في آن، كما ينجو التاجر حسن بتأثير المكونات الحكائية العجائبية الكامنة في حكاية «سيف الملوك وبديعة الجمال» المشتراة من دمشق.

إنّ غريزة التملك السلطوية، ومنطق حرمان الشعب من امتيازات السلطة، ومن امتلاك المعرفة، دفعت الملك محمد بن سبائك لأن يخفي الحكاية داخل خزائنه الخاصة، بحيث لا يطلع عليها أحد إلا سراة القوم من أفراد السلطنة، وكان الأجدد به ولا سيما أنّه «كان ملكاً عادلاً شجاعاً كريماً جواداً»<sup>(1)</sup> على حدّ زعم الراوي أن يعمل على تنوير شعبه وإمتاعه وتثقيفه، وذلك بأن يطلعه على هذه الحكاية العجيبة. وهنا يمكن القول: إنّ إخفاء ثقافة الأمة وتراثها والاستئثار بما هو جزء من بنىة تفكير السلطة في مدن ألف ليلة وليلة، التي تعمل على تجهيل الشعب، وضمن استكائه وخضوعه، وبالتالي دوام القدرة على استعباده والسيطرة عليه.

لقد كرّست السلطة في ألف ليلة وليلة أوضاعاً اجتماعية مشوهة مستلبة، وهذه الأوضاع أسهمت في تأسيس ظاهرة «البغي والفساد»، التي رفعت لواءها مجموعة من الفئات السلطوية المترفة، المتكبّرة، التي أحاطت بالسلطان، ورفعت سيف سطوته، ثم استعبدت الفئات الاجتماعية الضعيفة. وقد أسهم فقهاء مدن ألف ليلة وليلة وشيوخها في تكريس وضعية الاستلاب والتباين هذه بين أفراد مدن الليالي. فالشيخ الدمشقي الذي تصفه شهرزاد بالفاضل وصحيح الوجه والمليح المحتشم<sup>(2)</sup>، اشترط على مملوك التاجر حسن حتى يسمح له بنقل حكاية «سيف الملوك وبديعة الجمال» أن لا يروي هذه الحكاية إلا لطبقة سياسية واجتماعية ذات نفوذ وسيادة. فهذا هوّ يقول للمملوك: «اعلم يا ولدي أنّ أول شرط هوّ أنّك لا تقول هذه القصّة على قارعة الطريق، ولا عند النساء والجواري، ولا عند العبيد والسفهاء، ولا عند الصبيان، وإثما تقرؤها عند الأمراء والملوك والوزراء وأهل المعرفة من المفسّرين وغيرهم»<sup>(3)</sup>.

(1) ألف ليلة وليلة، 4/178.

(2) ألف ليلة وليلة، 4/181 - 182.

(3) م. س، 4/183.

- ويُلاحظ من خلال الاقتباس أنّ الراوي يثبت إيديولوجيته المعادية للنساء، ويساويهنّ جميعاً بالعبيد والسفهاء، ويعتبرهنّ مثل الصبيان، نظراً لعقولهنّ الناقصة التي تتساوى مع عقول الصبيان.

لم تكن أحداث ألف ليلة العجائبية وحدها هي السبب الرئيس في إلغاء فعل القتل الذي هدّد شهرزاد وكثيراً من شخوص الليالي الرواة، بل يوجد سبب آخر وهو: أنّ الحكايات محمّلة بمحولات معرفية ومفاهيم أخرى مهمّة، حاول الرواة أن يبيّنها متزامنة مع هذه الأحداث العجائبية، ومنها: العدل والعفو عند المقدرة، ونبذ الغرور، ودعوة الملوك إلى الحلم والتواضع، ودعوتهم إلى التريث في إصدار قراراتهم، وتخويفهم من عقاب الله، وأنّ الدنيا دار فناء، وما على العاقل إلا أن يكون خبيراً مفكراً في أحوالها عاملاً على مرضاة ربّه، حتى يلاقي وجهه الكريم في الآخرة. وقد ساهمت هذه المفاهيم في إضفاء سلطة أخرى على شهريار وعلى ملوك آخرين - بالإضافة إلى سلطة الحكاية العجائبية - وهي سلطة العبرة والتبصّر التي جعلت شهريار يتعظ من خلال المصير الذي ينتظر الملوك المتجبرين والمغرورين، والمستبدّين برقاب شعوبهم. من هنا فإنّ هذه المفاهيم هدّبت سلوك شهريار، وخففت من نزعته الدموية التي كانت تفتك بالنساء قبل شهرزاد، وأسهمت في العفو عن شهرزاد لأنّها شكّلت حصناً تتحصّن به من غروره وجبروته، وعملت على إحداث ثغرة في قناعاته المطلقة التي لا ترى في النساء إلا المكر والغدر والخيانة الجنسيّة. فبعد أن كانت المرأة عاهرة زانية تخون زوجها الملك عند خروجه من قصره، صارت وفق قناعات شهريار الجديدة عفيفة وطاهرة حرّة. يقول لزوجته شهرزاد في آخر ليلة من ليالي ألف ليلة وليلة: «والله إنّني قد عفوت عنك (...) لكوني رأيتك عفيفة نقيّة، وحرّة تقيّة، بارك الله فيك وفي أهلك وأصلك وفرعك. وأشهد الله على أنّي قد عفوت عنك من كلّ شيء يضرّك فقبّلت يديه وقدميه وفرحت فرحاً زائداً»<sup>(1)</sup>.

وتبثّ شهرزاد بعض هذه المفاهيم في حكاية «الرجل الصالح والملك المغرور مع ملك الموت». ففي هذه الحكاية يغتري أحد الملوك الظلمة بالأبته التي وصل إليها، وبما أعطته السلطة من نعيم وعزّ وأموال، فيخرج حاشداً حوله أمراءه وكبراء دولته وقد امتلأ أنفّه وغروراً، إلا أنّ روائي الحكاية سرعان ما يستحضر عدالة الله التي تضع نهاية لظلم وغرور هذا الملك، الذي لم يتعظ، ولم يرع الله في مواطنيه،

(1) ألف ليلة وليلة، 4/447.

وبهذه النهاية العادلة ينزاح كابوس ظلمه وجبروته عن هؤلاء المواطنين. يقول الراوي<sup>(1)</sup> عن هذا الملك:

«ثم إنّه لبس الثياب وركب الجواد وسار بالموكب والطوق المرصع بالجواهر وأصناف الدرر واليواقيت وجعل يركب الحصان في عسكره ويفتخر بتيهه وتجبره. فأثاه إبليس فوضع يده على منخره ونفخ في أنفه نفخة الكبر والعجب فزها وقال في نفسه: من في العالم مثلي؟

وظفق يتيه بالعجب والكبر، ويظهر الأبهة ويزهو بالجللاء، ولا ينظر إلى أحد من تيهه وكبره وعجبه وفخره. فوقف بين يديه رجلٌ عليه ثيابٌ رثةٌ فسلم عليه، فلم يردّ عليه السلام فقبض على عنان فرسه. فقال له الملك: ارفع يدك فإنك لا تدري بعنان من أمسكت؟ فقال له: إن لي إليك حاجة. فقال: اصبر حتى أنزل وأذكر حاجتك. فقال: إنّها سرٌّ ولا أقولها إلا في أذنك. فمال بسمعه إليه فقال له: أنا ملك الموت، وأريد أن أقبض روحك (...) فأخذ روحه وهو على ظهر فرسه فخرّ ميتاً».

إلا أنّ السرد الحكائي العام في ألف ليلة وليلة لا يسرع في نهاية كلّ الملوك الظلمة الذين يعيشون في مدّهم وشعوبهم فساداً وقتلاً وتسلّطاً مطلقاً، إذ تشير بعض الحكايات إلى أنّ الملوك يسفكون دماء مواطنيهم ظلماً ويغتصبون نساءهم، ويستولون على أملاكهم، ومن هؤلاء الملوك: عمر النعمان والملك الغيور والد الملكة بدور، والخليفة هارون الرشيد في بعض مواقفه، ومع ذلك يتعاطف رواة هذه الحكايات مع هؤلاء الملوك الذين يعيشون في أعلى درجات العظمة والرّفه والاستبداد طيلة حياتهم، وعندما يأتيهم هازم اللذات ومفرّق الجماعات بمفردات رواة الليالي، فإنّه لا يأتيهم لينتقم منهم، نظراً لما ارتكبه من شرور وآثام، بل يأتيهم وتأسيساً على قانون الموت الحتمي الذي لا مفرّ منه، والذي يؤكّده النصّ

القرآني: «كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ \* وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ»<sup>(1)</sup>.

ومن الملاحظ أنّه إذا كان للحكاية سلطة على المروي له، تجعله يؤجّل قراراته، ويعيد النظر فيها، ثم يغييها، فإنّ للمرأة في هذه الحكاية سلطة على الحكاية نفسها، فهي مُحَفِّزٌ ينمو السرد بوساطته، وتتعدّد أحداثه، وذلك لأنّ لها سلطة على كلّ أبطال الحكاية: رئيسيين أو ثانويين. فوجودها كعنصر جمالي مرغوب فيه، باعتباره يؤدّي وظيفة ترفيهية وجنسية لرجال ألف ليلة وليلة السلطويين وغير السلطويين، هو الذي يجبر السرد الحكائي على تحديد حركة ارتحاله، وعلاقات مدنه، وأخلاقيات أبطاله، فعندما يجد الراوي نفسه مضطراً للتأثير على أبطاله، ودفعهم إلى تشكيل أحداث جديدة، ونقلهم من مدينة إلى أخرى، فإنّه يستحضر سلطة المرأة التي تساعد على التأثير عليهم<sup>(2)</sup>، ودفعهم لتشكيل هذه الأحداث. فلأجل المرأة يسافر الأبطال ويتشردون ويتصارعون، ثم يموتون في نهاية المطاف على سفوح جسدها. ولو أبعدت المرأة عن كثير من حكايات ألف ليلة وليلة، لما كان هناك أحداث ولما حُبكت الحكايات، ولما فُكّت عقدها في النهاية. ومن هنا فإنّ سلطتها على الحكاية تعتبر من أهمّ الأسباب التي تجعل الحكاية ذات سلطة على المروي له، وقادرة على التأثير عليه، لكي يؤجّل تنفيذ قراراته، ثم يغييها فيما بعد.

ويمكن القول: إنّ مدن ألف ليلة وليلة، وكما تُشير إليها نصوص الليالي، مدن محكومة بمجموعة من الأفراد المستبدّين، ويستوي في ذلك الخليفة والسلطان والملك، ويُعزّز سلطتهم الاستبدادية مجموعة من الأمراء والوزراء والولاة والقضاة الذين لا يقلّون استبداداً عنهم. وعلى الرغم من تعدّد هؤلاء الحكّام في المدن الواقعية أو المُتخيّلة، فإنّهم في نهاية المطاف يفرضون على مدّهم قوانينهم الخاصّة التي تخدم مصالحهم بالدرجة الأولى، ويقهرون بها مواطنيهم البسطاء، هذا إذا استثنينا قليلاً جدّاً من الحكّام الذين أشاد رواة الليالي بسيرتهم الحميدة، ومنهم

(1) سورة الرحمن، آية: 26 - 27.

(2) على سبيل المثال: تُراجع حكاية "سيف الملوك وبديعة الجمال"، التي يرويها التاجر حسن للملك محمد بن سبائك في المجلد الثالث من ص 184 إلى ص 245. وسيكتشف القارئ أنّ معظم الارتخالات السردية في الحكاية، ومعظم حركات الأبطال ومواقفهم، سببها المرأة الجميلة بديعة الجمال، التي يعشقها البطل سيف الملوك، ويقطع الجبال والسهول والبحار، عله يحظى بها.

الخليفة عمر بن عبد العزيز، والملك العادل كسرى أنوشروان<sup>(1)</sup>، وغيرهم، وهؤلاء لا يُشكّلون فضاءً سردياً واسعاً في حكايات الليالي.

وتُشير حكايات الليالي إلى أن المرأة السلطوية لا تقلّ استبداداً عن الرجل، بل تفوقه في أحيان كثيرة، فمعظم نساء ألف ليلة وليلة السلطويات تجري في عروقهنّ دماء الجريمة، لأنّهنّ يُسارعن في البطش بالشخص الذين يقفون ضدّ مصالحهنّ ورغباتهنّ، حتى ولو كانوا أزواجهنّ، فهنّ يحكنّ المؤامرات والمكائد، ويقتلن، ويبترن أطراف أزواجهنّ، ويجلدنهم، ويتمادين في ارتكاب الزنى. ومن هنا نجد أن رواة ألف ليلة وليلة كانوا جريئين في وصفهنّ بأبشع الصفات، فهنّ وفق قواميس هؤلاء الرواة، فاجرات وعاهرات وزانيات، وشياطين خبيثة تتغلّب على إبليس، وتبزه مكرراً وفساداً، وعلى الرغم من ذلك يبقين على غاية من الأهمية، لأنّهنّ يُرقّهن عن الرجال بقامتهنّ المشوقة والجميلة، فالمرأة منهنّ تُعدّ مثلاً للجمال الجنسيّ الذي يعشقه رجال السلطة في الليالي، إذ تجتمع فيها أشدّ المواصفات الجنسيّة إثارةً، فـ

«شعرها كليالي المهجر، وأما وجهها فكأيام الوصال (...) ولها أنف كحدّ السيف المصقول، ولها وجنتان كرحيق الأرجوان، ولها حدّ كشقائق النعمان، وشفاتها كالمرجان والعقيق، وريقها أشهى من الرحيق، يُطفئ مذاقه عذاب الحريق، ولسانها يُحرّكه عقل وافر، وجواب حاضر، ولها صدر فتنة لمن يراه فسبحان من خلقه وسواه (...). ولها نهدان كأنهما من العاج، يستمدّ من إشراقهنّ القمران، ولها بطن ملوّية كطي القباطي المصرية، وينتهي ذلك إلى خصر مختصر من وهم الخيال فوق ردف ككثيب من رمال، يقعدها إذا قامت ويوقظها إذا نامت (...). ويحمل ذلك الكفل فخذان كأنهما من الدرّ عمودان، وأما غير ذلك من الأوصاف فلا يحصيه ناعت ولا وصاف، ويحمل ذلك قدمان لطيفان صنعة المهيمن الديّان، فعبجت منهما كيف كانا يحملان ما فوقهما»<sup>(2)</sup>.

(1) ألف ليلة وليلة، 158/3.

(2) ألف ليلة وليلة، 158/3.

يشير المقطع السابق إلى أهمية جمال الجسد الأنثوي، وسلطة هذا الجمال على الرجال في ألف ليلة وليلة. ويبدو أن للجمال الأنثوي تأثيراً فعالاً وشديداً على معظم الرجال في جميع الحضارات والعصور، وتثبت المصادر الكثيرة أن الرجل العربي أولى المرأة الجميلة مكانة هامة في حياته، فبحث عنها في حله وترحاله. وحلم بالوصول إليها وامتلاكها، فوصفها نثراً وشعراً، وأرقته في مسيرة حياته، في صباه وشبابه وكهولته، وكانت هذه المرأة بالنسبة له مثلاً سامياً وحلماً جميلاً يجب تحقيقه، حتى ولو كلفه حياته، ويبدو أن الرجل كان يعوّض كثيراً من مظاهر النقص في بنيته الذهنية والجمالية عندما يمتلك المرأة الجميلة، ويحظى بها سواء أكانت حظية خليعة أم زوجة شرعية. فهي معلم هام من معالم شخصيته، وهو يرى أنه بالزواج بها وامتلاكها سيكون محلّ حسد وإعجاب، وتفوق في بني قومه. وإذا كان هذا الرجل قد أولى الجانب الجمالي الروحي والمعنوي لدى المرأة أهمية، فإنه أولى الجانب المورفولوجي الجنساني الأهمية الكبرى في حياته. غير أنه يُلاحظ أن بعض الرجال في العصر الجاهلي كانوا عاشقين للجمال الروحي والعفة والوقار والحجل والاحتشام والكرم والوفاء والإخلاص عند المرأة الحبيبة المبتغاة. وها هو الشاعر الجاهلي الشنفرى (عمرو بن مالك الأزدي، ت نحو ق. هـ/ نحو 525م)، يجسّد هذا العشق، متغنياً بصفات زوجته أميمة. حين يقول فيها:

لقد أعجبتني لا سقوطاً قناعها إذا ما مشت ولا بذات تلفت  
تبيت - بعيد النوم - تهدي غبوقها لجارأها إذا الهدية قلت  
تحلّ بمنجاة من اللوم بيتها إذا ما بيوت بالمذمة حلّت  
كأنّ لها في الأرض نسياً تقصّه على أمّها وإن تكلمت تبت  
أميمة لا يخزى نثاها حليلها إذا ذكر النسوان عفت وجلّت  
إذا هو أمسى آب قرّة عينه مآب السعيد لم يسأل أين ظلّت<sup>(1)</sup>

وما إن ينتهي عصر الخلفاء الراشدين، ويدخل العرب عصر الدولة الأموية حتى تتبدل مفاهيم الرجال الجمالية التي كانوا يرونها في المرأة، فمع توسع رقعة

(1) عن/ضيف، د. شوقي: العصر الجاهلي. دار المعارف بمصر، القاهرة، الطبعة السابعة، 1976م، ص 74.

الدولة الإسلامية في عصر بني أمية، ودخول مؤثرات حضارية جديدة على هذه الدولة عن طريق الفتح الإسلامي ستكرس مفاهيم خاصة للجمال الأنثوي، وسيترجع البعد الجمالي الروحي والخصال الكريمة، وستخرج المرأة من دائرة الحياء والخجل والعفة والوقار لتدخل دائرة الاتجار والسلعة والاستلاب الروحي والجسدي، ولتصبح أداة وظيفية مثيرة، وملبئة بالموصفات الجمالية الجنسية، وهدفها إسعاد الرجل وإمتاعه جنسيا، هذا الرجل الذي اتسعت دائرة معارفه من النساء الجميلات والمثيرات: الحرائر والجواري، نتيجة لتوسع الفتح وبالتالي سهولة التسري، ونظرا لزيادة قدراته المالية والاقتصادية التي تخوّله امتلاك العديد من النساء. وها هو أحد رجال غطفان يحدد مواصفات المرأة الجميلة للخليفة الأموي عبد الملك بن مروان (26 - 86 هـ/646 - 705م) حين سأله الخليفة: «صف لي أحسن النساء»، عندها قال الرجل: «خذها يا أمير المؤمنين ملساء القدمين ردماء الكعبين، ناعمة الساقين، ضخماء الركبتين، لفّاء الفخذين، ضخمة الذراعين، رخصة الكفين، ناهدة الثديين، حمراء الخدين، كحلأ العينين، زجّاء الحاجبين، لمياء الشفتين، بلحاء الجبين، شماء العرنين، شبناء الثغر، محلولكة الشعر، غيداء العنق، مكسرة البطن، فقال ويحك وأين توجد هذه؟ قال تجدها في خالص العرب، وفي خالص فارس»<sup>(1)</sup>.

ويمكن القول إنّ هذا المقياس الجمالي الجنساني الذي شكّله الرجل الغطفاني يعبر عن نزعة الرجل الواضحة نحو المرأة المثيرة جمالياً وبالتحديد: جنسياً، بحيث تصبح هذه المرأة مع ازدهار الحضارة العربية وتطورها مثلاً وقالباً لنزوع الرجل الشهواني الشبقي، إذ تتراجع قيمها الأخلاقية، وخصائصها الجمالية الروحية، لتصبح قيما وظيفية مثيرة، ترضي هوس الرجال الجنسي وتشبعه.

إذا كان للحكاية تأثير شديد على شخوص ألف ليلة وليلة كما لاحظنا سابقاً فإنّ للمرأة تأثيراً أشد على شخوص الحكاية وسردها وأحداثها، فتمو نسيج السرد وتشعبه يتحدد بجسد المرأة الوظيفي، وكلما زادت النساء في الحكاية تشعبت هذه

(1) الأبيشي، شهاب الدين محمد بن أحمد، (ت 850 هـ): المستطرف في كل فن مستظرف. إشراف المكتب العالمي للبحوث، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، طبعة 1989م، 2/300.

الحكاية، ولا تتشعب الحكاية إلا لكي تحقق في النهاية حالة من التراضي بين جسد الشخص السلطوي المروى له وبين جسد المرأة المثير. وإذا ينمو السرد ويتطور ليصل إلى الذروة ومن ثم ليحبك الحكاية ويعقد حبكتها، ويملاها بالاحتمالات العديدة التي لا يستطيع الشخص المروى له أن يفك استغلاقتها، فإن هذا السرد ليس كفيلاً بنجاة المرأة أو الجارية إن لم تكن قادرة على إمتاع الرجل السلطوي وتقديم جسدها المعطر والمثير له، وعندما تقدم جسدها أو تعدّ بتقديم جسد آخر، ولو على المستوى الحلمى والتخيلى فإنّ رجل السلطة يعفو عنها. وإذا كان الرجل المغضوب عليه في حكايات ألف ليلة وليلة ينجو بوساطة سحرية القص وتشعبه وانفتاحه على أمكنة وأزمنة سحرية وغرائبية، يراها المروى له عجيبة ومدهشة، لأنه لم يعايشها سابقاً، فإن المرأة، وحتى تستطيع أن تكون محظية لدى الرجل السلطوي، تحتاج إلى وظيفة أخرى، من مهمتها امتصاص هيجان جسد المروى له. وتتحدد هذه الوظيفة في قدرة جسد الجارية الحظية على تغييره في فضاء المسرات والأجواء العريضية الجنسية. والجارية التي لا تعرف كيف تشكل فضاء الاحتفاء بطقوس الجسد ومسراته ستظلّ في طي الكتمان، ولن تنعم برؤية وجه مولاها السلطان. وفي ألف ليلة وليلة هنيئاً للجارية التي يستطيع جسدها أن يقود السلطان إلى سرير اللذة. إنّ تدجين السلطان في ألف ليلة وليلة وتهذيب طباعه الشرسة الوحشية يتم بوساطة جسد الجارية الوظيفي، لأن للجسد قدرة كبيرة على تبيد الهموم والقلق. يقول أحد الرواة: «ودخل عليها الملك [أي على الجارية الجميلة] وأوقع محبتها في قلبه، فأزال بكارتها، وأزال ما عنده من القلق والسهر، وأقام عندها شهراً (...) وبعد تمام الشهر خرج وجلس على سرير مملكته»<sup>(1)</sup>.

ومن الملاحظ أحياناً أن حصول السلطان أو ابنه الأمير على المرأة الجميلة يمنح المدينة وسكانها أماناً وطمأنينة، ويطلق المساجين من سجونهم، فللجنس، في كثير من الحكايات، سلطة على جميع أبطال الحكاية، وعندما يتحقق، وتحدث حالة الانسجام والتراضي الجنسي بين الرجل السلطوي وبين الجارية الجميلة، فإن أماناً

(1) ألف ليلة وليلة، 6/2.

مؤقتاً يحل بالمدينة، وينزل الطمأنينة على نفوس سكانها. ويترك سلطانها غارقاً في نعيم اللذات إلى أن يأتيه هادم اللذات. تقول شهرزاد: «بلغني أيها الملك السعيد أن الملك سليمان شاه، لما وصل إلى بلده، جلس على سرير مملكته وابنه تاج الملوك في جانبه، ثم أعطى وأطلق من كان في الحبوس، ثم عمل لولده عرساً ثانياً. واستمرت به المغاني والملاهي شهراً كاملاً، وازدحمت المواشط على السيدة دنيا وهي لا تملّ من الجلاء، وهنّ لا يملنّ من النظر إليها. ثم دخل تاج الملوك على زوجته بعد أن اجتمع على أبيه وأمه وما زالوا في ألدّ عيش وأهنئه، حتى أتاهم هادم اللذات»<sup>(1)</sup>.

إن للجسد الجميل في حكايات الليالي قدرة على التأثير على أعتى الرجال وأشدّهم تماسكاً، وإن لم يستطع شخوص الليالي امتلاكه فإنهم يصابون بحال متأزمة مرضية، حيث العشق والهيام يؤرقهم، وتستلب عقولهم وأجسادهم أمام سطوة الجسد وحضوره الطاغوي الذي يملأ الفضاء. يقول أحد الرواة: «فنظرها جودر وكانت ذات حسن وجمال وليس لها نظير فلما حقق جودر النظر فيها قال: آه وتفككت أعضاؤه واشتدّ به العشق والغرام وأخذه الوجد والهيام واصفرّ لونه، فقال له الوزير: لا بأس عليك يا سيدي ما لي أراك متغيّراً متوجعاً؟ فقال يا وزير هذه البنت بنت من؟ فإنها سلبتني وأخذت عقلي»<sup>(2)</sup>.

إن سلطة الجسد الجميل المثير تجعل الرجل ينسى أباه وأمه، وتجعل القائد السلطوي ينسى جنوده، ويتبع هذا الجسد، حتى ولو كان في ذلك حتفه، فالأمير شركان في حكاية «الملك عمر النعمان وولديه»، يطلب من المرأة الجميلة الأميرة أبريزة أن تطعمه، فتأخذه إلى قصرها الفاخر، وهناك يتذكر جنوده، ووزير أبيه دندنان، المعرضين للهلاك، إذا ما داهمهم قوم هذه الأميرة، لكنه يسوغ لنفسه عذراً مقنعاً، فهو لم يعدم الحزم، لكن سلطة الحبّ والرغبة في امتلاك هذه المرأة هي التي دفعته للتخلف عن جنوده، والسير وراء هذه المرأة. ينشد مبرراً لنفسه:

لم أعدم الحزم ولكنني دهيت في الأمر فما حيلتي  
لو كان من يكشف عني الهوى برئت من حولي ومن قوتي

(1) م. ن، 76/2 - 77.

(2) م. ن، 89/4.

وإن قلبي في ضلال الهوى صبّ وأرجو الله في شدتي<sup>(1)</sup>

ولم يستطع هذا الأمير أن يضبط نفسه أمام طاقات جسدها المثيرة جنسياً،  
فراح ينشد:

ثقيلة الأرداف مائلة خرعوبة ناعمة النهد

تكتمت ما عندها من جوى ولست أكتم الذي عندي<sup>(2)</sup>

وعندما تعود إليه مكلفة بالجمال والإثارة، ينسى عسكره ووزيره وقادة هذا العسكر. فجسدها المثير أهمّ من جميع جنوده الذين قد يموتون نتيجة طيشه، لقد صارت حربه الرئيسة وقضيته المركزية. يقول الراوي: «فنظر فإذا هو بأكثر من عشرين جارية كالأقمار حول تلك الجارية وهي بينهن كالبدر بين الكواكب وعليها ديباج ملوكي وفي وسطها زنار مرصّع بأنواع الجواهر وقد ضمّ حصرها وأبرز ردفها، فصارا كأنهما كثيب من بلور تحت قضيب من فضة، ونهداها كفحلي رمان. فلما نظر شركان ذلك كاد عقله أن يطير من الفرح، ونسي عسكره ووزيره. وتأمل رأسها فرأى عليها شبكة من اللؤلؤ مفصلة بأنواع الجواهر، والجواري عن يمينها وعن يسارها يرفعن أذيالها وهي تتمايل عجباً. فعند ذلك وثب شركان قائما على قدميه من هيبة حسننها وجمالها، فصاح واحيرتاه!»<sup>(3)</sup>.

إن هذه الدهشة والإعجاب الشديد اللذين أصابا شركان وهو يتأمل جسد الأميرة أبريزة هما نفسهما اللذان أصابا الخليفة هارون الرشيد عندما شاهد زوجته السيدة زبيدة عارية تستحم في بحيرة قصره. يقول الراوي: «إن السيدة زبيدة (...) أتت إلى البحيرة وتفرّجت على حسننها فأعجبها رونقها والتفاف الأشجار عليها وكان ذلك في يوم الحرّ، فقلعت أثوابها ونزلت في البحيرة ووقعت. وكانت البحيرة لا تستر من يقف فيها فجعلت تملأ الماء على بدنها. فعلم الخليفة بذلك فنزل من قصره يتجسس عليها من خلف أوراق الأشجار، فرآها عريانة وقد بان منها ما كان مستوراً. فلما أحسّت بأمر المؤمنين خلف أوراق الأشجار وعرفت

(1) م. ن، 254/1.

(2) م. ن، 255/1.

(3) م. ن، 254/1 - 255.

أنه رآها عريانة التفتت إليه ونظرته فاستحت منه، ووضعت يديها على فرجها فتعجب من ذلك وأنشد هذا البيت:

نظرت عيني لحيني وزكا وجدي لبيني»<sup>(1)</sup>.

غير أن لذة الاكتشاف والعجب والدهشة التي أصابت الخليفة الرشيد بفعل سلطة جسد زوجته الجميل زبيدة لم تكتمل لأنه لم يستطع أن يشكّل خطاباً شعرياً جميلاً يعادل جمال جسد زوجته، فما كان منه إلا وأن استدعى شاعره ونديمه أبا نواس، ليكمل له سحر هذه الدهشة وجمالها. تقول الحكاية: «و لم يدر بعد ذلك ما يقول، فأرسل خلف أبي نواس يحضره فلما حضر بين يديه قال له الخليفة: أنشدني شعراً في أوله:

نظرت عيني لحيني وزكا وجدي لبيني

فقال أبو نواس: سمعاً وطاعة. وارتجل في أقرب اللحظات منشداً هذه الأبيات:

نظرت عيني لحيني وزكا وجدي لبيني

من غزال قد سباني تحت ظلّ الدرتين

سكب الماء عليه بأباريق اللجين

ليتيني كنت عليه ساعة أو ساعتين

فتبسّم أمير المؤمنين من كلامه وأحسن إليه»<sup>(2)</sup>.

للمرأة في ألف ليلة وليلة سلطة على الرجل والحكاية وعلى مسار السرد وانتقاله إلى الفضاءات المكانية المتشعبة والنامية، وبخاصة إذا كانت ذات وضع اقتصادي متميز. وتنتمي إلى طبقة السلطة والتجارة. وعموما فهي تمارس سطوتها على من هم أعلى منها منزلة وذلك بسطوة جسدها، وعلى من هم دونها بتفوقها المالي والطبقي، ففي حكاية «الحمال والبنات»، نلاحظ أن المرأة - بطلة الحكاية - امرأة جميلة ثرية متميزة كونها ابنة تاجر ثري كبير، مات وخلف لها ثروة ضخمة، تمارس سطوة على من حولها، مستخدمة بذلك طاقات جسدها المثيرة من جهة، وتفوقها

(1) م. ن، 3/156.

(2) م. ن، 3/156.

الطبقي من جهة أخرى. فعندما يشاهدها الحمال سرعان ما يسقط في فخاخ جسدها. يقول الراوي: «فنظر الحمال إلى من فتح الباب، فوجدها صبية رشيقة القَدَّ بارزة النهدي ذات حسن وجمال وعيون كعيون الغزلان وحواجب كهلال رمضان وخدود مثل شقائق النعمان وفم كخاتم سليمان ووجه كالبدري في الإشراق ونهدين كرماتين وبطن مطوي تحت الثياب، فلما نظر الحمال إليها سلبت عقله وكاد القفص أن يقع عن رأسه. فقال ما رأيت أبرك من هذا النهار»<sup>(1)</sup>. ومن خلال سحرها الأثنوي تأسره وتفرض سطوتها عليه، وتهيجه جنسياً، وإذا كان الراوي قد ذكر أن هذه المرأة الجميلة سمحت للحمال بأن يعانقها ويقبلها<sup>(2)</sup>، فإنها في حقيقة الأمر تمارس نوعاً من التسلية والمتعة الآنية، والسخرية بالحمال البسيط، فهو مجرد رجل خليع ظريف ووجوده يضيف على الفضاء نوعاً من البهجة، وهي لن تبادله حباً بحب، ولن تتأثر بمشاعره الجنسية المهتاجة، بل نجدها عندما تحقق حالة من البهجة في منزلها الفاخر تطلب منه أن يغادر المنزل إذ تقول له: «توجه وأرنا عرض أكتافك»<sup>(3)</sup>. لأنها متفوقة عليه جمالاً ووضعاً طبقياً واقتصادياً. فهو حمال وهي ابنة تاجر في مجتمع يقدرّ التجار ويجلّهم، نظراً لمكانتهم المالية المتميزة من جهة، وللحظوة التي يجودونها عند ملوك عصورهم وأمرائها من جهة أخرى. وعندما تطلب منه مغادرة منزلها يتضرع إليها أن تسمح له بالبقاء في جنتها المصغرة، حين يقول: «والله خروج الروح أهون من الخروج من عندكن. دعونا نصل الليل بالنهار وكل منا يروح إلى حاله»<sup>(4)</sup>. وإذا كان الحمال ذا قوة عضلية وبنية جسمية قوية ومتميزة تساعده على الحمل، وبالتالي هو يملك سلطة الجسد القوي، فإن سلطته على المستوى الفعلي لا قيمة لها أمام سلطة جسد المرأة، وثرائها المالي، وفي فضاء دارها المحصن والقوي، فما أن يدخل دارها حتى يجد نفسه ضعيفاً مستلباً أمام سطوة جسدها، وعبداً ذليلاً لهذا الجسد، وتظهر الوحدات السردية مدى استلاب هذا الحمال وحاجته لحضور هذا الحفل العريدي، فهو يظنّ نفسه أنه في المنام، ولكي

(1) م. ن، 47/1.

(2) م. ن، 49/1.

(3) م. ن، 49/1.

(4) م. ن، 49/1.

يؤكد الراوي استلاب هذا الحمال روحياً وجنسياً في المجتمع البغدادي المتباين طبقياً، نجده يتعاطف معه، ويدفع بدلالة البنات لأن تقول لهن: «بحياتي عندكن تدعنه ينام عندنا نضحك عليه فإنه خليع ظريف»<sup>(1)</sup>. ثم ينقله من حلم البسطاء في بغداد إلى واقع الثراء، وذلك بأنه يجعله يتحسس أجساد البنات ويعانقهن، ثم يدفع ببوابة المنزل لأن تتعري أمامه: «و لم يزل الحمال معهنّ في عناق وتقبيل وهذه تكلمه وهذه تجذبه وهو معهن، حتى لعبت الخمرة بعقولهم، فلما تحكم الشراب معهم، قامت البوابة وتجرّدت من ثيابها وصارت عريانة، ثم رمت نفسها في تلك البحيرة ولعبت في الماء وأخذت الماء في فمها وبجّحت الحمال ثم غسلت أعضائها»<sup>(2)</sup>.

ومع تنامي السرد، سيزداد تأثير سلطة جسد المرأة على الحمال، لأنّ هذه المرأة ستحرّض مكنم جوعه وحرمانه الجنسي، بوصفه حمّالاً لا يستطيع التواصل الجنسي مع حرائر عصره وجواريه، وذلك لافتقاده إلى سلطة المال وتأثيره على نفوس النساء، وقد أشار السرد على لسان المرأة الغنية أهمية سلطة المال، وأنّه لا قيمة للحب إن افتقد إلى المال. تقول صاحبة الدار للحمال: «وإذا كانت بغير المال محبّة فلا تساوي وزن حبة، وقالت البوابة: إن لم يكن معك شيء فاذهب بلا شيء»<sup>(3)</sup>.

وسينجلي ما كان مستوراً أمام الحمال، إذ ترفع الستارة لتكشف للحمال عالم البطر والثراء، وليتجسد عري النساء الجميلات فارضاً هيئته وسطوته على حمّال بسيط، قد يكون عاش طوال حياته ولم يسمح له وضعه الاقتصادي والطبقي لأن يرى جسداً عارياً، في مجتمع تعلّمت فيه النساء أن تتعري أمام سلطة المال والجواهر وأمام سلطة السلطة السياسية. وليس أمام حمّال مثله لا يملك شيئاً.

إنّ للحمال الأثنوي الصارخ الضاحّ بالشهوة والاشتهاء الجنسي سلطة قوية على شخوص حكايات ألف ليلة وليلة، وربما على متلقي الحكاية نفسه، الذي لا يستطيع الانقطاع عن متابعة حركة الوحدات السردية وهي تراقص على وقع هامات الجوّاري المشوقة. المليئة بالإثارة الجنسية الصارخة. وقد أسهم هذا الجمال في نمو سرد الحكاية

(1) م. ن، 49/1.

(2) م. ن، 49/1.

(3) م. ن، 48/1.

وتشعب أحداثها، وحركة أبطالها الثانويين والفرعيين، وتشكيل فضاءاتها المكانية، لأن المرأة في الليالي هي بؤرة السرد المركزية، ومن خلالها تنتظم الوحدات السردية وتتشابك وتنمو لتشكّل المبنى الحكائي العام في حكايات ألف ليلة وليلة.

إنّ انفتاح الأراضي والأمكنة العربية في ألف ليلة وليلة على المؤثرات الخارجية الهندية والفارسية أدى إلى تدفق مزيد من الجوّاري بمواصفات جمالية متعددة، إذ امتلأت المدن العربية الإسلامية بالجوّاري والمغنيات القادّات من أصقاع المعمورة نتيجة للفتح والسيب، يضاف إلى ذلك ما كان يقدم للخلفاء والأمراء من هذه الجوّاري كهبات وهدايا على سبيل التقرب، وتحقيق المصالح السياسية والطبقية والاقتصادية.

ويذكر أبو حيّان التوحّيدي (328 - 387هـ) عدد جوّاري ناحية الكرخ بيغداد وعلمائها المغنيين في عهده قائلاً: «وقد أحصينا - ونحن جماعة في الكرخ - أربعمائة وستين جارية في الجانيين، ومائة وعشرين حرة، وخمسة وتسعين من الصبيان البدور، يجمعون بين الحذق والحسن والظرف والعشرة، هذا سوى من كنا لا نظفر به ولا نصل إليه لعزّته وحرسه ورقبائه وسوى ما كنا نسمعه ممن لا يتظاهر بالغناء وبالضرب إلّا إذا نشط في وقت، أو ثمل في حال، وخلع العذار في هوى قد حالفه وأضناه، وترّثم وأوقع، وهزّ رأسه، وصعد بأنفاسهن وأطرب جلاسه، واستكتمهم حاله، وكشف عندهم حجابهن، وادّعى الثقة بهم، والاستئمان إلى حفاظهم»<sup>(1)</sup>. وقد كانت هذه الجوّاري على قدر كبير من الظرف والجمال والقدرة على إثارة الرجال وتأجيج سعارهم الجنسي، فقد «خلبن العقول، وخلصن الصدور، [وسعّرن الصدور]، وعجّلن بعشاقهن إلى القبور»<sup>(2)</sup> على حدّ تعبير التوحّيدي. وقد عمل الرواة في ألف ليلة وليلة على تسليع المرأة، وجعلها مثلاً ووظائفيّاً، ينحصر دورها في إشعال مجامر الأجساد، وفي قدراتها على تغييب السلطان أو وزيره أو شخصوس الليالي عن بينة الزمان والمكان وذلك باستحضار رعشة الجنس وغيوبته. ووصفوها وصفاً جنسياً مركزين على مكان من الإثارة فيها. يقول أحد الرواة: «و إذا بجماعة من البنات ماشيات إلى

(1) التوحّيدي، أبو حيّان: الإمتاع والمؤانسة، صححه وضبطه: أحمد أمين وأحمد الزين، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، دون تاريخ، الجزء الثاني، ص 183.

(2) م. ن، ص 182.

قرب النهر، ثم خلعن ثيابهنّ فرأى ما بين أفخازهنّ أنواعاً مختلفة ما بين ناعم ومقبق، وسمين مربرب، وغلظ المشافر وكامل وبسيط ووافر، ووجوهنّ كالأقمار وشعورهنّ كالليل على نهار<sup>(\*)</sup>.

وها هو أحد الرواة يصف مبيناً حالة عشق أحلت بأحد أمراء ألف ليلة وليلة بعد أن أحبّ امرأة مليئة بالمشيرات الجنسية: «ونزل سيف الملوك ودخل البستان وهو سكران من خمر الغرام، حيران من فرط العشق والهيام، وقد هزّه الشوق وغلب عليه الوجد، فأنشده هذه الأبيات:

يا بديع الجمال ما لي سواك فارحميني أني أسير هواك

أنت سؤلي ومنيتي وسروري قد أبي القلب أن يحبّ سواك

ليت شعري هل تعلمين بكائي طول ليلي مسهد الجفن باكي<sup>(1)</sup>.

أن فرط العشق والهيام، وهزّة الشوق التي تعصف بشخص اليلالي عائدة بالدرجة الأولى إلى شكل المرأة الجمالي المثير، المشكل تشكيلاً يشير إلى شبق الرجل، وربما قد يشير إلى جوعه الجنسي التاريخي، وحاجته الملحة إلى امرأة متميزة بجميع مقاييسها الجمالية، والتي منها: «فم كأنه خاتم سليمان، وشعر أسود من الليل (... ) وغرّة كهلال عيد رمضان وعيون تحاكي الغزلان وأنف أقنى كثير اللعان، وخذان كأنهما شقائق النعمان، وشفقتان كأنهما مرجان، وأسنان كأنهما لؤلؤ منظوم في قلائد العقبان، وعنق كسبيكة فضة فوق قامة كغصن البان، وبطن طيّات وأركان يتتهل فيها العاشق الوهّان، وسرّة تسع أوقية مسك طيب الأردن، وأفخاذ غلاظ سمان، كأنهما عواميد رخام، أو مخدّتان محشوتان من ريش النعام، وبينهما شيء كأنه أعظم العقبان أو أرنب مقطوش الأذان وله سطوح وأركان هذه الصبية فاقت بحسنها وقدّها على غصون البان، وعلى قضيب الخيزران، وهي كاملة<sup>(2)</sup>.

(\*\*) ألف ليلة وليلة، 4/323.

(1) ألف ليلة وليلة، 4/231.

(2) م. ن، 4/271.

إنّ هذه المقاييس الجمالية الجنسية التي لها سلطة قوية على جميع شخوص ألف ليلة وليلة، لها خلفيات مرجعية في نصوص التراث العربي شعرا ونثرا، ولا نستغرب أن يكون رواة ألف ليلة وليلة قد استفادوا من هذه الخلفيات وشكّلوا هذه المقاييس الجمالية في الحكايات التي سردوها تأسيسا على هذه الخلفيات، وها هو أحد هذه النصوص يصف امرأة تعدّ نموذجا جماليا يتهالك الرجال لامتلاكه: «ثم رفعت ثيابها حتى جاوزت نحرها، فإذا هي كقضيبي فضة قد شيب بماء الذهب، يهتزّ على مثل كتيب؛ ولها صدر كالورد عليه رمانتان أو حقّان من عاج يملآن يد اللامس؛ وخصر مطوي الاندماج، يهتزّ في كفّل رجراج، لو رمت عقده لانعقد؛ وسرّة مستديرة يقصر وهمي عن بلوغ وصفها؛ تحت ذلك أرنب جاثم أو جبهة أسد غادر، وفخذان لفاوان، وساقان خدلجان يجرسان الخلاخيل، وقدمان خمصاوان»<sup>(1)</sup>.

إنّ زمن الليالي يمتدّ وينمو ليشمل أزمنة عديدة من أزمنة الحكيم والسرد، ثم يتقلّص فجأةً بحدوث الرعشة الجسدية، وتتمنى الشخصية الذكورية أو الأنثوية أن يلغى الزمن وليتركز كله في ذروة الرعشة. فالزمن يبدو كابوساً وطويلاً مملاً وحزينا إلى أن يتحقق التصالح الجنسي باندماج الجسدين. يقول أحد الرواة على لسان أحد أبطاله العاشقين: «فأخذت لقمة وأردت أكلها فما قدرت، فامتنت عن الشراب والطعام وهجرت لذيد المنام، واصفرّ لوني وتغيرت محاسني، لأني ما عشقت قبل ذلك ولا ذقت حرارة العشق إلا في هذه المرة، فضعفت»<sup>(2)</sup>. وعندما يتحقق التصالح الجنسي بين العاشقين، ويدخلان مرحلة الغيبوبة فإن الزمن يبدو شفيفاً، حيث تسكن النفس مستسلمة لوقع المسرات والسعادة الغامرة لخبايا النفس والروح. يقول أحد أبطال الليالي واصفاً حاله بعد التقائه بإحدى النساء الماكرات اللعوبات التي بحث عنها طويلاً، وبعد أن ملّ حب ابنة عمّه وزوجته الوفية الصادقة: «وأقبلت عليّ وضممتني على صدرها وقبّلتني وقبّلتها، ومصّت شفتي التحتانية ومصصت شفيتها الفوقانية، ثم مددت يدي على خصرها وغمزته، وما نزلنا في الأرض إلاّ سواء. وحلّت سراويلها

(1) ابن قيم الجوزية، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن بكر الزرعي (691 - 751 هـ): أخبار النساء، تحقيق د. نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، طبعة 1988/1408 م، ص 161.

(2) ألف ليلة وليلة، 17/2.

فنزلت في خلال رجليها وأخذنا في الهراش والتعنيق والغنج والكلام الرقيق والعضّ وحمل السيقان والطواف بالبيت والأركان، إلى أن ارتخت مفاصلها وغشي عليها ودخلت في الغيوبة، وكانت تلك الليلة مسرّة القلب وقرّة الناظر»<sup>(1)</sup>. وعندما يلتقي العاشقان يضيق الزمن ويتجمع في بؤرة مركزية تتحدد بمحيز مكاني ضيق، هو جدران الحجرة أو المقصورة بموتيفاتها الجنسية من أكل وشراب وخطور تملأ الفضاء عبثاً. ثم يتلاشى بحدوث الغيوبة. وعندما يغيب الجسد بمثيراته الجنسية يبدأ كابوس الزمن يضغط على الشخص من جديد، فتحسّ هذه الشخص بالاغتراب الحاد وتشكو وتبوح بمكنوناتها للقهرمانات والقوادات والعجائز الماكرات اللواتي يمكن أمهر الحيل والمكايد التي تصطاد أحسن النساء وأكثرهن عفة، ولكل شخص من شأنه أن يعيد للزمن شفافيته وألقه. ومع تقلص الزمن ونموه تتداخل الأحداث المثيرة فيه، إذ تبتعد الشخصية العاشقة أو المعشوقة عن مكانها إمّا بالرضى، وإمّا جبراً عنها، نتيجة ظروف خارجة عن إرادتها يربطها الراوي عموماً بالمكتوب والقدر، وإرادة الله سبحانه وتعالى، وتتألف الوحدات الحكائية الصغيرة في الليالي، مشكلة حكاية كبيرة متشعبة، ومع تشعب هذه الحكاية يحتاج السرد إلى جسد المرأة الغائب، وبالتالي إلى بطل مغامر عاشق ولهان سيظل يبحث عنه إلى أن يأتي هادم اللذات ومفرق الجماعات بمفردات رواة ألف ليلة وليلة. ويتأجج بحث البطل الذكر عن المرأة الحلم مصحوباً بالأنين والألم والبكاء والشكوى، فينزوي هذا البطل تارة، ويجنّ أخرى، ويفتعل المعارك والحروب والمؤامرات مرة أخرى إلى أن يصل إلى الجسد، ويتواصل معه جنسياً.

إن حالة الوحشة والاغتراب والكآبة التي تصيب شخص الليالي في ما إذا منعوا عن تحقيق الرضى الجنسي هي حالة عامة، تصيب الذكر والأنثى؛ الأمير والفقير؛ العفيف والمتهتك، فالرجل يبحث عن المرأة ويفني عمره في قطع الفيافي والبلدان حتى يصل إليها، والمرأة كذلك. وقد تتعدد طرق البحث وأساليبه، لكن هذه الطرق - وبشكل عام - في الليالي تفتقد إلى الحسّ الإنساني والجمالي لأن الرجل يرى في المرأة فريسة، والمرأة ترى في الرجل وسيلة لكسب الثروة والسطوة والملاذات، وأفضل طريقة لابتزازه اللجوء إلى قدرات الجسد الجنسية.

## الخاتمة

تقوم ألف ليلة وليلة في بنية حكاياتها على مبدأ الثنائيات الضديّة: الخير والشرّ، الفقر والغنى، العدل والظلم، الواقعيّ والتخييليّ، الأمان والطمأنينة والخوف وفقدان الأمان، والأفراح الكبيرة والأحزان الكبيرة... الخ. وتتوزّع هذه الثنائيات في معظم الفضاءات التي يترحل السرد منها وإليها. وقد أسهمت هذه الثنائيات في جعل نصوص ألف ليلة وليلة تنفتح على مزيد من التناقضات والاحتمالات، وتستوعب أنماطاً عديدة من الشخصوس المتلاقية المتحاورة تارة، والمتصارعة المتنافرة تارة أخرى، إذ تتحرك هذه الشخصوس في فضاءات مكانية تحمل أيضاً مزيداً من التناقضات. فعلى سبيل المثال يُلاحظ أن مدن ألف ليلة وليلة آمنة وغير آمنة في الوقت نفسه، والملك أو الخليفة أو الحاكم فيها عادل حكيم تارة، سفيه أحمق ظالم مغرور تارة أخرى، إلاّ أنّه في غالب الأحيان ظالم باطش، نزق سريع الغضب. ويُلاحظ أنّ قسماً من سكان المدينة متديّنون ورعون يخافون الله، وأنّ القسم الآخر من سكان هذه المدينة شهوانيّون وفاجرون ولصوص ومحتالون، لا همّ لهم إلاّ ارتكاب كلّ ما هو محرّم ومنكر. ويبدو أنّ هذا التناقض طبيعيّ جداً، طالما أنّ النفس الإنسانية لا تستقرّ على حال واحدة في مسيرتها وعلاقتها وقيمها، فهي متحرّكة ضمن مجموعة من القيم والمفاهيم والسلوكيات المنسجمة والمتناقضة في آن.

إنّ هذه الثنائيات ستسهم في أن تكون الأحكام والنائج التي يفرزها هذا الكتاب قابلة لمزيد من التغير والتناقض، وبالتالي ليست نهائية. وقد تكون في موضع من المواضع تؤكّد مقولة ما، لكنّها في موضع آخر تنفي هذه المقولة، ليس رغبة في النفي أو التناقض، بل لأنّ نصوص ألف ليلة وليلة تفرز هذا التناقض، نظراً

لمفاهيمها ومقولاتها المتناقضة المتغايرة من حكاية إلى أخرى، فما يصحّ قوله في تحليل إحدى الحكايات قد لا يصحّ في تحليل حكاية أخرى.

إنّ الباحثين في ألف ليلة وليلة لا يخرجون بنتائج نهائية، وقلّما تأتي دراسة أحدهم مشابهاً لدراسة آخر، بل تحمل معظم دراساتهم مزيداً من الاحتمالات. وهنا حاول هذا الكتاب، ومن خلال قراءة نصوص ألف ليلة وليلة كاملة ولأربع مرّات، أن ينطلق من بنية نصوص الليالي نفسها، وأن يعتمد بعض المراجع والمصادر التاريخية التي تحدّثت عن المدينة العربية الإسلامية، وأن يقيم تحليلاته ونتائجه من داخل هذا التناقض الذي تفرزه نصوص ألف ليلة وليلة بمدى وسلطانها، وعلاقتها وقيمها، واستقامة سكانها وشدوذهم وانحرافهم في آن. وإن ظهر في هذا الكتاب بعض الآراء المتناقضة أو النتائج المتغايرة من حكاية إلى أخرى، فإنّ ذلك يعود، بالدرجة الأولى إلى بنية النصوص الحكائية وتشعبها، وتباين رؤاها الإيديولوجية التي يبيّنها مجموعة من الرواة المتباينين في مشاربهم الثقافية، وبنياتهم الذهنية، وقناعاتهم الإيديولوجية.

إنّ نصوص ألف ليلة وليلة بتناميها وتشابكها، وجرأتها وخروجها عمّا هو سائد ومألوف من نصوص خجولة متمرّنة اعتادها القارئ المترمّنت، تمثّل نسقاً معرفياً حكاياً واقعيّاً، وأسطورياً غرائبياً قلّ نظيره في الأدب العربي القديم والحديث، وربّما في الأدب العالمي. فهذه النصوص بتناقض شخوصها، وصراحتهم وجرأتهم وجونهم وتمردهم، واستكانتهم واستسلامهم المطلق للغيب والسلطة أحياناً، وقدراتهم الخارقة للعادة والمألوف أحياناً أخرى، هي نصوص خصبة منفتحة على الأزمنة والأمكنة المتباعدة، والحضارات الأخرى بثقافتها وآدابها وفنونها. ومن هنا فإنّ خصوصيتها قادرة على أن تشكّل خلفيّة معرفية مرجعية لكثير من الأعمال الإبداعية المعاصرة، من شعر وقصّة ورواية ومسرح. فقارئ ألف ليلة وليلة يجد نفسه أمام حقل ثقافي متعدّد المشارب، يتوغّل إلى أبعاد الحضارات، يتشاقف ويتأثّر، ثم يتلاقى ويتحاور، لينسكب هادئاً عذباً على المدن والحضارات العربية والإسلامية.

إنّ نصوص ألف ليلة وليلة ونصوص مثيرة جريئة. إنّها تخدش أعماق الإنسان في حاضره وماضيه، وما توسوس به نفسه الأمّارة بجميع المعاصي، ولا تحشى أحداً.

تعلن مشروعها الإيديولوجي لتدين النساء والرجال، والمدن وقيمها، والملوك واستبدادهم، والأسواق وعلاقاتها الاجتماعية والتجارية، إنها شمولية في إدانتها وفي امتدادها إلى أبعد الحضارات وأقربها، فعلى سبيل المثال نجد أن المرأة في ألف ليلة وليلة هي كل نساء الحضارات الأخرى، وخطابها الكيدي والاحتيالي هو خطاب المكيدة أنني كان - في أيّ زمان وأيّ مكان - فلم تترك نصوص ألف ليلة وليلة امرأة من نساها المنتميات إلى حضارات ومذاهب عديدة إلاّ وكشفت عن أهمّ الجوانب الدفينة في أعماقها، ولم تترك سلطاناً أو حاكماً من حكامها إلاّ وتوغّلت إلى أبعد دهاليز قصوره ومقصورتها الخاصة، وعرّت نساءه وجواريه الحظايا، وطقوس فرحه وحزنه وجسده، وخطاباته الفكرية والسياسية، وعلاقاته مع أفراد شعبه، وسلّطت الضوء على طعامه الفاخر، وخبوره المعتقة، فشعت متألّفة شهية على وقع الصاحات والدفوف، وقامات الجوّاري المليئات جمالاً اللواتي تهتزّ مغناجة مثيرة. فهذه النصوص تتمرّد تائرة على معظم الخطابات التاريخية، والقصصية، والحكاية التي سبقتها والتي عاصرتها، غير أنّ هذا التمرد يبقى مغلفاً بشال من الحرير المعطر سحراً وأساطير. إنّ لها القدرة السحرية على التوغّل إلى أعماق الذات لتعري خطاباتها الفكرية، وتناقضاتها، وأدقّ خفاياها، وسكيتها واستسلامها المطلق لقدرها الغيبيّ، ولسلطات مدنها الغاشمة، ومن ثمّ لتنقلها إلى مدن جديدة سحرية على أجنحة خيال أسطوريّ حالم تارة، متوثّب جامح تارة أخرى، فتحلق هذه الذات حاملة بالنساء الشهيّات، والثراء الفاحش، مع الجنّ والأحصنة الطائرة المسحورة، والمصايح السحرية، وخواتم شبيك لبيك (المال والقصور وجوّاري الأرض بين يديك، اطلب تُطع، إن أنت دعكت هذا الخاتم السحري، أنا المارد خادم هذا الخاتم القادر على فعل العجائب، سأكون حالاً بين يديك)، وتحلق صوب المدن الفاضلة التي لا خوف فيها ولا بطش ولا استبداد، عندها تسكن الروح عميقاً، وتستسلم لحالة من الطمأنينة والرضى، والأحلام الشفيفة التي لن يتحقّق منها شيء، لأنّ واقع مدن ألف ليلة وليلة واقع مُهان محكوم بحفنة من الحكّام الظلمة، الذين لا يعملون إلاّ على تحقيق مصالحهم الخاصة، وإشباع نزواتهم المتأجّجة دائماً.

إنّ معظم رواة ألف ليلة وليلة مؤدجون إسلامياً، فهم يتعاطفون مع الدين الإسلامي، ويفضّلونه على بقية الأديان الأخرى، ويؤكّدون أنه لا نجاة من الحياة الدنيويّة المليئة بالشرور والآثام، ولا انتقال إلى عالم الملكوت الأعلى إلاّ باعتراف الدين الإسلامي الذي هو خاتمة الأديان وخيرها، ويطمحون إلى سيادة الإسلام فوق بقاع المدن كلها: الواقعية والتخيّليّة الأسطوريّة، ولذا فهم يثّون مفاهيم الإسلام وقيمه وأخلاقياته من خلال السرد الحكائي، إلاّ أنّه من المستغرب أنّ هؤلاء الرواة المتعصّبين للإسلام لا يدينون مدّهم الإسلاميّة الغارقة بالمعاصي المنافية لأخلاق الإسلام، إذ تسود في مدن ألف ليلة وليلة كل المحرّمات، فهناك الخمرات، وقتل النفس التي حرّم الله قتلها، والزنى والشذوذ الجنسيّ، والاستبداد في أوجه، وهناك الملوك والخلفاء المسلمون الذين يكرعون الخمرة أرتالاً، وينكّلون بأفراد شعوبهم، ويقضون معظم أوقاتهم بين أحضان جواربهم وسراريهم، ولا يتوانون في الزواج بأية امرأة جميلة، إمّا بالرضى وإمّا بالاغتصاب أو الاحتيال، وهم مستعدّون للزواج بكل امرأة جميلة، حتى ولو كانت عاهرة. وعلى الرّغم من كل ذلك نجد أنّ بعض هؤلاء الرواة يتغاضون عن سلوك هؤلاء الحكّام، ويتجاوزون عن أخطائهم، وكأنّ شيئاً لم يكن، في حين أنّ هؤلاء الرواة يسارعون في الطعن بأخلاق الحكّام غير المسلمين، ويقلّلون من شأنهم، ويدينون أخطاءهم، ومهما كانت بسيطة.

وليست حكايات ألف ليلة وليلة ترفاً لفظياً، أو رحلة وصفية في الزمان والمكان، بل إنّ لها غايات وظيفيّة، فالسرد الحكائي لا ينمو ولا يدخل فضاءات مدن ألف ليلة وليلة إلاّ ليعبر عن أطروحات فكرية وسياسية وغايات أخلاقية في كثير من الأحيان. ومعظم رواة الليالي يحمّلون السرد الحكائي كثيراً من المقولات الفكرية والإيديولوجية التي يؤمنون بها، وبالتالي ينفون مقولات أخرى يستهجنونها، ويدينونها.

إنّ رواة ألف ليلة وليلة، من خلال الوصف وقطع السرد ووصله، ومن خلال تداخل الحكايات فيما بينها، ومن مواقف الأبطال وطبيعة تفكيرهم، يكرّسون كلّ معارفهم، وما يؤمنون به، ليشّوا خطاباتهم الإيديولوجية المعادية لخطابات أخرى.

هذا ويقدم رواة ألف ليلة وليلة نساء مدتهم السلطويات وغير السلطويات على شكل نماذج مثيرة طاغية الجمال، بحيث تبدو هذه النساء أجمل من حوريات الجنة، فالقمر يخجل من جمالهن، والشمس تحسدهن على وضاعة وجوهن، أما أكفاهن الثقيلة فإنها تبدو وكأنها كثبان من الرمال، وتبدو نهودهن أكثر تماسكاً وتكوراً من كل رمان مدن ألف ليلة وليلة، وكل واحدة منهن ذات خدّ أسيل وقدّ مليح. وهذا التقديم في بنيته العميقة يدل على نزعة هؤلاء الرواة الشبقية التي تشير إلى أنّ هؤلاء الرواة، الذين هم ممثلو القطاع الذكوريّ المهان في ألف ليلة وليلة، قد عانوا عبر تاريخهم الطويل من حرمان جنسي مزمن، وقهر تاريخي وضعهم في طبقة متدنية محرومة، وحرمتهم من هاته النسوة المثيرات اللواتي اعتبروهنّ أعظم وأعلى السلع التي يطمح هؤلاء الرجال إلى امتلاكها، في حين أنّ أيّ ملك أو أمير كان باستطاعته أن يحصل على ما يشاء من هاته النسوة المثيرات، طالما يملك المال والسلطة. غير أنّ هؤلاء الرواة لم يقفوا عند هذه الملامح الجمالية لهاته النسوة الطاغيات إثارة وتكورات لحمية فحسب، بل رأوا أنّ معظم هاته النسوة المثيرات فاسدت وعاهرات، ومنقادات لرغباتهن الشهوانية المسعورة، ويتقن فنون المكاييد والاحتيايل بامتياز - وبطبيعة الحال هناك استثناءات طفيفة - . أمّا ملامح نساء السلطنة، بالإضافة إلى الملامح السابقة، فهي ملامح استبدادية باطشة، إذ لا تتوانى هاته النساء في البطش بأقرب المقرّبين منهنّ، فبعضهنّ يفوق الرجال السلطويين بطشاً وظلماً، على أنّ استبداد هاته النسوة، في المحصلة الأخيرة، هو نتيجة لاستبداد الرجال، ومستمدّ منه، لأنّ المرأة السلطوية تستمدّ قدرتها على البطش، بمن في قصرها من العبيد والجواري ومن في مدينتها من المواطنين، من سلطة زوجها المطلقة، بوصفه الرأس الأعلى، وصاحب الكلمة الأولى والأخيرة في دولته. وأمّا استبداد نساء السلطنة في ألف ليلة وليلة يُلاحظ أنّ الرواة يجترئون عليهنّ، ويصفون بعضهنّ بالزواني والخبيثات.

ونلاحظ في حكايات ألف ليلة وليلة أنّ نمّة قطيعة إنسانية تعمل السلطنة على تكريسها في علاقاتها بالطبقات الأدنى منها، وتتمثّل هذه القطيعة بالاحتقار والاضطهاد والجلد والتهديد بالقتل، والقتل، والإكثار من مظاهر الأبهة والثراء،

والإكثار من اتخاذ الحراس والحجاب الذين يحيطون بالسلطة كظّلها، بحيث يبدو رجال السلطة آلهة متوجّجين بالأبهة والعظمة، مما يجعل الطبقات الأخرى في حالة خوف دائم، وقناعة مطلقة باستحالة قدراتها على تغيير نظام السلطة أو الثورة عليها. فمعظم سلطات مدن ألف ليلة وليلة الإسلامية وغير الإسلامية لا تقرب إلاّ الأذلاء الخانعين لها خنوعاً مطلقاً، والأعوان الباطشين المستبدين في آن، والمهرّجين والندماء المتملّقين، والأبواق المردين إيديولوجيتها وعظمتها وحقها الإلهي في وراثته الحكم، والشعراء المنافقين المادحين مدحاً تكسبياً كاذباً.

إنّ للحكاية في ألف ليلة وليلة سلطة على الشخصوس السلطويين المروي لهم، إذ تأسرهم هذه الحكاية بفتنة سردها، ونسائه الجميلات المثيرات، ومدنه، وحوادثه العجائبية التي تنشلهم من هموم السياسة والحكم، وتقذفهم صوب البلاد السحرية العجيبة. وسلطتها هذه تعمل على إنقاذ الرواة وأبطالهم من القتل، فالراوي أو البطل المحكوم عليه بالقتل - سواء أكان الحكم من قبل السلطة، أم من قبل شخص مستبدّ أقوى منه - يسارع إلى فداء نفسه بقصّ حكاية غرائبية مثيرة، وبعيدة في التخيل، شرط أن تكون هذه الحكاية جديدة لم يسمع بها الشخص السلطوي المروي له. وعندما يسمع المروي له هذه الحكاية الجديدة المثيرة فإنّ أزمته الاجتماعية أو النفسية تنفجر أمام السرد العذب، ويتصالح مع الراوي، ويعفو عنه، وأحياناً يجعله من ندمائه الخاصين.

إنّ هذه الموضوعات التي تطرّق إليها هذا الكتاب ليست هي وحدها الموضوعات المهمّة في ألف ليلة وليلة، بل ثمة مواضيع أخرى كثيرة - لم تُبحث بعد باستفاضة - وجديرة بالاهتمام والدراسة من قبل الباحثين، ويمكن أن تشكّل محاور رئيسة وفرعية لعدد غير قليل من الكتب والدراسات، ويبدو أن البحث في هذه الموضوعات ممتع وشيق. وقد يكون من هذه الموضوعات ما يلي:

1. التناصّ بين حكايات ألف ليلة وليلة وبين المصادر الأدبية والتاريخية التي ذكرت كثيراً من حكايات ألف ليلة وليلة، وبتحويرات جدّ طفيفة. ومن هذه المصادر: الفرّج بعد الشدة لأبي علي المحسن بن علي التنوخي، والمستطرف في كل فن مستظرف لشهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهي، وأخبار النساء لشمس

الدين أبو عبد الله محمد بن بكر الزرعي (ابن قِيم الجوزية)، والروض العاطر في نزهة الخاطر لمحمد بن أبي بكر بن علي النفزاوي، والمنظم في تاريخ الملوك والأمم لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، ومصارع العشاق لجعفر بن أحمد بن الحسين السراج، وتحفة النظر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (رحلة ابن بطوطة) لمحمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي (ابن بطوطة).

2. ملامح إيديولوجيا الرواة الإسلاميين، ومعادتهم للمسيحيين واليهود والمجوس.
3. ظاهرة اللهو والمجون في فضاءات قصور ألف ليلة وليلة.
4. المقاييس الجمالية المرغوبة في نساء ألف ليلة وليلة كما تحددها أذواق الرجال الرواة.
5. نشاط الحركة التجارية في ألف ليلة وليلة، وعلاقة التجار بطبقة السلطة، وملامح إيديولوجيا الرواة المعادية للتجار والتجارة من جهة، والمساندة لهم من جهة أخرى.
6. تأثير ألف ليلة وليلة في الرواية العربية المعاصرة، وبخاصة في روايات نجيب محفوظ وهاني الراهب وجمال الغيطاني ويوسف القعيد.
7. تأثير ألف ليلة وليلة في المسرح العربي الحديث والمعاصر، وبخاصة في مسرحيات توفيق الحكيم وعلي أحمد باكثير وألفريد فرج وسعد الله ونوس ومحمد الشرفي ونعمان عاشور.
8. دور المال في مدن الليالي وعلاقات سكّانها، وتقديس بعض الشخص له.
9. الجريمة والقتل في ألف ليلة وليلة، وبخاصة جريمة بتر الأطراف.
10. ظاهرة الشذوذ الجنسي في ألف ليلة وليلة: مظاهرها، ودوافعها.
11. التكرار في ألف ليلة وليلة، وذلك في وصف أشكال النساء، وطرائق احتيالن، ووصف القصور، والتكرار في حركة الأبطال وفي أحداث بعض الحكايات.
12. طبيعة العلاقة بين السياسي السلطوي والمعرفي: الزهديّ والفقهيّ والدينيّ، وانضواء المعرفي تحت جناح السلطوي من جهة، ورفض المعرفي للسياسي وإدانتته، والابتعاد عنه من جهة أخرى.

وأمام ألف ليلة وليلة، هذا العمل الحكائي المتميّز، لا عجب أن يقف المستشرق الدانماركي ج. أوستروب<sup>(1)</sup> مأخوذاً بالإعجاب والتقدير، ثم يقول: «فيما عدا الكتاب المقدس لا توجد سوى كتب قليلة حققت انتشاراً واسعاً وطافت العالم بأرجائه مثل مجموعة الحكايات العربية الشهيرة، والتي عُرفت تحت اسم «ألف ليلة وليلة»، فمن جهة أولى اكتسبت أهمية مباشرة، لأنه يكاد لا يوجد في معظم البلدان المتحضرة من لم يقرأ هذا الكتاب بسرور واهتمام مرّة واحدة على الأقل في حياته ويستوح منه عدداً كبيراً من الصور البرّاقة الرائعة والتي ظلّت على الدوام عالقة في ذاكرته، ومن جهة ثانية اكتسبت أهمية غير مباشرة لأنّ أجيالاً متعاقبة من الأدباء كانت تنهل مادتها من هذا النبع الذي لا ينضب».

(1) عن/مومسن، كاترينا: غوته وألف ليلة وليلة، ترجمة د. أحمد الحموي، منشورات وزارة التعليم العالي، دمشق، الطبعة الأولى 1980م، ص 4. ولم تذكر اسم المرجع الذي اقتبست منه.

## مصادر البحث ومراجعته

- 1 - الكتب القديمة.
- 2 - المعاجم والموسوعات.
- 3 - الكتب العربية الحديثة.
- 4 - الكتب الأجنبية المترجمة.
- 5 - الدراسات المنشورة في الدوريات ومقدمات الكتب.
- 6 - الكتب الأجنبية.

### 1 - الكتب القديمة

1. مؤلف مجهول: ألف ليلة وليلة، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د. ت، أربعة أجزاء.
2. مؤلف مجهول: ألف ليلة وليلة، المكتبة الشعبى للطباعة والنشر، بيروت، د. ت، المجلد الثالث.
3. الأبيهي، شهاب الدين محمد بن أحمد (ت 1446/850م): المستطرف في كل فن مستطرف، تحقيق المكتب العالمى للبحوث، دار مكتبة الحياة، بيروت، طبعة 1989م، المجلد الأول والثاني.
4. الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين (ت 356هـ/967م):  
- كتاب الأغاني، تحقيق: علي محمد البحّاوي، طبعة 1389هـ/1970م، الجزء السابع عشر.  
- كتاب الأغاني، تحقيق: عبد الكريم إبراهيم الغرابوي، طبعة 1389هـ/1970م، الجزء الثامن عشر.

- كتاب الأغاني، تحقيق: عبد الكريم إبراهيم الغرباوي، ومحمود محمد غنيم، الجزء الحادي والعشرون، طبعة 1.
5. التجاني، محمد بن أحمد (ت 709هـ/1309م): تحفة العروس ومتعة النفوس، تحقيق: د. جليل العطية، دار رياض الريس للكتب والنشر، لندن/ليماسول، الطبعة الأولى، حزيران (يونيو)، 1992م.
6. التوحيدي، أبو حيان علي بن محمد (ت حوالي 400هـ/1010م): كتاب الإمتاع والمؤانسة، صححه وضبطه: أحمد أمين وأحمد الزين، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، دون تاريخ، الجزء الثاني.
7. التنوخسي، أبو علي المحسن بن علي (ت 384هـ/994م): من كتاب الفرج بعد الشدة، اختار النصوص وقدم لها: د. عبد الإله نبهان، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، طبعة 1995م، السفر الثاني.
8. ابن الجوزي، أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت 597هـ/1201م): كتاب أحكام النساء، تحقيق: زياد حمدان، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى 1409هـ/1989م.
9. ابن قيم الجوزية، شمس الدين محمد بن أبي بكر الزرعي (ت 751هـ/1350م): الطب النبوي، مراجعة: عبد الغني عبد الخالق، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ت.
- أخبار النساء، شرح وتحقيق: د. نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، طبعة 1408هـ/1988م.
10. الحصري، أبو إسحاق إبراهيم بن علي (ت 453هـ/1061م): زهر الآداب وثمر الألباب، اختار النصوص وقدم لها: قاسم محمد وهب، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، طبعة 1996م، القسم الثالث.
11. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت 808هـ/1406م): كتاب العبر وديوان المتبدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر "مقدمة ابن خلدون"، تحقيق وشرح: د. علي عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، الطبعة الثالثة، محرّم 1401هـ/1980م، ثلاثة أجزاء.

12. الدّميري، كمال الدين محمد بن موسى (ت 808هـ/1406م): حياة الحيوان الكبرى، دون محقق، دار الألباب، بيروت/دمشق، د. ت، الجزء الأول والثاني.
13. الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله (ت 748هـ/1348م): كتاب الكبائر، دون محقق، دار الهجرة، دمشق/بيروت، الطبعة الأولى 1407هـ/1987م.
14. الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت 764هـ/1363م): تحفة ذوي الألباب فيمن حكم بدمشق من الخلفاء والملوك والنواب، تحقيق: إحسان خلوصي، وزهير صمصام، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، طبعة 1991م، القسم الأول.
15. ابن طباطبا، محمد بن علي (ت 709هـ/1309م): الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دون محقق، دار صادر، بيروت، د. ت.
16. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت 310هـ/923م): تاريخ الأمم والملوك "تاريخ الطبري"، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة بيروت، الطبعة الثانية، جمادى الثانية 1387هـ/أيلول (سبتمبر) 1967م، الجزء الأول.
17. ابن عبد ربه، أبو عمر أحمد بن محمد الأندلسي (ت 328هـ/940م): العقد الفريد، شرح كرم البستاني، دار المسيرة، بيروت، الطبعة الثانية 1981م، الأجزاء: 1، 4، 5، 6، 10.
18. الفارابي، أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان (ت 339هـ/950م): في شرح كتاب: الجمع بين رأبي الحكيمين، قدّم له وعلّق عليه: د. ألبير نصري نادر، دار المشرق، بيروت، الطبعة الرابعة، د. ت.
19. القرآن الكريم.
20. القشيري، أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم (ت 261هـ/875م): صحيح مسلم، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده، القاهرة، د. ت، الجزء الأول.
21. الكتاب المقدس - كتاب العهد القديم.
22. المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت 346هـ/957م): أخبار الزمان، تحقيق: عبد الله الصاوي، دار الأندلس للطباعة والنشر، د. ت.

- مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: عبد الأمير مهنا، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، الطبعة الأولى 1411هـ/1991م، الأجزاء: 2، 3، 4.
23. أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم (ت 182هـ/798م): كتاب الخراج، دار المعرفة، بيروت/مؤسسة نشر منابع الثقافة الإسلامية، قم (إيران)، طبعة 1399هـ/1979م.

## 2 - المعاجم والموسوعات

1. الجرّ، د. خليل: المعجم العربي الحديث - لاروس، مكتبة لاروس، باريس، الطبعة الأولى، 1973م.
2. الزركلي، خير الدين: الأعلام (قاموس تراجم)، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية عشرة، شباط (فبراير)، 1997م، الأجزاء: من الجزء الأوّل إلى الجزء الثامن.
3. صليبا، د. جميل: المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني/مكتبة المدرسة، بيروت، طبعة 1982م، الجزء الأوّل.
4. عبد الحكيم، شوقي: موسوعة الفلكلور والأساطير العربية، دار العودة، بيروت، الطبعة الأولى، 1982م.
5. العلايلي، عبد الله؛ وآخرون: المنجد في الأعلام، دار المشرق، بيروت، الطبعة العاشرة، 1980م.
6. لجنة من العلماء والأكاديميين السوفياتيين: الموسوعة الفلسفية، بإشراف: م. روزنتال؛ ب. يودين، ترجمة سمير كرم، دار الطليعة، بيروت، الطبعة السادسة، تشرين الأوّل (أكتوبر) 1987م.
7. معلوف، لويس: المنجد في اللغة، منشورات إسماعيليان، طهران/دار المشرق، بيروت، الطبعة الحادية والعشرون، 1 كانون الثاني (يناير) 1973م.
8. ميلتينسكي، إي. م: موسوعة نظرية الأدب - إضاءة تاريخية على قضايا الشكل، ترجمة د. جميل نصيف التكريتي، دار الشؤون الثقافية العامة/وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، الطبعة الثانية، 1986، القسم الأوّل.

9. وهبة، د. مجدي: معجم مصطلحات الأدب، مكتبة لبنان، بيروت، الطبعة الأولى 1974م.

### 3 - الكتب العربية الحديثة

1. إسماعيل، د. محمود: الحركات السريّة في الإسلام - رؤية عصرية، دار القلم، بيروت، الطبعة الأولى، آب (أغسطس) 1973م.
2. إمام، د. إمام عبد الفتّاح: الطاغية - دراسة فلسفيّة لصور من الاستبداد السياسي، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت العدد 183، رمضان 1414هـ/مارس (آذار) 1994م.
3. أمين، د. أحمد: هارون الرشيد، سلسلة كتاب الهلال، دار الهلال، القاهرة، العدد الثالث، ذي القعدة 1370هـ/1951م.
4. الجرف، د. طعيمة: نظرية الدولة والأسس العامّة للتنظيم السياسي، منشورات مكتبة القاهرة الحديثة، القاهرة، الطبعة الأولى، د.ت.
5. حسن، د. حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، دار الجليل، بيروت/مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الثالثة عشرة، 1411هـ/1991م، الجزء الأول: الدولة العربية في الشرق ومصر والمغرب والأندلس.
6. الحفني، د. محمود أحمد: إسحاق الموصلي الموسيقار والنديم، الهيئة المصرية العامّة للكتاب، القاهرة، الطبعة الثانية 1985م.
7. خليل، د. خليل أحمد: مضمون الأسطورة في الفكر العربي، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الثالثة، نيسان (أبريل) 1986م.
8. سرحان، جمال: المسامرة والمنادمة عند العرب حتى القرن الرابع الهجري، دار الوحدة، بيروت، الطبعة الأولى، 1981م.
9. السيّد، د. رضوان: الأمة والجماعة والسلطة - دراسات في الفكر السياسي العربي الإسلامي، منشورات دار اقرأ، بيروت، الطبعة الأولى، 1984م.

10. الشحاذ، أحمد محمد: الملامح السياسية في حكايات ألف ليلة وليلة، منشورات وزارة الإعلام، بغداد، الطبعة الأولى، 1977م.
11. شرابي، د. هشام: مقدّمة لدراسة المجتمع العربي، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الرابعة، 1991م.
12. ضيف، د. شوقي: العصر الجاهلي، دار المعارف، القاهرة، الطبعة السابعة، 1976م.
13. ضيف د. شوقي: العصر العباسي الأوّل، دار المعارف، القاهرة، د. ت.
14. طرايشي، جورج: شرق وغرب - رجولة وأنوثة - دراسة في أزمة الجنس والحضارة في الرواية العربية، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الثالثة، شباط (فبراير) 1982م.
15. العلوي، هادي: في السياسة الإسلامية، دار صحارى، بودابست، الطبعة الثانية، 1991م.
17. عمارة، د. محمد: نظرية الخلافة، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة (تونس)، طبعة 1994م.
18. الغدّامي، د. عبد الله محمّد: المرأة واللغة، المركز الثقافي العربي، بيروت/الدار البيضاء (المغرب)، الطبعة الأولى، 1996م.
19. القيسي، د. نوري حمّود: الأديب والالتزام، دار الحرية للطباعة، بغداد، الطبعة الأولى، 1400هـ/1979م.
20. الكواكبيّ، عبد الرحمن: طبائع الاستبداد، دار الشرق العربي، بيروت/حلب، الطبعة الثالثة، 1411هـ/1991م.
21. الملاح، عبد الغني: رحلة في ألف ليلة وليلة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 1981م.
22. مؤنس، د. حسين: الحضارة - دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 237، جمادى الأولى 1419هـ/أيلول (سبتمبر) 1998م.

23. نصّار، د. ناصيف: منطق السلطة - مدخل إلى فلسفة الأمر، دار أمواج، بيروت، الطبعة الأولى، 1995م.
24. النصير، ياسين: المساحة المختفية - قراءات في الحكاية الشعبيّة، المركز الثقافي العربي، بيروت/الدار البيضاء (المغرب)، الطبعة الأولى، 1995م.
25. السوردي، د. علي: منطق ابن خلدون، دار كوفان، لندن، الطبعة الثانية، 1994م.
26. ياسين، بوعلي: خير الزاد من حكايات شهرزاد - دراسة في مجتمع ألف ليلة وليلة، دار الحوار، اللاذقية، الطبعة الأولى، 1986م.
27. يقطين، سعيد: الرواية والتراث السردية، المركز الثقافي العربي، بيروت/الدار البيضاء (المغرب)، الطبعة الأولى، آب (أغسطس) 1992م.

#### 4 - الكتب الأجنبية المترجمة

1. أوليدوف، أ. ك: الوعي الاجتماعي، ترجمة ميشيل كيلو، دار ابن خلدون، بيروت، الطبعة الثانية، 1982م.
2. باتروورث، شارلز: الدولة والسلطة في الفكر السياسي العربي، ترجمة د. محمد أحمد شومان، دار الساقية، بيروت/لندن، الطبعة الأولى، 1990م.
3. بارت، رولان: درس السيميولوجيا، ترجمة عبد السلام بن عبد العلي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء (المغرب)، الطبعة الثانية، 1986م.
4. بارت رولان: مدخل إلى التحليل البنيوي للقصص، ترجمة د. منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، حلب، الطبعة الأولى، 1993م.
5. باكونين، ميخائيل: الإله والدولة، تعريب جلال المخ، دار المعارف، سوسة (تونس)، طبعة 1992م.
6. بوحديبة، د. عبد الوهاب: الإسلام والجنس، ترجمة هالة العوري، مكتبة مدبولي القاهرة، الطبعة الأولى، 1987م.
7. تودوروف، تزيفيتان: مفهوم الأدب، ترجمة د. منذر عياشي، دار الذاكرة، حمص، الطبعة الأولى، 1991م.

8. توماشفسكي، بوريس؛ وآخرون: نظرية المنهج الشكلي - نصوص الشكلايين الروس، الشركة المغربية للناشرين المتحدين، الرباط (المغرب)/مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، الطبعة العربية الأولى، 1982م.
9. جرونيباوم، جوستاف. إ. فون: حضارة الإسلام، ترجمة عبد العزيز توفيق، الهيئة المصريّة العامة للكتاب/مكتبة الأسرة، القاهرة، طبعة 1997م.
10. جيب، هاملتون: التاريخ الإسلامي في العصور الوسطى، دون ذكر المترجم، المركز العربي للكتاب، دمشق، د. ت.
11. حتّي، د. فيليب: الإسلام منهج حياة، تعريب د. عمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية، آذار (مارس) 1983م.
12. الخطيبي، د. عبد الكبير: في الكتابة والتجربة، ترجمة د. محمد برادة، دار العودة، بيروت، الطبعة الأولى، 1980م.
13. دوفرجه، موريس: في الدكتاتوريّة، ترجمة د. هشام متولي، منشورات عويدات، بيروت/باريس، الطبعة الثانية، تشرين الأول (أكتوبر) 1977م.
14. راسل، برتراند: السلطة والفرد، ترجمة د. لطيفة عاشور، الهيئة المصريّة العامة للكتاب، القاهرة، الطبعة الأولى، 1994م.
15. فوكو، ميشيل: الاهتمام بالذات، ترجمة جورج أبي صالح، مراجعة مطاع صفدي، مركز الإنماء القومي، بيروت، الطبعة الأولى، 1992م.
16. لايبار، وليام: السلطة السياسية، ترجمة الياس حنا الياس، منشورات عويدات، بيروت/باريس، الطبعة الثالثة، 1983م.
17. لاسكي، هارولد: الدولة في النظرية والتطبيق، ترجمة كامل زهير، وأحمد غنيم، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الثانية، تشرين الثاني (نوفمبر) 1963م.
18. لانودو، روم: الإسلام والعرب، تعريب منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية، كانون الأول/ديسمبر 1977م.
19. مكيافللي، نيقولو: الأمير، تعريب خيرى حمّاد، تعقيب فاروق سعد، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الثامنة، 1977م.

20. مومسن، كاترينا: غوته وألف ليلة وليلة، ترجمة د. أحمد الحموم، منشورات وزارة التعليم العالي، دمشق، الطبعة الأولى، 1980م.

## 5 - الدراسات المنشورة في الدوريات، ومقدمات الكتب

1. إبراهيم، د. نبيلة: "لغة القص في التراث العربي القديم"، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، المجلد الثاني، العدد الثاني، يناير، فبراير، مارس 1982م.
2. بارت، رولان: "مدخل إلى التحليل البنيوي للقصص"، ترجمة نخلة فريفر، مجلة العرب والفكر العالمي، مركز الإنماء القومي، بيروت/باريس، العدد الخامس، شتاء 1989م.
3. بدوي، د. محمد: "موت الأحذب وقيامته"، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، المجلد الثالث عشر، العدد الثالث، خريف 1994م.
4. بينولت، ديفيد: "مدخل إلى ألف ليلة وليلة"، ترجمة حسنة عبد السميع، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، المجلد الثاني عشر، العدد الرابع، شتاء 1994م.
5. تودورف، تزيفيتان: "مقولات الحكاية الأدبية"، ترجمة عبد العزيز شبيل، مجلة العرب والفكر العالمي، مركز الإنماء القومي، بيروت/باريس، العدد العاشر، ربيع 1990م.
6. زيادة، د. خالد: "الحسيس والنفيس - الفئات في المدينة الإسلامية" مجلة الفكر العربي، معهد الإنماء العربي، بيروت/الهيئة القومية للبحث العلمي، طرابلس (ليبيا)، السنة الرابعة، العدد التاسع والعشرون، تشرين الأول (أكتوبر)/تشرين الثاني (نوفمبر) 1982م.
7. العطار، د. سمر؛ فيشر، جيرهارد: "فوضى الجنس، التحرر، الخضوع: عملية التحضر وتأسيس نموذج لدور الأنثى في القصة الإطارية لألف ليلة وليلة"، ترجمة أنيسة أبو النصر، مجلة فصول، المجلد الثاني عشر، العدد الرابع، شتاء 1994م.

8. غريب، روز: "المرأة المعاصرة والجنس"، مجلة قضايا عربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، السنة الثامنة، العددان 12/11، تشرين الثاني (نوفمبر)/كانون الأول (ديسمبر) 1981م.
9. مؤلف مجهول: "مذاق ألف ليلة وليلة"، مجلة الشاهد، شركة الشاهد للنشر المحدودة، نيقوسيا (قبرص)، السنة السابعة، العدد الخامس والسبعون، تشرين الثاني (نوفمبر) 1991م.

### مقدّمات الكتب

1. جاسترو، د. جوزيف: "دراسة وتقديم"، مقدّمة كتاب: الجنس وأثره في السلوك الإنساني، لسيجموند فرويد، ترجمة فؤاد ناصر، منشورات حمد، بيروت، الطبعة الثانية 1967م.

### 6 - الكتب الأجنبية

1. Kilito, Abdel Fattah: L'oeil et L'aiguille "essais sur les mille et une nuits", Éditions La Découverte, Paris, 1992.
2. Miquel, André: Un conte des mille et une nuits "Ajîb et Garîb", Éditions Flammarion, Paris, 1977.
3. Miquel André: Sept contes des mille et une nuits, ou il n'ya pas conte innocent, Éditions Sindbad, Paris, 1981.
4. Miquel, André: Les Dames de Bagdad, "conte des mille et une nuits", Éditions, Desjonqueres, Paris, 1991.